العاقبة

في ذكر الموت والآخرة

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الحق الإشبيلي

٥١٠ - ٥٨١هـ

تحقيق

الشيخ خضر محمد خضر

العالمية لكلية الشريعة بالأزهر - ليسانس

العالمية مع اجازة التدريس بالأزهر - ماجستير

مكتبة دار الأقصى

الكويت

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

مكتبة دار الأقصى
حولي/ شارع تونس - مجمع الرميح - ميزانين
تلفون: ٢٥٤٠١٠٩ ص.ب ٣٨٢٣٩ الضاحية. الكويت.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي لا يموت، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن لا إله إلا الله جعل الموت نهاية كل حي، وقال في محكم كتابه اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، حث على ذكر الموت والاتعاظ به فقال: أكثروا ذكر هادم اللذات.

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه الذي عملوا لما بعد الموت ففازوا بسعادة الدنيا ورضوان الله في الآخرة.

وبعد فإن الموت حق، وهو الحق المكروه، وقد ألف العلماء كثيرا من الكتب في الموت وما بعده من البعث والحساب وأمور الجنة والنار، وأحوال الناس فيهما.

ومن هذه الكتب:

١ ـ كتاب البعث والنشور لابي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ.

٢ ـ كتاب البعث لأبي بكر عبدالله بن أبي داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ.

٣ ـ كتاب البعث والنشور لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ.

٤ ـ كشف علوم الآخرة لابي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ.

٥ - كتـاب ذكـر المـوت ومـا بعـده ضمن كتـاب إحياء علوم الدين لابي حامد الغزالي أيضا طبع .

٦ - الثبات عند الممات لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفي سنة **٥٩٧** هـ .

٧ - التـذكـرة في أحـوال المـوتى وأمور الآخرة لأبي عبدالله القرطبي المتوفي سنة **٦٧١** هـ.وهو مطبوع .

٨ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفـراح لمحمـد بن قيّم الجوزية المتوفي سنة **٧٥١** هـ.وهو مطبوع .

٩ - أهـوال القبـور لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي المتوفي سنة **٧٩٥** هـ.وقد حققه السيد محمد مصطفي القضاة .

١٠ - التخويف من النار لابن رجب أيضا وقد طبع .

١١ - البدور السافرة عن أمور الآخرة لجلال الدين السيوطي المتوفي سنة **٩١١** هـ .

١٢ - البعث للضياء محمد بن عبدالواحد المقدسي .

١٣ - التثبيت عند التبييت للسيوطي أيضا وقد تكون هناك كتب أخرى تحدثت عن الموت وأمور الآخرة، وما ذكرته هنا إنما هي نماذج .

والحق أن أمـر المـوت لعظيم وجـديـر أن يؤلف فيـه الكثـير كي يعرف المسلم ما يكون من أمره عند الموت وبعده، فيستعد لرحلة الآخرة ويكثر من العمـل الصـالح الذي ينفعه في دار البقاء حيث هناك جزاء ولا عمل وفي دارنا هذه عمل ولا جزاء .

وكـان ممن ألف في ذكـر المـوت والآخرة أبو محمد عبدالحق الإشبيلي فكان كتاب العاقبة هذا .



ترجمة المؤلف

عبدالحق الإشبيلي[1]

نسبه وحياته :

هو أبـو محمـد عبـدالحق بن عبـدالـرحمن بن عبدالله بن حسين بن سعيد الأزدي الإشبيلي المالكي ، وقد عرف أيضا بابن الخراط .
ولد عبدالحق سنة عشر وخمسمائة للهجرة الموافقة لسنة ست عشرة ومائة وألف للميلاد .

---

(١) له ترجمة في المراجع التالية :
١ـ الاعلام : خير الدين الزركلي ٤/٥٢
٢ـ بغية الملتمس : احمد بن عميرة الضبي ٣٧٨
٣ـ تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ١/٣٧١
٤ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي ١٨٣
٥ـ تذكرة الحفاظ : ابو عبدالله الذهبي ٤/١٣٩
٦ـ تكملة الصلة : عبدالواحد المراكشي ٦٤٧
٧ـ تهذيب الأسماء واللغات : محيى الدين النووي ١/٢٩٢
٨ـ الديباج المذهب : ابراهيم بن فرحون المالكي ١٧٥
٩ـ سير النبلاء : ابو عبدالله الذهبي
١٠ـ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ٤/٢٧١
١١ـ العبر : ابو عبدالله الذهبي ٤/٢٤٣
١٢ـ عنوان الدراية : الجبريني ٣/٢٠
١٣ـ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي ١/٥١٨
١٤ـ كشف الظنون : حاجي خليفة ١٩ ، ٢٠ ، ٤٨١ وغيرها
١٥ـ مرآة الجنان : عبدالله اليافعي ٣/٤٢٢
١٦ـ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ٤/٩٢
١٧ـ الوفيات : ابن قنفذ

كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله ورجاله، مشاركا في اللغة والأدب وقول الشعر.

نزل بجاية بالجزائر زمن فتنة الاندلس، فبث بها علمه وصنف التصانيف، وولي الخطبة والصلاة بها.

كان موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع والتقلل من الدنيا.

توفي رحمه الله في بجاية بعد محنة نالته من قبل الولاية، وكانت وفاته في أواخر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة الموافقة لسنة خمس وثمانين ومائة وألف للميلاد.

روى عن شريح بن محمد وأبي الحكم بن برجان وغيرهم، وروى عنه أبو الحسن المعافري.

كتبه :-

ألف عبدالحق الإشبيلي نحو ستة عشر كتابا هي :-

١ - الأحكام الشرعية الكبري في ستة مجلدات.
٢ - الأحكام الشرعية الوسطى.
٣ - الأحكام الشرعية الصغرى.
٤ - تلقين الوليد.
٥ - التهجد.
٦ - التوبة.
٧ - الجامع الكبير في نحو عشرين مجلدا.
٨ - الجمع بين الصحيحين.
٩ - الوافي في اللغة.
١٠ - الرقائق.
١١ - الزهد.
١٢ - العاقبة في ذكر الموت وهو هذا الكتاب.

١٣ ـ الغريب في لغة القرآن والحديث.

١٤ ـ مختصر كتاب «اقتباس الأنوار» لمحمد الرشتكاني.

١٥ ـ المستصفى في الحديث.

١٦ ـ المعتل من الحديث.

* * *

كتاب العاقبة

هذا الكتاب يبحث في الموت والاستعداد له وعلاماته وتلقين الميت وسؤال القبر وعذابه، والبعث والنشور والحشر والصراط والميزان، وأحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار وفي الشفاعة، وفي الخلود.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى اثنين وعشرين بابا ومقدمة طويلة في الحديث عن الموت وهجمته الشرسة، وبغتته القاصمة.

أما أبواب الكتاب فقد جاءت على النحو التالي.

باب من أخبار بعض الأموات عند الموت، ما يستحب من أحوال الميت عند الموت، الجنائز وفضل اتباعها، الثناء الحسن على الميت، ما يقال عند حضور الميت، وما يحذر من سوء الخاتمة، تلقين الميت والدعاء له، القبور، زيارة القبور ومعرفة الميت من زاره، منامات لبعض الصالحين، منامات رئيت لبعض الأشرار الأرواح وعذاب القبر، القيامة وأهوالها، النفخ في الصور، البعث من القبور، الحوض، الشفاعة الأولى، المحاسبة، الشفاعة الثانية، صفة أهل الجنة، صفة أهل النار، الخلود.



مخطوطات الكتاب

(١) نسخة بمكتبة الاحقاف بتريم باليمن الجنوبية، صورها معهد المخطوطات العربية بالكويت. عدد أوراقها ثلاث وتسعون مقاس ٢٥×١٧,٥ في الصفحة سبعة وعشرون سطرا، معدل كلمات السطر خمس عشر كلمة.

كتبت سنة ثمانمائة وست وعشرين للهجرة. وقد رمزت إليه بحرف «ي».

(٢) نسخة بمكتبة الأزهر. عدد أوراقها مائتان وخمس وعشرون مقاس ٢٠×١٥سم، في الصحفة سبعة عشر سطرا بمعدل اثنتي عشرة كلمة في السطر.

كتبت بخط نسخ قديم بخط أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي سنة ثمانمائة وخمس عشرة للهجرة. وقد رمزت إليها بحرف «ز».

(٣) نسخة بمكتبة شستربتي في مدينة دبلن بايرلندا، عدد أوراقها مائة وثمان وثلاثون، مقاس ٢٠×١٤ سم. في الصفحة ثلاثة وعشرون سطرا بمعدل احدى عشرة كلمة في السطر صورتها مكتبة المخطوطات بجامعة الكويت.

كتبت سنة سبعمائة وثلاث وعشرين للهجرة. وقد رمزت إليها بحرف «ش».

(٤) نسخة بمكتبة ليدن بهولندا رقم ٢٠٠٨ عدد أوراقها مائتان واحدى سبعون ورقة، مقاس ٢٦×١٨سم في الصفحة خمسة عشر سطر، في كل سطر إحدى عشر كلمة، الخط اقرب إلى النسخ ورمزها «ل».

(٥) نسخة بمكتبة برلين بالمانيا رقم ٢٦٥٢.

عدد أوراقها مائتان وثلاث وتسعون.

(٦) نسخة بمكتبة يني جامع بتركيا رقم **٧٢٥** .

(٧) نسخة بمكتبة آق حصار زين الزادة بتركيا رقم **٩٣** عدد أوراقها مائة وثمان وستون . كتبت سنة ثمانمائة وخمس عشرة هـ .

(٨) نسخة بمكتبة با يزيد عمومي بتركيا رقم **١٥٢٣** عدد أوراقها مائة وعشر كتبت سنة ثمانمائة وأربعين .

(٩) نسخة بمكتبة أحمد الثالث الملحقة بطوبقبوسراي بتركيا رقم **١٥٤٦** عدد أوراقها مائتان وتسع عشرة مقاس **١٧×٢٥** .

(١٠) نسخة بمكتبة خزينة الملحقة بطوبقبوسراي بتركيا رقم **٢٤٢** عدد أوراقها مائتان واثنتان وعشرون مقاس **١٦×٢١** .

(١١) نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم **٢٣٥** عدد أوراقها مائة وثلاث عشرة مقاس **٢٨×٢٠**سم .



عملي في التحقيق

١ ـ كانت الخطوة الأولى هي الحصول على مخطوطات الكتاب ولم يكن ذلك سهلا.

٢ ـ قارنت بين النسخ الخطية وأثبت الفروق الجوهرية فيما بينها. أما الفروق البسيطة فقد تركناها لعدم أهميتها ومن هذه الفروق التي لا يؤبه لها أن تكون في نسخة «قال الله تعالى» وفي أخرى «قال الله عز وجل» وفي ثالثة «قال جل شأنه» ونحو ذلك.

٣ ـ دققت الآيات القرآنية الكريمة وعزوتها إلى أماكنها في المصحف.

٤ ـ خرجت أحاديث الكتاب بالرجوع إلى كتب السنة وقد وجدت أن أكثر ما ذكره المؤلف يدخل ضمن الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، أما الأحاديث الضعيفة فهي قليلة جدا بل نادرة.

٥ ـ رقمت أبواب الكتاب حيث لم تكن مرقمة.

٦ ـ شرحت بعض المفردات والتراكيب الصعبة.

٧ ـ ترجمت للمؤلف وذكرت كتبه وأحصيت مراجع ترجمته وبالجملة فقد بذلت قصاري جهدي في إخراج الكتاب على النحو المطابق لأصوله الخطية.

سائلا المولى العلي القدير أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يوفقنا لخدمة تراثنا الإسلامي العظيم والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الكويت في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٤٠٤هـ

الموافق العاشر من سبتمبر سنة ١٩٨٤م

خضر محمد خضر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين قال الشيخ الامام الاوحد الزاهد ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الازدي الاشبيلي المالكي رضي الله عنه

(الحمد لله الذي اذل بالموت رقاب الجبابرة) وكسر بصدمته ظهور الاكاسرة وقصر بعثته امال القياصرة الذي ادار عليهم حلقته الدايرة واخذهم بيده القاهرة فنقلهم في ظلمات الحافرة وصيرهم بعد رهنا الى وقفة الساهرة فاصبحوا قد خسروا الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الاخرة ... والله لا يجبر مصابها ولا ينجع صابها ولا ينقضي الامها وانتصابها لم يمنعهم ما حصلوا من المعاقل والحصون وما احرزوه ما بعثوه من الحراس والعيون ولا فداهم من ريب المنون ما ادخروه من علق مصون وذهب مخزون بل صدمهم بركنه الشديد وصبحهم بجيشه المديد وانفذ فيهم ما كتب عليهم من الوعيد نقلهم من لين المهود الى خشونة اللحود وصيرهم بين حجرها المنضود وجندلها المعقود ولكل اللهو ادم بطعم الدود ونظر اليهم بعينه الشرسا وارسل عليهم كتيبته الخرسا فاذل عزتهم المتعسا وابدلهم من نعيمهم باسا وانطق بالعويل السنة خرسا وصيرهم حديثا يذكر على مر الزمان ولا ينسى تركوا عن الارايك والكلال والاسرة والحجال الى الحجارة والرمال والاراقم والصلال وشظف العيش وضيق المجال وحلوا بربوع غير محلال بحيث لا زوال ولا انتقال ولا عثرة تقال ولا يسمع فيها مقال ولا يلتفت عند ما من قال ارسل عليهم ربك جنود العاتية فاخذهم اخذته الرابية وسلك بهم مسلك الامم الخالية في القرون الماضية فهل تحس منهم من احد او هل لهم من باقية وفيهم قيل وفي امثالهم

حدث حديث القوم من فارس ... ومن بني قبط وبني نان
ومن بني الاصفر اعجب بهم ... وسيد الاتراك خاقان
والاقدمين الاعظمين الاولى ... من حمير ابناء قحطان
من تبع العرب ومن قيصر ... الروم وكسرى ال ساسان
من كل قوم شامخ انفه ... وكل فرعون وهامان
ان نسيت اليوم شيئا فلا ... تنس نعما احسنت كلدان
واذكر ملوك الارض من بعدهم ... من عوف ضمد وعجمان

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة الاحقاف بتريم – اليمن الجنوبية

من كل منصور اللوى أروع . سليل أملاك و تيجان
مجتمع الشمل على عزة . شدّت باساس وأركان
فذل لزلزل الارض و راع الورى . من جيشه الضخم بطوفان
وذلل الارض بسلطانه . كانه رب لجم ثان
انظر اليهم هل ترى منهم . غير احاديث يا فتان
وانظر الى الموت واعماله . فيهم ترى الملك ببرهان
وتبصر الشفر وماذ القوا . بالموت من ذل وخسران
قد صفعتهم يده صفعة . خروا للاذقان و اذقان
وبك في الارض بتيجانهم . والبسوا تيجان دمّان
من حجر صلد ورخو ومن . ترب وحصباء وصيدان
وانزلوا بطن الثرى بعدما . كانوا قعودا فوق كيوان
واطعم الدود الان لحمانهم . يالك لحم من لحيم وديدان
فكم هنالك من فتى ناعم . ومن فتاة ذات اردان
ومن هزبر مرح في الوغا . وظبي تسرح في نعمان
كانهم لم يغنوا واعتبروا . لنازح الدار و للداني
ولم يدافع عنهم جحفل . قد طبق الارض بفرسان
ولا بيوت ملئت كلها . من لؤلؤ رطب وعقيان
بل مرّ ذالك كله مسرعا . كالريح مرت بين قضبان
واصبح الملك لمن ملكه . باق وكل غيره فان

سبحان من تفرد بالعزة والكبريا وتوحد بالديمومة والبقاء وطوق عباده بطوق الفنا وفرض ما كتب عليهم من السعادة والشقاء وجعل الموت مخلصا لاوليائه السعداء ومهلكا لاعدائه الاشقياء خلق البرايا وقدر توفيقا وانهج سبيلا واوضح طريقا فهدى اليه فريقا واضل عنه فريقا لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون واشهد

الحلق

بسم الله الرحمن الرحيم قال الفقيه ابو محمد عبد الحق
ابن عبد الرحمن بن عبد الله الازدي الاشبيلي [illegible] الذي اذل بالموت
رقاب الجبابرة وكسر بصدمته [illegible] آمال القياصرة الذي
ادار عليهم حلقة الدائرة واخذهم [illegible] فاصبحوا قد حجروا الدنيا
ولم يحصلوا على شيء من الآمال [illegible] نصابها
ولا تجرع صابها ولا تنقضت [illegible] رضابها لم
يمنعهم ما حصنوه من المعاقل [illegible] حرسهم ما بعثوه
من الحراس والعيون ولا فداهم من ريب المنون ما ادخروه
من علق مصون وذهب مخزون بل صك [illegible] ركنه الشديد و
صبحهم بجيشه المديد وانفذ فيهم ما كتب عليهم من الوعيد
نقلهم من لين المهود الى خشونة اللحود وصيرهم بين جرحها
المنضود وجندلها المعقود اكلا للهوام وطعما للدود
نظر اليهم بعينه الشوسا وارسل عليهم كتيبة خرسا واذل
عزتهم التعسا واذاق من نعمائهم باسا وانطق بالعويل
منهم الالسنة خرسا وصيرهم حديثا يذكر على مر الازمان
ولا ينسى نزلوا عن الارائك والكلال والاسرة والحجال
الى ضيق الجادة والرمال والمراقم والصلال وشظف العيش

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة الازهر – مصر

وضيق المجال وحلوا بربع غير محلال بحيث لا زوال ولا انتقال
ولا عثرة تقال ولا يسمع فيها كل مقال ولا يلتفت عندها الى
كل من قال ارسل اليهم ربك جنوده العاتية واخذهم اخذة
الرابية وسلك بهم مسلك الامم الخالية والقرون الماضية
فهل تحس منهم من احد او هل ترى لهم من باقية وفيهم
قيل وفي امثالهم شعر

حدث حديث القوم من فارس ... ومن بني قبط ويونان
ومن بني الاصفر اعجب بهم ... وسيد الاتراك خاقان
والاقدمين الاعظمين الاولى ... من حمير ابناء قحطان
من تبع العرب ومن قيصر الروم وكسرى آل ساسان
من كل قرم شامخ انفه ... وكل فرعون وهامان
وان نسيت اليوم شيئا فلا ... تنس بسيطا اخت كلدان
واذكر ملوك الارض من بعدهم ... من عرب صيد وعجمان
من كل منصور اللوى اروع ... سليل اطواق وتيجان
مجتمع الشمل على عزة ... شدت باساس واركان
قد زلزل الارض وراع الورى ... من جيشه الضخم بطوفان
وذلل الخلق بسلطانه ... كانت له شان

أما سمعت بأجساد لهم نضجت * من العذاب ومن غلي على النار
أما سمعت بما يكلفون به * من ارتقاء جبال الله في النار
حتى إذا ما علوا أعلى شواهقها * صبوا بعنف إلى أسافل النار
أما سمعت بزقوم يسوغه * ماء صديد ولا يسوغ في النار
يسقون منه لو أنا ملئت شفاه * ترمى بأمعائهم رمياً على النار
يشوي الوجوه وجوه البشر ظلما * بئس الشراب لهم يا ساكني النار
ولا ينامون إن ضاف المنام * فلا منام لأهل النار في النار
أو يستقيلوا فلا إقال عثرتهم * أو يستغيثوا فلا غياث في النار
وإن أرادوا خروجاً رد خارجهم * ومنع من النار مدحور إلى النار
هم إلى النار مدفوعون للنار * وهم من النار مضروبون للنار
ما إن يخفف عنهم من عذابهم * ولا تفتر عنهم سورة النار
وهذه صفة الكفار سامعها * من ذي الجحيم ومن التخليد في النار
ولو يكون إلى وقت عذابهم * في النار يطفون كم نفخة النار
فيا إلهي ومن لحكامه سبقت * في الفريقين من أعنا بيد النار
رحماك يا رب في ضعفي وفي ضعتي * فما وجودك لي صبر على النار
ولا على حر شمس إن ضربت بها * فكيف أصبر يا مولاي للنار
فإن تغمدني عفو وثقت به * منكم وإلا فإني طعمة النار

الورقة الاخيرة من مخطوطة مكتبة الازهر — مصر

ونحن نستعيذ بالله من عذابه الذي لا تقوم له جميع الوجود فكيف الحشرات والدود، ومن غضبه الذي لا يستطاع ذكره، ولا يقدر قدره، ونسأله رحمته التي تنقلب منها بأفعالنا، ونتباعد عنها بقبيح أعمالنا. بمنه وطوله لا رب غيره ولا معبود سواه، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه وآلهم أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، وهو حسبي، تم كتاب العاقبة بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه،

على يد كاتبه العبد المفتقر إلى رحمة ربه العلي

أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي

عامله الله تعالى

بلطفه،

وغفر له ولوالديه ولمن قرأه أو كتبه أو نظر فيه ودعا لهم بالرحمة

والمغفرة ولجميع المسلمين

ووافق الفراغ من تعليقه في ليلة أسفر صباحها عن ثامن عشر

رجب الفرد سنة خمس عشرة وثمانمائة أحسن الله تعالى خاتمتها

بمنه وكرمه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الامام الراوية ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن
ابن عبد الله الازدي الاشبيلي رحمه الله . الحمد لله الذي ذلل
بالموت رقاب الجبابرة [illegible] بظهور الاكاسرة وقصر بعقبيه
آمال القياصرة الذي دار عليهم حلقة البلاء واخذهم بيده القاهرة
فعلقهم في ظلمات الحافرة وصيرهم بهوانها الى وقعة الباهرة
فاصبحوا قد خسروا الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الاخرة مقبولة ولقد
لا يجيرهم صاحب لا يمنع صاحبه ولا ينتفي الا بها ولا اوصلهم
لم يمنعهم ما حصلوه من المعاقل والحصون ولا حرسهم ما بعثوه من
الحراس والعيون ولا نالهم من ريب المنون ما ادخروه من
علق مضنون وذهب [illegible] بل [illegible] بركته التشبيك
وصيحة [illegible] المدينة وانبأهم ما كتب عليهم من الوعد ونقلهم
من لين المهود الى خشونة اللحود وصيرهم بين حجرها [illegible]
و[illegible] المعقود [illegible] وطعما للدود [illegible]
[illegible] وارسل عليهم [illegible] فلم تر منهم [illegible]
واذا [illegible] وانطق [illegible] منهم السنة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
الامم الخالية والقرون الماضية [illegible] حتى [illegible]

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة شستربتي – دبلن – ايرلندا

لهم من آبائه وفيهم [illegible] وفي أمثالهم [illegible]

خدت جنين الروم من فارس … ومن بني قبط ومن يونان

ومن بني الاصفر اعقبهم … وسبل الاتراك الخاقان

والاعظمين الاقدمين الاولى … من حمير الاقيال وقحطان

من تبع العرب ومن قيصر الروم … وكسرى آل ساسان

من كل فرعون شامخ انفه … وكل فرعون وهامان

وان نسيت القوم نسيا فلا … تنس نمرودا اخا كنعان

امير كل المعمورة الذي اوتي … سليمان الطوافين ونجابانه

تجتمع الالف على [illegible] … شدت بأساس وأركان

وفي ذرى الارض وأرجائها … من جيشه الضخم يطوفان

وذلك الكل بسلطانه … كأنه وثب لهم ثاني

انظر اليهم هل ترى منهم … شخصا ادبر ما فيه سلطان

وانظر الى الآلاف واعمالهم … هل ترى الا السبحان

وانظر الى القوم وما ذا القوم … بالموت من ذلك وخسران

فان صفعتهم بين صفيحة … حجر والاكفان واكفان

وذلك في الارض بجانبهم … والسوابحان ضيقان

من جحود قال وحروب من … رب وجهينا وصيدان

واي لو انزف الدنيا بما … فوافقوا اوفق [illegible]

حل امر الدنيا بما تم … يا ابن الحجر ودنيا آن

وكم هنالك من فتى ما عمر … ومن نبات ذات ارادان

ومن هو من شيخ والشيخ … وطيب نسب وفي [illegible]

كانوا الكرام اعتنوا عليهم … الناس الاول الداني

ولهم يقع عنهم جهات … فلو طلق الارض بقرب الف

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

قال الفقيه الخطيب المحدث الفاضل الورع الزاهد العالم ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الازدي الاشبيلي رحمه الله والحقه رضوانه.

الحمد لله الذي اذل بالموت رقاب الجبابره، وكسر بسطوته ظهور الاكاسره، وحسم به اماني القياصره، الذين لم تزل عليهم علقته الدائره، واخذتهم بيده القاهره، فنقلهم من ظلال القصور الى ظلمات الحافره، وصيرتهم بها رهنا الى الوقفة الشاهره، فاصبحوا قد خسروا الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الآخره، مصيبة والله لا تجبر مصابها، ولا يجزع مصابها، ولا تنقضي احزانها ولا اوصابها، لم يمنعهم ما حصلوه من المعاقل والحصون، ولا حرسهم ما بعثوه من الحرس والعيون، ولا فداهم من ريب المنون ما ادخروه من علق مصون، وذهب مخزون، بل اصابهم من كثيبه

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة ليدن – هولندا

الشديد، وصحبوا بعيشهم البلى، وأتقنتهم ما كنت
عليهم من الوعيد، تعتاقهم من لين المهود الى خشونة
اللحود، وصيرتهم بين حجرها المنضود، وجندلها المقصود
أكلا للهوام وطعما للدود، نطق اليهم بعينه الشوهاء، وأشل
عليهم كبيثة الحرشاء، فأذل عنهم الغشاء، وأذال من
نعابهم [illegible] والطف بالعويل منهم الشفة خرساء، وصيرهم
حديثا يذكر على مر الزمان، ولا ينشأ نزلوا عن الارائك والكلا
والاسرة والجمال الى الجبانة والرمال والاراقم والصلال
وتبدلوا العيش ضيق الحال وحلوا بربع غير حلال
تحيث لا زوال ولا انتقال ولا عثرة تقال ولا يسمع فيها
كل مقال ولا يلتفت عنها الى كل من ذلك ارسل ربك
عليهم جنود الكتائب واعظم اشدته الراسية وسلك
بهم مسالك الامم الخالية والقرون الماضية فهل تحس
منهم من احد او هل ترى لهم من باقية وفيهم [illegible] امثالهم
[illegible]

اما سمعت بما يلقون من ان نفا حبال النار في النار

حتى اذا ما علوا على شواهقها صبوا بعنف الى اسفل النار

اما سمعت بزقوم يسوغه ما صديد ولا تسويغ في النار

يسقون منه كؤوسا ملئت شغفا ترمى بما بهم رميا على النار

تشوي الوجوه وجوها البستاطيا بئس الشراب شراب يا كل النار

ولا ينامون ان طاق المنام بهم ولا منام لاهل النار في النار

ان يستقيلوا فلا تقال عثرتهم وان يستغيثوا فلا غياث في النار

وان ارادوا خروجا عاد حبهم بمنع النار مدحورا الى النار

فهم الى النار مدفوعون بالنار وهم الى النار مصدودون للنار

ما ان يخفف عنهم من عذابهم ولا سنون عنهم سورة النار

فهذه صفتها كما مسامعها من نبي الحق وهي للتخليد في النار

ولو يكون بلا وجيعة ابهم في النار هون فكم نعجة النار

فيا الهي ومن اخلاقه سبقت في العرش بين من الجنات والنار

ترحمك يا رب في ضعفي وضعفي ما وجودك اصبر على النار

ولا على حر شمس ان برزت لها فكيف اصبر يا مولاي على النار

الورقة الاخيرة من مخطوطة مكتبة ليدن — هولندا

فإن تعذبني [illegible] [illegible] وإلا [illegible] النار

ونحن نستعيذ بالله تعالى من عذاب الله الذي [illegible] له جميع

الوجود تكشف الحجرات والدرود ومن غضب الله الذي لا يستطيع

ع

سمعه تكشف نزوله ورفعه ونسأله رحمته التي تعلقت

منها بأفعالنا وتباعدنا منها بقبيح أعمالنا بمنه وطوله لا

رب غيره ولا معبود سواه وصلوته على سيدنا محمد خاتم

النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم وكرم

وشرف وعظم ه

قوبلت

تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى

آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

قال الشيخ الإمام الأوحد الزاهد أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن ابن عبدالله الأزدي الإشبيلي المالكي رضي الله عنه.

الحمد لله الذي أذل بالموت رقاب الجبابرة، وكسر بصدمته ظهور الأكاسرة، وقصر ببغتته آمال القياصرة[1]، الذي أدار عليهم حلقته الدائرة، وأخذهم بيده القاهرة، فقذفهم في ظلمات الحافرة، وصيرهم بها رهنا إلى وقفة الساهرة[2]، فأصبحوا قد خسروا الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الآخرة.

مصيبتهم والله لا يجبر مصابها، ولا يتجرع صابُها، ولا تنقضي آلامها ولا أوصابها.

لم يمنعهم ما حصنوه من المعاقل والحصون، ولا حرسهم ما بعثوه من الحرس والعيون ولا فداهم من ريب المنون ما ادخروه من علق مصون وذهب مخزون.

بل صدمهم بركنه الشديد، وصبحهم بجيشه المديد. وأنفذ فيهم ما كتب عليهم من الوعيد.

نقلهم من لين المهود إلى خشونة اللحود، وصيرهم بين حجرها المنضود وجندلها المعقود أكلا للهوام وطعما للدود.

نظر إليهم بعينه الشوساء[3] وأرسل عليهم كتيبته الخرساء، فأذل عزّتهم

---

(١) مفتتح كتاب ذكر الموت من إحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤٤٨ مع تصرف قليل.

(٢) من: فقذفهم الى هنا سقط من ز.

(٣) الشوساء: الشوس: النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغيظا. يقال رجل أشوس، وامرأة شوساء.

القعساء[٤]، وأبدل من نعمتهم بؤسا، وأنطق بالعويل ألسنة خرسا، وصيرهم حديثا يذكر على مر الزمان ولا ينسى.

نزلوا عن الأرائك والكلال[٥] والأسرة والحجال[٦] إلى الحجارة والرمال والأراقم والصلال، وشظف العيش وضيق المجال، وحلوا بربع غير محلال، بحيث لا زوال ولا انتقال، ولا عثرة تقال، ولا يسمع فيها مقال، ولا يلتفت عندها إلى من قال.

أرسل عليهم ربك جنوده العاتية، وأخذهم أخذته الرابية، وسلك بهم مسلك الأمم الخالية والقرون الماضية، فهل تحس منهم من أحد، أوهل ترى لهم من باقية، وفيهم قيل وفي أمثالهم:

حدث حديث القوم من فارس ... ومن بني قبط ويونانِ
ومن بني الأصفر[٧] أعجب بهم ... وسيد الأتراك خاقانِ
والأقدمين الأعظمين الألى ... من حمير أبناء قحطانِ
من تبع العرب ومن قيصر ... الروم وكسرى آل ساسانِ
من كل قَرم[٨] شامخ أنفه ... وكل فرعون وهامانِ
وإن نسيت اليوم شيئا فلا ... تنس نبطا أخت كلدانِ
واذكر ملوك الأرض من بعدهم ... من عرب صيد وعجمانِ
من كل منصور اللوا أروع ... سليل أطواق وتيجانِ
مجتمع الشمل على عزة ... شيدت بأساس واركانِ
قد زلزل الأرض وراع الورى ... من جيشه الضخم بطوفانِ
وذل الخلق بسلطانه ... كأنه رَبٌّ لهم ثانِ
انظر إليهم هل ترى منهم ... غير أحاديث بأفنانِ

---

(٤) القعساء: الثابتة.

(٥) الكلال: جمع كلة وهي ما نسميه الناموسية.

(٦) الحجال: جمع حجله وهو بيت يزين بالستور للعروس.

(٧) بني الأصفر: الروم.

(٨) قرم: القرم السيد العظيم وهو في الأصل الفحل من الابل إذا ترك عن الركوب والعمل، وشبه به العظيم من الرجال.

وانظر إلى الموت وأعماله فيهم ترى الهلك ببرهانِ
وأبصر القوم وماذا لقوا بالموت من ذل وخسرانِ
قد صفعتهم يده صفعة خروا لآناف وأذقانِ
ودك في الأرض بيتجانهم وألبسوا تيجان صمانِ
من حجر صلد ورخو ومن ترب وحصباء وصيدانِ
وأنزلوا بطن الثرى بعدما كانوا قعودا فوق كيوانِ
واطعم الديدان لحما نهم ويالك من لحم وديدانِ
فكم هناكم من فتى ناعم ومن فتاة ذات أردانِ
ومن هزبر[9] مرح في الوغى وظبية تسرح في بانِ
كانوا كذا ثم اغتدوا عبرة لنازح الدار وللدانِ
ولم يدافع عنهم جحفلٌ[10] قد طبّق الأرض بفرسانِ
ولا بيوت ملئت كلها من لؤلؤ بحْت وعقيانِ
بل مَرّ ذاكم كله مسرعا كالريح مرت بين قضبانِ
وأصبح الملك لمن ملكه باق وكل غيره فانِ

فسبحان من تفرد بالعزة والكبرياء، وتوحد بالديمومة والبقاء، وطوق عباده بطوق الفناء، وفرقهم بما كتب عليه من السعادة والشقاء، وجعل الموت مخلّصا لأوليائه السعداء، ومهلكا لأعدائه الأشقياء.

خلق خذلانا وقدر توفيقا، وأنهج سبيلا وأوضح طريقا، فهدى إليه فريقا وأضل عنه فريقا. لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من وفق لها في الأزل، وكتب له بها في القسم الأول، ففتح لها كل باب، وهتك دونها كل حجاب، وخلصها من الشبهة والارتياب، وظهرت عليه فيها نعمة العزيز الوهاب الغفور التواب، ملك الملوك ورب الأرباب.

---

(٩) هزبر: اسد، اراد به الرجل الشجاع.
(١٠) جحفل: جيش عظيم.

وأشهـد أن محمـدا عبـده ورسـولـه المرفوع عليه علم التحقيق، المختص بخصائص التوفيق، الداعي إلى أنهج سبيل وأوضح طريق.

صلى الله عليـه صلاة تزيـده شرفـا، وتـرفعه زلفى، وتوردنا مورده الذي عذب وصفـا. وعلى آلـه الطيبين وصحابته الأكرمين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلّمْ وكرّمْ وشرّفْ وعظّمْ.

أما بعد فإن الموت أمر كُبّار لمن أنجد[١١] وأغار، وكأس تدار فيمن أقام أو سار، وباب تسوقك إليه يد الأقدار، ويزعجك فيه حكم الأضطرار، ويخرج بك إما إلى الجنة وإما إلى النار.

خبر ـ علم الله ـ يصُم الأسماع ويغير الطباع، ويكثر من الآلام والأوجاع.

واعلمـوا أنـه لو لم يكن في المـوت إلا الإعدام وانحلال الأجسام ونسيانك أخرى الليالي والأيام، لكان والله لأهل اللذات مكدرا ولأصحاب النعيم مغيرا، ولأربـاب العقـول عن الـرغبـة في هذه الـدار زاجـرا ومنفرا. كما قال مطرف بن عبدالله بن الشخير:

إن هذا الموت نغص على أهل النعيم نعيمهم، فأطلبوا نعيما لاموت فيه، فكيف ووراءه يوم يُعـدم فيـه الجـواب، وتـدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه الأقلام والكتاب، ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب.

واعلموا رحمكم الله أن الناس في ذكر الموت على ضروب فمنهم المنهمك في لذاته المثابر على شهواته، المضيع فيها مالا يرجع من أوقاته، لا يخطر الموت له على بال، ولا يحدّث نفسه بزوال، قد أطرح أخراه واكبّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه فأصمّه ذلك وأعماه، وأهلكه وأرداه.

فإن ذِكـر له المـوت نفـر وشـرد، وإن وعـظ أنف وبعـد وقام في أمره الأول وقعـد. قد حاد عن سواء نهجـه. ونكب عن طريق فلجـه[١٢] وأقبـل على بطنه وفـرجـه، تبت يداه وخـاب مسعـاه وكأنه لم يسمع قول الله عز وجل ﴿كل نفس

---

(١١) انجـد: دخـل في نجـد وهـو الأرض المرتفعة. وأغار: دخل في غور وهو الأرض المنخفضة. والمراد لكل إنسان.

(١٢) نكب عن طريق فلجه: ابتعد عن الطريق الصحيح.

ذائقة الموت﴾[١٣] ولا سمع قول القائل فيه وفي أمثاله حيث قال:

ياراكب الروع للذاته	كأنه في أتن[١٤] عَيْرُ
وآكلا كل الذي يشتهي	كأنه في كلأ ثورُ
وناهضا إن يدْعُ داعي الهوى	كأنه من خفةٍ طيْرُ
وكل ما يسمع أو ما يرى	كأنما يعنى به الغيْرُ
إنّ كؤوس الموت بين الورى	دائرة قد حثها السيْرُ
وقد تيقنتَ وإن ابطأت	ان سوف يأتيك بها الدوْرُ
ومن يكن في سيره جائرا	تالله ما في سيرها جوْرُ

ثم ربما أخْطَرَ الموت بخاطره، وجعله من بعض خواطره، فلا يهيج منه إلا غما، ولا يثير من قلبه إلا حزنا، مخافة أن يقطعه عما يؤمل أو يفطمه عن لذة في المستقبل، وربما فَرّ بفكرِه منه ودفع ذلك الخاطر عنه. ويا ويحه كأنه لم يسمع قول الله عز وجل: ﴿قل إنَ الموت الذي تفِرّونَ منه فإنه ملاقيكم﴾[١٥] ولا قول القائل:

فِرّ من الموت أو اثبت له	لا بد من أنك تلقاه
واكتب بهذي الدار ما شِئتَه	فإن في تلك ستقراه

وكذلك من كان قلبه متعلقا بالدنيا، وهمه فيها ونظره مصروفا إليها، وسعيه كله لها، وهو مع ذلك من طلابها المحرومين وأبنائها المكدودين[١٦]، لم ينل منها حظا ولا رقى منها مرقى، ولا نجح له فيها مسعى، إن ذكر له الموت تصامم عن ذكره ولم يمكنه من فكره، وتمادى على أول أمره، رجاء أن يبلغ ما أمل، أو يدرك

---

(١٣) آية ٣٥ سورة الأنبياء.
(١٤) الأتن: جمع أتان وهي الحمارة.
(١٥) آية ٨ سورة الجمعة.
(١٦) المكدودين: المتعبين بفتح العين.

بعض ما تخيل، فعمره ينقص وحرصه يزيد، وجسمه يخلق وأمله جديد، وحتفه[١٧] قريب ومطلبه بعيد.

يحرص حرص مقيم، ويسير إلى الآخرة سير مجد، كأن الدنيا حق اليقين، والآخرة ظن من الظنون. وفي مثل هذا قيل:

اتحرص يا ابن آدم حرص باقٍ	وأنت تمر ويحك كل حينِ
وتعمل طول دهرك في ظنون	وأنت من المنون[١٨] على يقين

وهذا إذا ذكر الموت أو ذكر به لم يخف أن يقطع عليه مُهِماً من الأغراض قد كان حصله، ولا عظيما من الآمال في نفسه قد كان أدركه، لأنه لم يصل إليه ولا قدر عليه، لكنه يخاف أن يقطعه في المستقبل عن بلوغ أمل يحدث به نفسه ويخدع به حِسّه، وهو يرى فيه يومه كما قد رأى فيه أمسه.

قد ملأ قلبه بِتلك الأحاديث المشغلة والأماني المرذلة، والوساوس المتلفة، قد جعلها ديدنه[١٩] ودينه، وإيمانه ويقينه.

وربما ضاق ذَرعه بالدنيا وطال همه فيها من تعذر مراده عليه وقلة تَأتّيه[٢٠] له، فتمنى الموت إذ ذاك ليستريح بزعمه، وهذا من جهله بالموت وبما بعد الموت. والذي يستريح بالموت غيره، والذي يفرح به سواه، إنما الفرح من وراء الصراط، والراحة بعد المغفرة.

توفيت امرأة كان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحونها ويضحكون معها، فقالت عائشة رضي الله عنها: لقد استراحت فقال رسول الله ﷺ: إنما يستريح من غفر له. ذكره أبو بكر البزار في مسنده.

فلا يزال هذا البائس يتحمل من الدنيا بؤسها، ويتلقى نحوسها ويلبس

---

(١٧) الحتف: الموت.
(١٨) المنون: الموت.
(١٩) ردينه: دأبه وعادته.
(٢٠) تأتيه: إمكانه.

لكل شدة لبوسها. وهو يتعلل بعسى ولعل. ويرى جنده الأفلّ، وحزبه الأقلّ، وناصره الأذل فلا يرعوي[٢١] ولا يزدجر، ولا يفكر ولا يعتبر، ولا ينظر ولا يستبصر حتى إذا وقعت رايته وقامت قيامته، وهجمت عليه منيته، وأحاطت به خطيئته، فانكشف له الغطاء، وتبدت له موارد الشقاء، صاح واخيبتاه! واثكل أماه! واسُوءِ منقلباه!

هيهات هيهات، ندم والله حيث لا ينفعه الندم، وأراد التثبيت بعدما زلّت به القدم، فخر صريعا لليدين وللفم، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[٢٢] فنعوذ بالله من الحرمان، ومن ضحك العدو وشماتة الشيطان.

وهذا والذي قبله إن لم يكن لهما عناية أزلية، وسابقة أولية فيمسك عليهما الإيمان، ويختم لهما بالاسلام، وإلا فقد هلَكَا كل الهلاك، ووقعا بحيث لا دراك، ولا مخلص ولا انفكاك.

فنعوذ بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء بفضله ورحمته.

ورجل آخر - وقليل ما هم - من أزيل من عينه قذاها، وكشف عن بصيرته عماها، وعرضت عليه الحقيقة فرآها، وأبصر نفسه وهواها فزجرها ونهاها، وأبغضها وقلاها[٢٣]، فلبى المنادي وأجاب الداعي، وشمر لتلافي ما فات، والنظر فيما هو آت، وتأهب لهجوم الممات، وحلول الشتات، والانتقال إلى محلة الأموات.

ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشهد وقائعه أو يرى طلائعه، أو يكون ذاكرا حديثه أو سامعه، وليس يكره الموت لذاته، ولا لأنه هادم لذاته، ولكن يخاف ان يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد، والاكتساب ليوم الحساب، ويكره ان تطوى صحيفة عمله قبل بلوغ أمله، وأن يبادر بأجله قبل اصلاح خلله وتدارك زلله فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار[٢٤]، والإقامة بهذه المحلة بسبب هذه العلة.

---

(٢١) يرعوى: يرجع.
(٢٢) ام قشعم: كناية عن الموت.
(٢٣) قلاها: هجرها وتركها.
(٢٤) الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة والمطلب.

كما روى عن بعض العالمين وقد بكى عند الموت، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لفراق هذه الدار حرصا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار، لكن على ما يفوتني من الادخار ليوم الافتقار، والاكتساب ليوم الحساب.

قال في هذا او معناه:

أهون بداركم الدنيا وأهليها	واضرب بها صفحات من محبيها
الله يعلم اني لست وامقها[25]	ولا اريد بقاء ساعة فيها
لكن تمرغت في ادناسها حِقَباً	وبِتُّ أنشرها حينا وأطويها
أيام أسحب ذيلي في ملاعبها	جهلا وأهدم من ديني وأبنيها
وكم تحملت فيها غير مكترث	من شامخات ذنوب لست أحصيها
فقلت أبقى لعلي أهدم ما	بنيت منها وأدناسي أنقيها
ومن ورائي عقاب لست أقطعها	حتى أخفف أحمالي وألقيها
ياويلتي وبحار العفو زاخرة	إن لم تصبني برش في تشنيها

وهذا إذا مات فيالله دره من ميت، ما أفضل حياته وأطيب مماته، وأعظم سعادته وأكرم وفادته، وأتم سروره وأكمل حبوره[26]

واعلم أن هذا لا يدخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» لأن هذا لم يكره لقاء الله تعالى لذات اللقاء، إنما كره أن يقدم على الله عز وجل متدنسا بأوضاره[27]، ثقيل الظهر بأوزاره، ملآن من عاره وشناره[28] فأراد أن يتطيب للقاء ويستعد لفصل القضاء.

قال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا قلت: ولم؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقا لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جل جلاله؟!

---

(٢٥) وامقها: الوامق: الناظر الى الشيء.
(٢٦) الحبور: السرور.
(٢٧) الأوضار: جمع وضر وهو وسخ الدسم.
(٢٨) الشنار: أقبح العيب.

وقال سليمان بن عبدالملك لأبي حازم: ياأبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال: كيف القدوم على الله عز وجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحا مسرورا، وأما المسيء فكالعبد الآبق(٢٩) يأتي مولاه خائفا محزونا.

قال أبو بكر الكتاني: كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنيه فوجدها ستين سنة، فحسب أيامها فوجدها واحدا وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ صرخة وخر مغشيا عليه، فلما أفاق قال: يا ويلتاه! أنا آتي ربي بواحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟!

يقول هذا لو كان ذنب واحد في كل يوم، فكيف بذنوب كثيرة لا تحصى؟!

ثم قال: آهٍ عليَّ، عمرت دنياي وخربت أخراي، وعصيت مولاي، ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب؟! وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب والحساب والعتاب والعذاب، بلا عمل ولا ثواب؟!

وأنشد:

منازل دنياك شيَّدْتها ... وخرّبْت دارك في الآخرة
فأصبحت تكرهها للخراب ... وترغب في دارك العامرة

ثم شهق شهقة عظيمة، فحركوه فإذا هو ميت.

على أن هذا الحديث «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» قد جاء مفسرا، فعن عائشة رضي الله عنها:

قال رسول الله ﷺ: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقلت: يانبي الله أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت؟ قال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله

---

(٢٩) الآبق: الهارب.

لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه وعقوبته كره لقاء الله فكره الله لقاءه.[30]

ذكره مسلم بن الحجاج.

وقال البخاري في هذا الحديث: ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته. فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه.

ورجل آخر هو من القليل قليل، قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وشاهد ما شاهد من كمال الربوبية وجمال الحضرة الإلهية فملأت عينه وقلبه، وأطاشت عقله ولُبَّه، فهو يحن إلى ذلك المشهد، ويحوم على ذلك المَوْرِد، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد، وقد علم أن الحياة حجاب بينه وبين محبوبه، وستر مسدل بينه وبين مطلوبه، وباب مغلق يمنعه من الوصول إلى مرغوبه.

فلو أصاب سبيلا إلى هتك ذلك الحجاب هتَكه، أو رفع ذلك الستر رفعه، أو كسر ذلك الباب حطمه وكسره، فعذابه في الحياة، وراحته في الممات.

كما يروى أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما نزل به الموت قال: حبيب جاء على فاقة.

وقد قيل: إن الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب.

وأنشد بعضهم:

يا حبذا الموت وأهواله ... وسكرة منه تلي سكره
وزفرة في اثرها زفرة ... كأنها في كبدي جمره
وروعة تقطع مني الحشا ... كأنها في أضلعي شفره
يا حبذا ياحبذا كل ما ... لاقيت من ضر ومن عسره
أهون به ثمت أهون به ... ولو غدا مثل الحصى كثره

(30) رواه البخاري في الرقاق 11/308، ومسلم في الذكر والدعاء رقم 2683. والترمذي في الجنائز رقم 1066. انظر جامع الأصول 9/595 و596.

إذ كان ذاكم مُعْقِبي نظرة في وجه ذي العز وذي القدره[31]
يا لأماني تمنيتها تفقد نفسي دونها حسرة
والموت جسر للقاء المنى فليعمل الغافل ما سرَّه[32]

ويروى عن علي بن الفتح أنه رأى الناس في يوم عيد يتقربون بقرابينهم - يعني بضحاياهم - فقال: يا رب وأنا اتقرب إليك بأحزاني. ثم غشي عليه، فلما أفاق قال: إلهي إلى كم ترددني في هذه الدنيا؟! فمات من ساعته.

ومقدمات هذا وأمثاله تدل على ما وراءها من الوصال والاتصال والأنس بذلك الجلال والجمال.

وآخر قد شاهد ما شاهد ذلك، وربما زاد عليه، ولكنه فوض الأمر إلى خالقه، وسلم الحكم لبارئه، فلم يرض إلا ما رضي له، ولم يُرِد الا ما أُريدَ به، ولا اختار إلا ما حكم فيه، ان أبقاه في هذه الدار أبقاه، وإن أخذه اليه أخذه.

قال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني:

الناس رجلان: رجل أحب الله تعالى، فأحب الموت شوقا إلى لقاء الله، ورجل أحب البقاء لإقامة حق الله تعالى.

قال: فوثب اليه غلام لم يحتلم فقال: ورجل ثالث! أو قال ورجل آخر، فقال أبو سليمان: ومن هو يابني[33]؟ قال: من لم يختر هذا ولا هذا اختار ما اختار الله عز وجل له. فقال أبو سليمان: احتفظوا بالغلام فانه صِدِّيق.

واجتمع يوما وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن اسباط رحمهم الله تعالى، فقال الثوري: كنت أكره موت الفجأة ووددت اليوم أني مت. فقال له يوسف بن اسباط: لم؟ قال: لما اتخوف من الفتنة في الدين. فقال يوسف: لكني أحب الحياة وطول البقاء. فقال له سفيان: لم؟ قال: لعلي أن أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا.

---

(31) الى هنا سقط من ش.
(32) في ز و ل: فيثبت المرء لها جسره.
(33) يابني: ليس في ز و ل.

فقيل لوهيب: اي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئا، أحَبُّ ذلك الي أحبُّه الى الله عز وجل. فقبّل الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة.

وقال علي بن جهضم عن علي بن عثمان بن سهل: دخلت على عمرو بن عثمان وهو في علته التي توفي فيها، فقلت له: كيف تجدك؟

فقال: أجد سري واقفا مثل الماء لا يختار النقلة ولا المقام.

يعني مثل الماء في الإناء أو القرار من الأرض. يقول لا يختار الحياة ولا الموت. وقال القائل في هذا المعنى:

كل ما يفعل الحبيب حبيب ... والذي شاء بي فشيء عجيب
إن سكون اراد بي فسكون ... أو وحيب اراد بي فوجيب
وإذا ما أراد موتي فموتي ... أو حياتي لكل ذاك أجيب
كل ما كان من قضاء فيحلو ... بفؤادي نزوله ويطيب

فهذا إذا مات لا يُسأل عن حاله ولا يقال ما فعل به؟

ومنهم من يتمنى الموت ويشتهيه، ويسأله ربه تعالى ويرغب إليه فيه، وقد علم أن وراءه يوما ثقيلا وحبسا طويلا، ومقاما يقوم فيه ذليلا، لكن لما رأى نفسه منصوبا للمحن معرضا للفتن، مرتهنا بما هو به مرتهن، وأبصر تفريطه في الزاد ليوم المعاد، وفي الاستعداد ليوم الاشهاد، وخاف أن يقتطع عن سبيل المؤمنين ويختلج عن طريق المسلمين، تمنى الموت لينجو من هذا الخطر، ويسلم من هذا الغرر، وأن يقدم على الله عز وجل بالإيمان كائنا منه بعد ذلك ما كان. وهذا إن شاء الله إذا مات خرجت له البشرى بالأمان، وأن يحتل في جوار الرحمن حيث شاء من دار الكرامة والرضوان.

واعلم أن هذا لا يدخل تحت قوله عليه السلام: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به». فإنه عليه السلام إنما أراد الضرر الدنيوي الذي ينزل بالإنسان من محن الدنيا في النفس والأهل والمال. وهذا إنما تمناه مخافة أن ينزل به الضرر الأخروي، وأن يقتطع بالمعاصي عن الله، وأن يصد بالفتن عن سبيل الله.

وبالجملة فالموت طريق نجاة يركبها المؤمنون، ومورد سلامة يردها المسلمون، لقوا فيه مالقوا، وسقوا منه ما سقوا كل ذلك يهون، لما يفضي بهم إليه من السعادة الأبدية، والحياة السرمدية.
نسأل الله جميل الخاتمة، وحسن العاقبة، ومَرَدًّا غير مخز ولا فاضح برحمته لا رب سواه.

والأحاديث التي وردت في النهى عن تمني الموت صحيحة مشهورة.
ذكر مسلم بن الحجاج رحمه الله من حديث أنس بن مالك قال:
قال رسول الله ﷺ: «لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيا فليقل اللهم احيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي[٣٤]».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدْعُ به من قبْل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا[٣٥]».

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «لايتمنين أحدكم الموت، إما محسنا فلعله أن يزداد، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب[٣٦]».

وذكر أبو بكر البزار من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد وإن من السعادة أن يطول عمر العبد حتى يرزقه الله الإنابة».

وسأذكر لك إن شاء الله جملة كافية مما ورد في الموت، ومما يعين على ذكره والفكرة فيه، وذكر الصالحين له، وكلامهم عند نزوله مع كلام غيرهم من

---

(٣٤) رواه مسلم رقم ٢٦٨٠ في الذكر والدعاء، والبخاري ١٠/١٠٧ و١٠٨ في المرضى. والترمذي رقم ٩٧١ في الجنائز. وأبو داود رقم ٣١٠٨ في الجنائز. والنسائي في الجنائز. (جامع الأصول ٢/٥٥٤).

(٣٥) رواه مسلم رقم ٢٦٨٢. والبخاري ١٠/١٠٩ والنسائي في الجنائز. نفس المرجع.

(٣٦) رواه ايضا النسائي. انظر جامع الأصول ٢/٥٥٥. ومعنى يستعتب: يستقيل من شيء فعله أو قاله.

المغـترين والجهلة المخـدوعـين، ومـا وراءه من السؤال والحسـاب، والثـواب والعقاب، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعلك تظن بقـولي هذا وبـالجملة «فـالموت طريق نجاة يركبها المؤمنون» الكلام إلى آخره - أني إنما أردت بذلك تهوين الموت وتسهيل كربه، وتحقير خطبه والازدراء بشأنــه وقلة المبـالاة به. كلا ومَن كَتَبَـه على البشـر، وجعله عبرة من العـبر، وإحـدى آيـاتـه الكُـبَر ما قلت ذلـك لهذا، وإنـما قلته للحالة التي يؤول المؤمنـون إليهـا ويقيمون عليها، ويكرمون بها ويخلدون فيها، فذلك يهون الموت وما هو أعظم من الموت، بل الإقامة في سكراته وتجرع مراراته آلافا من السنين، وأضعاف ما تعدّه مئين.

وإلا فالمـوت هو الخطب الأفظـع، والأمـر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنه الحادث الهادم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريهات.

وإن أمـرا يقطـع أوصـالـك، ويفـرق أعضـاءك، ويفتت أعضادك ويهد أركانك، لهو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العقيم.

ومـا ظنـك رحمـك الله بنـازل ينـزل بك فيـذهب رونقـك وبهاءك، ويغير منظـرك ورواءك[٣٧]، ويمحـو صورة جمالـك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، ويردك بعد النعمة والنضرة، والسطوة والقدرة ٧ / أ والنخوة والعزة إلى حالة يبادر فيهـا أحب النـاس لك وأرحمهم بك وأعطفهم عليـك، فيقـذفـك في حفـرة من الأرض قريبـة أنحـاؤهـا، مظلمة أرجاؤها[٣٨]، محكم عليك حجرها وصيدانها متحكم فيك هوامها وديدانها.

ثم بعـد ذلـك يتمكن منـك الإعـدام، وتختلط بالرغام[٣٩]، وتصير ترابا تطؤه الأقدام.

---

(٣٧) الرواء: الحسن بضم الحاء.
(٣٨) الأرجاء: النواحي.
(٣٩) الرغام: التراب.

وربما ضُرِب منك إناء فخار أو أحكم منك بناء جدار، أو طلي منك محبس ماء أو موقد نار، كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتى بإناء ماء ليشرب منه فأخذه بيده ونظر إليه، وقال كم فيك من عين كحيل وخد أسيل[٤٠]؟!

وكان بقرطبة امرأة صالحة مذكورة بالخير معروفة، اسمها عزيزة بنت القلفيطي، وكانت لها رؤيا صادقة، فرأت فيما يرى النائم كأنها خارجة على باب الضاغط بقرطبة عن يسار الخارج بنيانا من أعضاء بني آدم وشعورهم، ولهم صياح وضجيج، ورجل طويل واقف وعليه ثياب خضرة نيرة، ويداه على عينيه، وهو يقول عيناي ياقوم في الحائط، فأخبرت بهذا الرؤيا أبا بكر بن مؤمن رحمه الله تعالى، فخرج إلى الموضع، فوجد فيه مسجدا ودورا قد بنيت في طرف مقبرة كانت هنالك، تعرف بمقبرة عباس.

وبنيت تلك الدور والمسجد لمصلحة رأى الجيران في ذلك . . . . [٤١] ذلك، حدثني بهذه الحكاية صاحبنا الوجيه أبو الحسن بن أبي بكر بن مؤمن عن أبيه، وعن المرأة أيضا وقد سمعت أيضا الحكاية قبل هذا من أبي الحسن بن كامل الصوفي ومن غيره من أصحابه.

ويحكى أن رجلين تنازعا وتخاصما في أرض، فانطق الله عز وجل لَبنة في حائط من تلك الأرض، فقالت: يا هذان إني كنت ملكا من الملوك، ملكت كذا وكذا سنة، ثم مت وصرت ترابا، فبقيت كذلك ألف سنة، ثم أخذني خزّاف - يعني فخارا - فعمل مني إناءا، فاستعملت حتى تكسرت، ثم عدت ترابا فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة فجعلني في هذا الحائط، ففيم تنازعكما؟ وفيم تخاصمكما؟!.

وهذا التغيير إنما يحل بجسدك وينزل ببدنك، لا بروحك، لأن الروح لها حكم آخر، وما مضى منك فغير مضاع، وتفرُّقه لا يمنعه من الاجتماع.[٤٢]

(٤٠) أسيل: لين أملس.

(٤١) ثلاث كلمات غير مقروءة.

(٤٢) حكاية عزيزة بنت القلفيطي هذه انفردت بها نسخة ل. ولا توجد في النسخ الثلاث الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقِص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ[٤٣]﴾.

والحكايات في هذا الباب أكثر من هذا، والكلام فيه متسع.

وقد دونت في الموت الأخبار، وصيغت فيه الأشعار، وضربت بشدته الأمثال، وكثر فيه القيل والقال، وعملت بسببه أعمال وأعمال. قال بعضهم:

قالوا صف الموت ياهذا وشدته   فقلت وامتد مني عندها الصوت

يكفيكم منه أن الناس إن عجزوا   عن وصف ضربهم قالوا هو الموت

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بذكر الموت وأعاد القول فيه، تهويلا لأمره وتعظيما لشأنه.

ذكر النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات، الموت[٤٤]».

وهذا كلام مختصر وجيز، وقد جمع التذكرة، وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذِكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل، وزهّده فيما كان منها يؤمل.

ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ. وإلا ففيما ذكر من قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، الموت» ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه.[٤٥].

ويروى عن عطاء الخراساني أنه قال:

مر رسول الله ﷺ بمجلس قد ارتفع فيه الضحك فقال: «شوبوا[٤٦] مجلسكم بذكر مكدر اللذات. قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: الموت.

وخرج يوما عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال: اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا.

---

(٤٣) آية ٤ من سورة ق.

(٤٤) رواه النسائي ٤/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٤.

(٤٥) تذكرة القرطبي ص ٨.

(٤٦) شوبوا: امزجوا، اخلطوا.

وعن ابن عمر قال: اتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: يارسول الله مَن أكيس[٤٧]الناس، قال: أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم له استعدادا. قبل أن ينزل به أولئك الأكياس[٤٨] ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة.

وقال عليه الصلاة والسلام: أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد[٤٩].

ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: تركت فيكم واعظين ناطقا وصامتا، فالناطق القرآن والصامت الموت.

ويروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: عش ما شئت فإنك ميت، وأحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

وهذه الأحاديث رويتها من طريق أبي بكر البزار، والقاضي أبي الحسن بن صخر، وأبي علي الغساني، وغيرهم.

وقال أبو الدرداء: من أكثر ذكر الموت قل فرحه، وقل حسده.

وقال بعض أصحاب الحسن: كنا ندخل على الحسن فما هو إلا النار والقيامة والآخرة وذكر الموت.

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت، مات كل عضو منه على حدته

وقال التيمي رحمه الله: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الوقوف بين يدي الله عز وجل.

وقال مطرف بن عبدالله: رأيت في ما يرى النائم كأن قائلا يقول في وسط جامع البصرة: : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين، فوالله ما تراهم إلا والهين محزونين[٥٠]

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله . . لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

---

(٤٧) اكيس: أفطن وأذكى.

(٤٨) الأكياس: جمع كـيّس بتشديد الياء وهم العقلاء الأذكياء.

(٤٩) هذا الحديث سقط من ل.

(٥٠) الإحياء: ٤/٤٥١ والواهين: جمع واله وهو شديد الحزن.

وقال لعتبة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك[٥١].

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد! من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يُرْضي عنك ربك بعد الموت؟!

ثم يقول: أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثرى فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟! ثم يبكي حتى يسقط مغشيا عليه[٥٢].

ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر عنده الموت والقيامة يقطر جسده دما.

وعن داود عليه السلام أنه كان إذا ذكر عنده الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكرت الرحمة رجعت.

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يجمع الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وأنشد بعضهم:

يا باكيا من خيفة الموت ... أصبت فارفع من مدى الصوتِ
وناد يالهفى على فسحة ... في العمر فاتت أيما فوتِ
ضيعتها ظالم نفسي ولم ... أصْغِ إلى موت ولا ميتِ
ياليتها عادت وهيهات أن ... يعود ما قد فات ياليتِ
فخل عن هذي الأماني ودع ... خوضك في هات وفي هيتِ
وبادر الأمر فما غائب ... أسرع إتيانا من الموتِ
كم شائد بيتا ليغنى به ... مات ولم يفرغ من البيتِ

وأعلم أن كثرة الموت تردع عن المعاصي، وتلين القلب القاسي وتذهب الفرح بالدنيا وتهون المصائب فيها، وإن من لم يَخَفْه في هذه الدار، ربما تمناه في

---

(٥١) الإحياء ٤/٤٥١.
(٥٢) تذكرة القرطبي ص ٩.

الآخرة فلا يؤتاه، وسأل فيه ولا يعطاه.

وكتب رجل إلى بعض إخوانه:

يا أخي احذر الموت في هذه الدار، من قبل أن تصير إلى دار تتمنى الموت فيها فلا يوجد، ويطلب فيها فلا يدرك.

ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها، فقالت لها: اكثري من ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت، فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة.

وقال الحسن: فضح الدنيا والله هذا الموت، فلم يترك فيها لذي لب[٥٣] فرحا.

وقال: ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حذرا من الموت حزينا من أجله.

وقال كعب الأحبار: من ذكر الموت هانت عليه المصائب.

وقال حامد اللفاف: ويح ابن آدم إن أمامه ثلاثة أشياء: موت كريه المذاق، ونار أليمة العذاب، وجنة عظيمة الثواب.

وأعلم أن الموت لن يمنعه منك مانع، ولا يدفعه عنك دافع وإن فيه لزجرا للبيب، وشغلا للأريب، ومنبهة للنائم، وتنشيطا للمستيقظ. وانه للطالب المدرك، والمتبع اللاحق، والمغير الذي يبعث الطليعة ويعجل الرجعة، ويسبق النذير العريان. لا يرده الباب الشديد، ولا البرج المشيد، ولا اللجب العرمرم[٥٤] ولا البلد البعيد.

وروى خيثمة عن سليمان بن مهران الأعمش قال وحَدَّثَ به غيره أيضا ـ إن رجلا كان جالسا مع نبي الله سليمان عليه السلام، فدخل عليه داخل، فجعل ينظر إلى الرجل الجالس مع سليمان، ويديم النظر إليه. فلما خرج قال له الرجل: يانبي الله من هذا الرجل الداخل عليك؟

قال: ملك الموت. قال: يانبي الله لقد رأيته يديم النظر إلي ويشخص فيّ وإني لأظنه يريدني. قال: فما تريد؟ قال: يانبي الله أريد أن تأمر الريح فتأخذني فتلقيني في أبعد جزائر البحر، فإنه قد أطاش عقلي وأذهب لبي ونقض كل عضو

---

(٥٣) اللب: العقل.

(٥٤) العرمرم: الكثير.

في بدني.

فأوحى الله تعالى إلي سليمان أو ألقى في نفسه أن يفعل ذلك، فأمر الريح فأخذته فألقته حيث أراد. فلما استقر بالأرض حتى نزل عليه ملك الموت فقبض روحه، ثم رجع إلى سليمان فقال له سليمان: رأيتك تديم النظر إلى جليسي. قال: نعم كنت أتعجب منه، لأني أمرت بقبض روحه في أبعد بلاد الهند في ساعة قريبة من الوقت الذي كان عندك فما هو إلا أن خرجت، قيل لي انزل عليه فإنه بها فنزلت عليه فوجدته بها، فقبضت روحه. وأنشد بعضهم:

ما أنت والرشأ الأحوى[٥٥] تغازله ... والركب تسأل عنه بانة الوادِ

وقد أظلك جيش للردى لجب ... كالبحر يوصل أمدادا بأمداد

من كل داهية لو أنها مثلت ... شخصا لأظلم منها كل وقاد

لا يمنع المرء منها رأس شاهقة ... ولا يرد شباها[٥٦] نسج زرادِ

وأنت غاد على ظهر الطريق وما ... لديك من ناصر يرجى ولا فاد

كأنني بك مصروعا لوطأته ... هذا أوان مغار الفارس العاد

قم قد أتيت ولا منجي ولا وزر ... للويل أصبحت من ركض وانشاد

صح بالندى وبالقصر المشيد عسى ... هيهات هيهات كان القصر والناد

يا راقدا وعيون الموت ساهرة ... لقد أعرت لأمر غير رقاد

واعلم أن في النظر إلى الميت ومشاهدة حاله، وسكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها، . ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

يروى أن الحسن البصري رحمه الله دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وعلته، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، أتأكل؟ فقال:

---

(٥٥) الرشأ: ولد الظبية. والأحوى: الذي به حوة وهي سواد يضرب الى الخضرة او حمرة الى السواد. والمراد هنا المرأة الجميلة.

(٥٦) شباها: اشتعالها والمراد شدتها وكأنها نار مشتعلة.

يا أهـلاه عليكم بطعـامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

وقال بعض العلماء: أي عيش يطيب وليس للموت طبيب؟!.

وقال بعض الزهاد: لنا من كل ميت عظة بحاله، وعبرة بمآله.

وقال ابن مسعود: كفى بالموت واعظا، وباليقين غنى وبالعبادة شغلا.

واعلم أن الموت وإن كان هو المصيبة العظمى، والرزية الكبرى، فأعظم منـه الغفلة عنـه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر.

وفي خبر مروي عن النبي ﷺ: «لـو أن البهـائم تعلم من المـوت ما تعلمـون ما أكلتم منها سمينا[٥٧]».

ويروى أن رجلا من الأغنياء نزل به داء في وجهه، فعجز أطباء بلاده عن معالجته، ولم يجدوا سبيلا إلى شفائه، فخرج يضرب في الأرض ويخترق البلاد، ويطلب علاجا لدائه، وفرجا لبلائه، فدل على طبيب حاذق ببلاد الهند، فقطع إليهـا المفـاوز[٥٨] البعيـدة، وركب إليـه البحـار الخطرة، واللجج الهائلة، حتى وصل إليه بعدما كاد أن يهلك فدخل عليه فوجد رجلا ملقى على فراشه جلده على عظم، فسلم عليه، فأحسن الرد وأظهر البشر، وسأله عن ٩/أ حاله ومن أي البلاد هو، وما الذي جاء به فأخبره خبره، وأنه إنما جاء يلتمس معالجة دائه. فقال له: كم معك من المال؟ وما جئت به من البضاعة؟ فأخبره. فقال له: آخذ منك نصف ما معك وأعالجك حتى تستريح؟ فأجابه إلى ذلك ودفع إليه نصف ما عنده، فعالجه ولا طفه حتى ذهب عنه الألم وجميع ما كان بوجهه، ولم يبق به شيء، إلا أن موضـع الـداء بقي أسـود دون ألمٍ يجده فيه. فقال له: لقد بريء داؤك وذهبت علتك، وقد استوجبت ما أخذته منك. فقال له: أيها الفاضل أو ما ترى المـوضـع قد بقي أسـود مخالفـا لونه لوني؟ وكيف يكون هذا البرء؟ وكيف تكون هذه الصحة؟ وكيف تستوجب ما أخذته مني؟

---

(٥٧) تذكرة القرطبي ص ٤.

(٥٨) المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء سميت بذلك تفاؤلا.

فقـال له: لم أشـارطـك على نقـاء اللون وبياض البشرة، وإنما شارطتك على ذهاب الألم وحسم الداء، ولست أنظر لك فيما تريده من إزالة هذا السواد إلا بأن تدفع إلي النصف الثاني من مالك.

فقال له: أيها الفاضل أنا رجل غريب بعيد الدار، ناءٍ عن الأهل، وإذا دفعت لك النصف الثاني بقيت منقطعا بي عن أهلي ووطني، فقيرا بأرض غربة، عالة على من لا يعرفني.

فقال له: لا بد لك من أن تعطيني ما قلت لك، وإلا لم أنظر لك في شيء مما تريد.

فلما رأى الـرجـل أنـه لا يجيبـه إلى معـالجته والنظر في أمره حتى يعطيه ما سأل، أجابه إلى ما أراد، ودفع إليه النصف الثاني، فعالجه حتى ذهب عنه سواده.

فلما بريء قال له: أبقي لك شيء؟ فقال لا، قال فاستوجبت ما أخذته منك؟ قال نعم.

فقـال له: ياهـذا إني لم آخـذ مالك رغبة فيه ولا لأستأثر به دونك، ولكن أردت أن أدري مقـدار نفسـك عنـدك، وأيهـما أحب إليـك، المال أم هي. فقد رأيت، وهـذا مالـك كله مردود عليـك، لا والله لا آخـذ منه درهما واحدا، فردّه عليـه، ثم قال له: ما نحلتكم التي تنتحلون؟ ومـا شريعتكم التي بها تتشرعون؟ فقـال له: نحن مسلمـون. فقـال: ومـا مسلمـون؟ فقال: نحن أمة محمد ﷺ قال: ومـــامحمـد؟ قال: رجـل من العـرب ثم من قريش بعثـه الله تعـالى إلينـا رسـولا، واختـاره صفيا أمينا، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، وذكر لنا أن بين أيدينا يوما يبعث فيه الأموات، ويجازي فيه بالسيئات والحسنات.

فقال له: وكيف انتم في اتباعه؟ قال: إنا لنسلك في غير[٥٩] هديه، ونترك كثيرا من أمره.

قال: والله ياهذا ما أقول بما تقولون، وما ردني كما ترى جلدة على عظم إلا الفكرة في الموت خاصة، وفيما هو، فكيف لو قلت بما تقولون مما بعد الموت من

---

(٥٩) غير: سقطت من ل.

الحساب والعقاب، والجزاء والثواب؟ ما رأيت أقل عقولا منكم.

ثم دفع إليه ماله وانصرف.

حدثني بهذه الحكاية أبو عمرو الشريف رحمه الله تعالى.

وهذا الكلام الأخير منها في ذكر الموت وغيره شككت هل ذكره في الحكاية أم لا. ولكني قد سمعته من غيره.

ويروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له، ٩/ب فخر الجمل ميتا، فنزل الأعرابي عنه وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول:

ما لك لا تقوم؟ مالك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة، ما شأنك، ما الذي كان يحملك، ماالذي كان يبعثك، ما الذي صرعك، ماالذي عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكرا في شأنه، متعجبا من أمره.

وأنشدوا في هذا المعنى[60]:

ومجرر خطيةً[61] يوم الوغى ... منسابةً من خلفه كالأرقم

تتضاءل الأبطال ساعة ذكره ... وتبيت منه في إباءة ضيغم

شرس المقادة لا يزال ربيئة ... فمتى يحس بنار حرب يقدم

تقع الفريسة منه في فوهاء[62] إن ... يطرح بها صم الحجارة يحطم

ظمآن للدم لا يقوم بِرَيّهِ ... إلا المروق في الجسوم من الدم

جاءته من قبل المنون إشارة ... فهوى صريعا لليدين وللفم

ورمى بمحكم درعه وبرمحه ... وامتد ملقى كالفنيق[63] الأعظم

لا يستجيب لصارخ إن يدعه ... أبدا ولا يرجى لخطب معظم

ذهبت بسالته ومر غرامه ... لما رأى خيل المنية ترتم

يا ويحه من فارس ما باله ... ذهبت فروسته ولما يكلم

---

(٦٠) القرطبي ص ٤. وقد ذكر أن الأبيات انشدت في بعض الشجعان مات حتف أنفه.

(٦١) خطية: رماح منسوبة الى الخط وهو بلد عرف بصنع الرماح.

(٦٢) فوهاء: الفرس الفوهاء واسعة الفم، مذكرها أفوه.

(٦٣) الغنيق: الجمل الضخم، او الغرارة.

هذي يداه وهذه أعضاؤه ... ما منه من عضو غدا بمثلم
هيهات ما خيل الردى محتاجة ... للمشرفي ولا السنان اللهذم
هي ويحكم أمر الاله وحكمه ... والله يقضي بالقضاء المحكم
ياحسرة لو كان يقدر قدرها ... ومصيبة عظمت ولما تعظم
خبر علمنا كلنا بمكانه ... وكأننا في حالنا لم نعلم

فكيف إذا أضاف إلى الفكرة في الموت، الفكرة فيها بعد الموت، وفي حال الميت ومآله. وما يجازي به من أقوال وأفعال، وفي أي متجر فاته، وأي بضاعة فرط فيها، وأي علق نفيس من العمر ضيّعه؟!

هنالك تطيش الألباب، وتذهل العقول، وتخرس الألسن، وتنبذ الدنيا بالعراء وتطرح بجميع ما فيها بالوراء.

وقال ابن السماك رحمه الله تعالى: إن الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا دارا لم يتزودوا لها، فأية ساعة مرت على من مضى؟ وأية ساعة بقيت علينا؟ والله إن المتفكر في هذا لجدير أن يترك الأوطان، ويهجر الخلان، ويدع ما عز وما هان.

ويروى أن ملكا من ملوك بني اسرائيل كان كلما ولد له ولد فبلغ مبلغ الرجال وعقل ما يعقله الرجال، لبس مسوحه وتعلق برؤوس الجبال، وسلَكَ بطون الأودية، يعبدالله عز وجل، فلم يزل ذلك دأبه حتى ولد له ولد، فشب إلى أن ولد له ولد، فجمع رجاله وخاصته وقال: تعلمون ما كان من أمر بَنِيَّ، وأنه ليس منهم واحد بقي معي ولا التفت إلي، وإنه ليس بصلح لكم ولا يستقيم أمركم إلا بأن يليكم واحد من ولدي، وإني أخاف إن لم يكن ذلك أن تهلكوا ١٠ / أ بهلاكي، فخذوا ولدي هذا فربوه، وقوموا بأمره، فإذا شب وعقل فزينوا له الدنيا، وعظّموا قدرها عنده.

ثم أمر فبني له قصر عظيم فرسخا في فرسخ، وجمع له المراضع، وأكثر له من الحواضن، ووكل به رجالا من عقلاء أصحابه ووجوه دولته.

وأمر إذا فهم وعقل ـ أن لا يخرج من ذلك القصر، ولا يذكر عنده الموت، ولا يبصر ميتا في موضع يكون فيه، مخافة أن يسمع بالموت أو يرى ميتا فيسأل عنه

فيفسر له، فتتنغص عليه لذته، وتتكدر عليه حياته، ويزهد في الملك ويسلك مسلك إخوته ويلحق بهم ويحذو حذوهم.

فبقي الغلام على ذلك لا يذكرون عنده موتا ولا يسمعونه حديث ميت، ولا يطلعونه عليه، ولا يذكر عنده إلا الدنيا وتعظيمها والفرح بها والإقبال عليها، وتعظيم آبائه الملوك، وأجداده العظماء، والترغيب في الاقتداء بهم، والمشي على طريقهم والاستنان بسنتهم.

إلى أن شب الغلام وعقل ما يعقله الناس، فمشى ذات يوم في ذلك القصر وطاف في أرجائه، وقد أحدق به خاصته والموكلون به، فانتهى إلى سور القصر، فقال: ماوراء هذا السور؟ وما خلف هذا الحائط؟ فقالوا له: وراءه الأرض الواسعة والبلاد الكثيرة، والجم الغفير من الناس، وكل ذلك لك وللملك أبيك. فقال أخرجوني حتى أنظر وأرى. فأبوا حتى يشاوروا أباه، فشاوروه وأخبروه بأنه يريد أن يخرج ويرى الناس، وظنوا أنه يحكمهم.

فأذن لهم فأخرجوه، فرأي ونظر، فأول ما وقع بصره من الناس على شيخ كبير قد سال لعابه من فيه، وسقط حاجباه على عينيه من الكبر.

فقال: ماهذا؟ فقالوا: شيخ كبير. فقال: وما شيخ كبير؟ قالوا كان شابا فعمر وعاش حتى أصابه الهرم فعمل به ما ترى. قال: وما الهرم؟ قالوا: الكبر وطول العمر يعيش إلى أن تقل طاقته وتضعف حركته حتى لا يقدر أن يمسك لعابه في فيه، مع علل أخر تعتريه من طول الحياة.

قال: أويصيبكم هذا أو هو شيء يصيب قوما دون قوم؟ قالوا: هو ليس مختصا بأحد دون أحد، بل يصيب كل من طال عمره، قال: ويصيبني أنا مع ما أنا فيه من النعيم وضروب اللذات وبلوغ الشهوات؟ قالوا نعم ويصيبك أنت إن طالت بك الحياة. فقال: أف لعيش يكون آخره هذا.

ثم رجع إلى قصره، وقد تكدر عليه بعض نعيمه، وتنغص عيه بعض ما كان فيه. فعالجوه بكل لهو وكل باطل، حتى استخرجوا من قلبه ما كان وقع فيه من أمر الهرم والكبر.

فأقام عاما، ثم أمرهم أن يخرجوه ثانية، فأبوا عليه وخافوا من أبيه. ثم إنه عزم عليهم فأخرجوه، فأول من رأى من الناس شاب به جذام أو غيره من الأدواء. فقال: ماهذا ومم يكون؟ فقالوا هذا فساد في المزاج، وتحريك في الأخلاط فيتولد عنه هذا وغيره. قال أهذا وحده أصابه أم كلكم يخاف أن يصيبه هذا الداء؟ ١٠/ب قالوا: ما عند أحد أمان، كل أحد خائف من هذا الداء ومن غيره، فإن الدنيا دار أمراض وأسقام ورزايا وبلايا.

قال: وأنا أخاف؟ قالوا وأنت، قد أخبرناك أنه ليس لأحد أمان على نفسه، قال: فأصابه من الغم أكثر مما أصابه في المرة الأولى. فرجع ورجعوا، ولم يزالوا يشغلونه بضروب المحابّ وأصناف الملاذّ حتى أخرجوا من قلبه ما كان وقع فيه أو كادوا.

وأقام كذلك حولا، ثم قال: أخرجوني، فأخرجوه فنظر فإذا برجل ميت يحمل، قال: ماهذا؟ قالوا ميت. قال: وما ميت؟ قالوا رجل مثلنا نزل به قضاء إلهي وحادث سماوي فأطفأ شرارته، وأخمد حرارته، ورده حجرا من الحجارة، وجمادا من الجمادات، فقال: علي به حتى أراه، فجاءوا به، وكشف له عنه.

فقال: كلموه. فقالوا: إنه لايتكلم.

فقال: أجلسوه. فقالوا: إنه لا يجلس.

فجعل ينظر إليه ويتفكر فيه، ثم قال: وهذا وحده خص بهذا الحادث أو انتم كلكم ينزل بكم مثل ما نزل بهذا؟

قالوا: كلنا فيه سواء، وكلنا ينزل به هذا الحادث. قال: وأنا؟ قالوا: وأنت، وقد أخبرناك. قال: لا يدفع عني أبي؟ قالوا: ولا يدفع عنك أبوك ولا يدفع عن نفسه. فقال: إن نعيما يصير آخره إلى هذا لجدير أن يتكدر، وإن قلبا يخطر به ذكر هذا لحقيق أن يتفطر.

قال: وما تصنعون به؟؛ قالوا: نحفر له حفرة في الأرض، ونرد عليه التراب إلى يوم النشور والعرض. قال: وما النشور والعرض؟ قالوا: هو يوم يبعث فيه الأموات، وتظهر فيه المخبآت، ويكون... ويكون...

قال: ولا بد منه؟ قالوا: لا بد منه. فقال: وهذه أشد.

فعمل الكلام في نفسه عمله، وأخذ الكلام في قلبه مأخذه فتغير وجهه، وضعف جسمه، وشحب لونه، وأقصر عما كان فيه من تلك الراحات وتلك البطالات.

فأخبر أبوه بخبره، ووصف له حديثه، فقال: أو قد فعلها؟ قالوا: نعم. فداراه أبوه بكل شيء، فلم ينفع فيه شيء، وهوّن عليه الأمرَ فلم يَهُنْ، وسلاه فلم يتسل. فقال له أبوه: لا جرم والله لأدعنك تلحق بإخوتك. فبعث إليه ثيابه من المسوح فلبسها وخرج في جوف الليل، فتعلق بالجبال، ولحق بإخوته فتعبد معهم. وكان يقول في مناجاته: اللهم إني أسألك أمرا ليس إليّ قد سبقت به المقادير. لوددت أني كنت الطير في الهواء، أو السمك في الماء، ولم أك شيئا مذكورا مخافة الحساب والعقاب.

واعلم رحمك الله أن كثرة الاشتغال بالدنيا، وإفراغ المجهود فيها، والميل بالكلية إليها، وحلاوة أحاديثها، ولذة أمانيها، تمنع حرارة ذكر الموت! أن ترد على القلب وأن تلج[٦٤] فيه، لأن القلب إذا امتلأ بشيء لم يكن لشيء آخر فيه مدخل ولا لسواه فيه مجال. ألا ترى أن الإناء إذا ملأته بشيء لم يمكنك أن تدخل عليه شيئا آخر؟ ووجهك إذا صرفته إلى موضع صرفته عن موضع آخر. ومتى دام القلب على هذا لم يكن لذكر الموت فيه تأثير ولا لترداده عليه حلاوة[٦٥] ١١/أ وكيف يؤثر فيه وهو لا يجد مكانا ينزل فيه، ولا موضعا يتعلق به، قد ملأه حب الشهوات الفانية، واللذات المنصرمة، فهو شبعان ريان حيران سكران، أصم أعمى. إن عرض عليه طريق هدى لم يره، أو نودي باجتناب رديء لم يسمع.

فإذا أراد صاحب هذا القلب سماع الحكمة، والانتفاع بالموعظة لم يكن له بد من تفريغه، ليجد التذكر فيه منزلا، وتلقى الموعظة فيه محلا قابلا، فلا يزال يتعاهده ويتفقده بالأذكار والأفكار، والنظر والاعتبار، آناء الليل وأطراف النهار، لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الرين[٦٦]، ويعود إلى حالته الأولى من

---

(٦٤) تلج: تدخل.

(٦٥) حلاوة: في ز جلاء.

(٦٦) الرين: الطبع والدنس.

الغين[٦٧].

وإن لم يقدر على تفريغه بمرة فرغ منه ما أمكن، وجعل مكان ما أزاله ضده، فيجعل مكان الغفلة ذكرا، ومكان الفرح حزنا، ومكان الاغتباط ندما، ومكان السهو تيقظا، ولا يزال هكذا يزيل شيئا ويجعل مكانه ضده، ويستعين بجعل هذا على إزالة هذا، وبإزالة هذا على جعل هذا، وبالله تعالى يستعان على كل ما يحاول، وبمنّه وتيسيره سبحانه يتناول كل ما يتناول، لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأعلم ـ رحمك الله ـ أن مما يعينك على الفكرة في الموت ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به، تذكُّر من مضى من إخوانك وخلانك وأصحابك وأقرانك الذين مضوا قبلك، وتقدموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسمين[٦٨]، وعبرة للمعتبرين.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جمعاء؟ قلت: بلى يارسول الله. قال: فأخذ بيدي وأتي بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس وعظام وخرق بالية وعذرات، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل كأملكم، ثم هي اليوم عظام لا جلد عليها، ثم هي صائرة رمادا. وهذه العذرات[٦٩] ألوان أطعمتهم، اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها[٧٠]، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم[٧١]فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك، قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

---

(٦٧) الغين: لغة في الغيم.

(٦٨) المتوسمين: توسم الرجل الشيء، تفرسه وتعرفه.

(٦٩) العذرات: جمع عذرة وهي الغائط.

(٧٠) يتحامونها: يبتعدون عنها.

(٧١) الرياش: الفاخر من اللباس والمتاع.

رويت هذا الحديث من طريق أسد بن موسى.

ويتذكر أيضا ما كانوا عليه من حِدّة الجلباب، ونضرة الإهاب، وما كانوا يسحبونه من أردية الشباب، وأنهم كانوا في ظلال النعيم يتقلبون، وعلى أسرة السرور يتكئون، وبما شاءوا من محابهم يتنعمون، وفي أمانيهم يقومون ويقعدون ١١/ب لا يتحدثون بزوال، ولا يهمون بانتقال، ولا يخطر الموت لهم ببال.

قد خدعتهم الدنيا بزخرفها، وخلبتهم برونقها، وحدثتهم بأحاديثها الكاذبة، ووعدتهم بمواعيدها المخلفة، لم تزل تقرب لهم بعيدها، وترفع لهم مشيدها، وتلبسهم غضها[٧٢] وجديدها، حتى إذا تمكنت منهم علائقها، وتحكمت فيهم رواشقها، وتكشفت لهم حقائقها، ورمقتهم[٧٣] من المنية روامقها، فوثبت عليهم وثبة الحِنق، وأغصتهم غصة الشرق، وقتلتهم قتلة المختنق.

فكم عليهم من عيون باكية، ودموع جارية، وخدود دامية، وقلوب من الفرح والسرور لفقدهم خالية.

وأنشدوا في هذا المعنى:

وريان من ماء الشباب إذا مشى ... يميل على حكم الصبا ويميدُ
تعلق من دنياه إذ عرضت له ... خلوبا ألباء[٧٤] الرجال تصيدُ
فأصبح منها في حصيد وقائم ... وللمرء منها قائم حصيدُ
خلا بالأماني واستطاب حديثها ... فينقص من أطماعه ويزيدُ
وأدنت له أشياء وهي بعيدة ... وتفعل تدني الشيء وهو بعيدُ
أتيحت له من جانب الموت رمية ... فراح بها المغرور وهو حصيدُ
وصار هشيما بعد أن كان يانعا ... وعاد حديثا يقضي ويبيدُ
كأن لم ينل يوما من الدهر لذة ... ولا طلعت فيه عليه سعودُ
ليبكي عليه زهوه وشبابه ... وتدمي جفون إثره وخدودُ

---

(٧٢) الغض: النضر الطري.
(٧٣) رمقه: أطال النظر اليه.
(٧٤) ألباء: جمع لبيب وهو الرجل العاقل.

تبـارك من يُجري على الخلق حكمـه فليس لشـيء منـه عنـه محيـدُ

يالله مصـرعهم كم فيهم من مجرر ذيـل إعجابه، متطاول على أصحابه، متعـاظم على أقـرانـه وأتـرابه، تجمع له الأماني، وترتاح إلى وصله الغواني، إنْ بُصـر لا يستبصـر، وإن أمـر لا يأتمر، وإن زُجر لا يكف ولا ينزجر، لا يسمع إلا داعي الهـوى، ولا يستجيب إلا لمن إليـه دعـا، يلهـوويفرح، ويمزح ويمرح، ويبيت من دنيـاه مثـل ما كان أصبـح. قد أبـدأ في أمـره وأعاد، وأحكم غيه[٧٥] فأجـاد، وأشـاد من أمله ما أشـاد، حتى إذا نال مراده أوكاد، صاحت به المنيـة صيحـة الغضبـان، وصـدمته صدمة اللهفان، فهدت أركانه وكسرت أغصانه، وفـرقت أنصـاره وأعـوانـه، فأصبـح قد باع النفيس بالـدون، وأعطى الثمـين بالمثمـون، ومضى يعض بنـانـه المغبون، لم يرح بنائل، ولا حصل على طائل. فنعوذ بالله من سوء الأقدار وسيء الاختيار.

وأنشدوا:

جر ذيـل الـتيـه[٧٦] والـغـي	وقـال من مثـلي في الحـي
ومـر يرتـاح إلـى وصـله	ما شاء من زيـنـب أو ميّ
لا ينـثـني عن خوف شيء ولا	يسـمـع إلا داعـي الـغـيّ
وبـات من دنـيـاه في مثـل ما	أصـبـح من نشـر ومـن طيّ
حتـى إذا ما نال أو كاد أن	ينـال منهـا جرعـة الـريّ
صيـح به في سربـه[٧٧] صيـحـة	ضعـضـع منـه كل ما شيّ
وإنـفِـذَ الأمـر على رغـمـه	وأُنـجِـز الـوعـد بلا ليّ
ولم يرح من ذاك إلا بما	راح الـذي يقـبض في الـفـيّ[٧٨]
تبـارك الله وسـبـحـانـه	ما أقـرب المـوت من الحـيّ

ويالله كم هنالك من ملك طويل النجاد رفيع العماد، عظيم الأجناد كثير

---

(٧٥) الغي: الضلال.

(٧٦) التيه: الاعجاب بالنفس.

(٧٧) السرب: الطريق، البيت.

(٧٨) الفي: الظل.

الأمداد، قد ملك البلاد وقهر العباد، ووصل من دنياه إلى كثير مما أراد، قعد ونهض، وأبرم ونقض، وجعل أمره المفترض وحكمه الذي لا يرد ولا ينقض، وطالما حرق وهدم، وكسر وحطم وزلزل ودمدم، واسترحم فلم يرحم. ومضى على ما شاء من رأيه وصمّم.

بنى المدائن والحصون، وأكثر من ماله المخزون، واستعد لما قد يكون أو لا يكون، حتى إذا استحكمت له الأمور، وأطال الفرح والسرور، وزخرف الدساكر والقصور، وظن أن قد ساعده فيما بقي من أمله المقدور، قلبت له الدنيا ظهر المجن، وكسته من خطبها ما أجنّ، وسقته من كربها ما يسكر به ويجن، نظرت بعينها الشوساء[79] إليه، وقبضت ما كان في يديه، وأتت بنيانه من قواعده فألقته عليه، فأصبح وقد هدم ذلك البنيان، وسقط ذلك الإيوان، وتبددت تلك المقاتلة والفرسان، وتفرقوا شذر[80]مذر بكل مكان، وأصبح كل ما كان كأنه ما كان، وقيل مَلَكَ في سالف الزمان ملِك يقال له فلان بن فلان، لم يحصل مما ملك من البلاد، ولا ما ادخر من المال وأعد من العتاد، إلا على حنوط وكفن، وحفرة ضيقة العطن، يحتبس فيها ويرتهن، بكل ما عمل من قبيح أو حسن.

وأنشدوا:

يابـاني الـقـصـر الـكـبـير ... بين الـدسـاكـر والـقـصـورْ
ومجـرد الجـيش الـذي ... ملأ الـبـسـيطـة والـصـدورْ
ومـدوّخ الأرض الـتي ... أعـيـت على مر الـدهـورْ
أمـا فزعـت فلا تدع ... بنـيـان قبرك في الـقـبـورْ
وانظـر إلـيـه تراه كيـ ... ف إلـيـك معـترضـا يشـيرْ
واذكـر رقـادك وسطـه ... تحت الجـنـادل والـصـخـورْ
قد بددت تلك الجـيـو ... ش وغـيرت تلك الأمـورْ
واعـتـضـت من لين الحـريـ ... ـر خشـونـة الحـجـر الـكـبـيرْ
وتـركـت مرتهـنـا به ... لا مال ويـك ولا عشـيرْ

---

(٧٩) الشوساء: العين التي تنظر بغيظ وتكبر.

(٨٠) شذر مذر: اي تفرقوا في كل وجه.

حيران تعلن بالأسى ... لهفان تدعو بالثبورْ
ودعيت باسمك بعدما ... قد كنت تدعى بالأميرْ
ولأنت أهون فيه من ... جُعْلٍ على نتن يدورْ
إن لم يَجُد بالعفو من ... يعفو عن الذنب الكبيرْ
هذا هو الحق اليقيـ ... ـن وكل ذاك هو الغرورْ

وأنشدوا أيضا:

أباد ذا الدهر أملاكا وما ملكوا ... ودار مستعقبا عليهم الفلكُ
أدار دورته في أرضهم فغدت ... كالراح[81] ليس بها لناظر نَبَكُ[82]
رمى بهم حيث لا قيعان تمسكهم ... ولا مرارا بها المرميُّ يمتسكُ
هوتْ هُويَّ ثقيل الصخر أمهمُ ... فلا حسيس ولا ركز[83] ولا حركُ
غدت رؤوسهم من تحت أرجلهم ... وزلزلت بهم الأطباق والدركُ
يابطشة من حكيم ما بها مهل ... وغضبة من عزيز ما لها دركُ
جروا إلى اللهو ملأى من أعنتهم ... حتى إذا ما رأوا خيل الردى بركوا
حطوا بدار البلى في منزل حرج ... وليتهم ويحهم فيهن لو تركوا
لطال ما نقضوا ملكا وما هدموا ... عزا وما هتكوا سترا وما فتكوا
مروا وما بلغوا كل الذي طلبوا ... ولا قضوا وطراً من كل ما تركوا
أضحاهم اليوم صرف الدهر إذ هلكوا ... كما أضلهم بالأمس إذ ملكوا

وأنشدوا أيضا:

أفاض على الملك سريالهُ ... وجرر في العز أذيالهُ
وصاح فوافاه ما شاء من ... هزبْر[84] يعلل أشبالهُ
وزلزلت الأرض من اجلهُ ... وقال فكان الذي قالهُ

---

(٨١) الراح: جمع راحة وهي الأكف.
(٨٢) النبك: أصول الاشجار، والمراد ان أرضهم اصبحت خرابا.
(٨٣) الركز: الصوت الخفي.
(٨٤) الهزبر: الأسد.

ولا بد يوماً لهُ ان يصيح ويبدى شجاه واعوالهُ
ولا أحد مستجيب لهُ ولا أحد كاشف حالهُ
وتأتيه في سربه روعة تقطع بالموت أوصالهُ
ويطرح فردٌ بدار البلى ويترك فيها وأعمالهُ
فكم قائل عنه لا يبعدن وكم قائل فيه أولى لهُ
فقل للذي شاد سلطانه وطول ماشاء آمالهُ
تأهب لتصدع صدع الزجاج وتلحق هذا وأمثالهُ
وتحمل مما جمعت الأجاج[85] وتترك للناس سلسالهُ[86]
وإن ما نسيت فلا تنسينّ ن يوم الحساب وأهوالهُ
هنالك تعلم عقبى الذنوب وشؤم الخلاف وأنكالهُ

يابؤس الدنيا، شدما عن ثديها فطمتهم، ومن سمها أطعمتهم، وبيدها الباطشة لطمتهم، وفي ظلمات الأرض وغيابات الثرى طرحتهم فقلبت قائم تلك الأعيان، وطمست تلك الوجوه الحسان، وأعمت تلك الأبصار، وأصمت تلك الآذان، وأسالت الأحداق على الخدود والوجنات، وغسلت بالصديد جميل القسمات، وملأت بالتراب اللهازم واللهوات[87]، وكسرت تلك الضواحك والرباعيات، وعبثت بجسوم أولئك الفتيان والفتيات.

لطالما أغربوا ضاحكين، وتقلبوا فاكهين، وباتوا على سررهم مطمئنين آمنين، فكم بها من لسان فصيح لطال ما أنشد. وخطب، وأرهب ورغب، ومدح فأطنب[88]، وكم بها الآن من فصيح لسان وعظيم بيان أخرسه الحدثان، وتحكمت فيه الهوام والديدان.

وأنشدوا:

وذي بيان إذا ما قال أو خطبا أتى بسحر يزين القول والخطبا

(٨٥) الأجاج: الماء المالح.
(٨٦) السلسال: الماء العذب.
(٨٧) اللهازم: جمع لهزمة وهي عظم ناتئ في اللحي تحت الأذن، واللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
(٨٨) أطنب: أطال.

أتى بسهل من الألفاظ ممتنع — جزل يصيب المعاني آية عجبا
فلو تميع أضحى مشربا سلسا — ولو تجسد أضحى خالصا ذهبا
رمته هذي المنايا وهي صائبه — سهما فما هو إلا أن رمته كبا
فأخرسته فما يبدي بضاحكة — ولا يرد جوابا هان أوصعبا
وبات مطرحا في قعر موحشة — غبراء مصطفق الأحشاء مستلبا
أعطى يديه لدنياه بما طلبت — إذ أدرك الدود من جنبيه ما طلبا

وكم هناكم من مسعر حرب قد لبس أوزارها، وأضرم نارها وأوصل إلى القلوب أوراها، وأقام سوقها ورفع غبارها.

كم أغار من غارة شعواء، وفتك من فتكة شنعاء، وأثار من فتنة عمياء، وصال بجنان، وطعن بسنان، وركض بحصان ولعب بفرسان وفرسان، وقال: خذها وأنا فلان بن فلان.

هاهو اليوم قد خبل جنانه[٨٩] وتكسَّر سنانه[٩٠]، وأكبّ به حصانه، لأمه الويل، وحسرة سوداء مثل الليل.

وأنشدوا:

ومقدام على الأهوال صدق — لدى الفتكات والأمر الكبيرِ
تبيت لذكره الأبطال سكرى — وتضحي منه ضيقة الصدورِ
يرضّ فرائص[٩١] الفرسان رَضّا — ويحطمهن كالأسد الهصورِ
طموح السيف لا يثنيه شيء — جهول بالبشيرِ وبالنذيرِ
أشار الموت من بعدٍ إليه — فخرّ موسَّدا إحدى الصخورِ
وكبّ حصانه ونبا شباه — وأعلن نادبوه بالثبورِ[٩٢]
وأنسي أن يقيم لواء روعٍ — بروعات أتته من القبورِ

وإن أنت أطلت اعتبارك، وأمعنت استبصارك فكم بها من غادة قد هضم

---

(٨٩) الجنان: بفتح الجيم، القلب.
(٩٠) السنان: الرمح.
(٩١) الفرائص: جمع فريصة وهي اللحمة بين الجنبو الكتف ترتعد عند الفزع.
(٩٢) الثبور: الهلاك.

وشاحها، ونوّر مصباحها، ومُلِيء فتنة غدوّها ورواحها، قد فتكت بذلك الأسد الهصور، واقتنصت ذلك الفارس المذكور.

أدلّت إدلالها، وجرت أذيالها، وأرسلت جمالها، فعملت أعمالها، وسلبت الملوك قلوبها وأموالها.

ما كان بأوشك من أن صارت جيفة من الجيف، تبعد وتصرف وتنكر ولا تعـرف، أحسن أحـوالها أن تلف في سربالها، وتدفع لحمّالها، فتطرح في شق من الأرض قريب الطول والعرض، مظلم القعر إلى يوم القيامة والحشر. قضاء الله النازل من سمائه، وحكمه في عبيده وإمائه.

وأنشد بعضهم:

عرّج على الـقـبر بدار الـبـلى ... حيـث مُنـى نفـسـي مقـبـورُ
حيـث هوى بدر الـدجى ساقطـا ... قد زال عن صفـحـتـيـه الـنـورُ
وحـيـث حلّت داعـيـات الهـوى ... أجْمَـعُ مسـمـوع ومـنظـورُ
ياظبـيـة بطنِ الـثـرى أسـكـنت ... وبـيـتـهـا في الـقـصـر معـمـورُ
حقـا تمطّـيْـتَ على رضـمـة[٩٣] ... جنـبـك منهـا الـيـوم مكـسـورُ
وطـال ما بتّ على سنـدسٍ[٩٤] ... بالـذهـب الإبـريـز مضـفـورُ
وجـسـمـك الـنـاعـم حقـا به ... للترب تشـقـيـق وتـفـطـيرُ
وطـال ما أثـر من قبـل ذا ... في ليـنـه هَمٌّ وتـفـكـيرُ
وثـغـرك[٩٥] الـعـذب ويـاويـلتي ... فيـه من الـديـدان جمهـورُ
ولـو به عُلَّ قتـيـل الهـوى ... قبـل لأضـحـى وهـو منـشـورُ
وشـعـرك الجثـل[٩٦] وعـهـدي به ... فيـه فتـيـت المسـك منـثـورُ
قد عشّشت فيـه بنـات[٩٧] الثـرى ... ففـيـه تشـعـيـث وتـغـيـيرُ
ياحـسـرتـا ثمـت ياحـسـرتـا ... لو كان يغـني الـيـوم تحسـيرُ

---

(٩٣) رضمة: صخرة عظيمة.

(٩٤) سندس: نوع من الحرير.

(٩٥) الثغر: الفم.

(٩٦) الجثل: الكثير الملتف الاسود.

(٩٧) بنات الثرى: الديدان وهوام الأرض.

ياتا التي أعجبها عِطفها قبركِ في الأقبر محفورُ
وكلنا ذاك ولكننا كل بهذي الدار مسحورُ

فأنت إذا تذكرت بهذه الأذكار، وأطلت لها الترداد والتكرار، وأعملت فيها النظر والاعتبار، ورأيت أنك واحد من المذكورين، ملك أو غير ذلك من أصناف الناس، ورأيت خلقك كخلقهم وصفتك كصفتهم، وأنه لا بد أن يصيبك من الموت ما أصابهم، وينزل بك منه ما نزل بهم، وأنت تشاهد بهذه الدار أنواع المصيبات وأجناس البليات، وضروبا من المهلكات، وأن الموت واحد وأسبابه كثيرة.

فمن رجل باشر الكفاح فتخللته الرماح، وتمكنت من رقبته الصفاح[٩٨] وربما كان هذا أسهلهم مماتا وأكرمهم وفاة.

وثان قد طرح في أيدي أعدائه، وأسلم لبلائه، فقطعوه إربا إربا، وفصلوه عضوا عضوا.

وثالث ردوا مشارع العقاب إليه، وصبوا العذاب عليه وما مات حتى كان الموت أحب عائد إليه، وأكرم قادم يقدم عليه.

ورابع قد أمسى اكيلة حوت في ظلمات البحار.

وخامس فريسة أسد في موحشات القفار.

إلى غير ذلك من الأمراض الصعبة، والآلام الشاقة وما تظنه وما لا تظنه، حتى إن الرجل ليغص بالطعام، ويشرق بالشراب، فيكون في ذلك حتفه، وتذهب فيه نفسه.

كما قال القائل:

وما طريق الموت في ذا الورى واحدة بل جمة[٩٩] لاجبه[١٠٠]
وربما لذ لامريء شربة فانقلبت وهي له شاربه

---

(٩٨) الصفاح: صفحات السيوف.
(٩٩) جمة: كثيرة.
(١٠٠) لاجبة: شديدة.

وأسباب الموت اكثر من أن أحصيها لك، وأعدها عليك، ولا تدري ما السبب الواصل إليك منها، ولا النصيب الذي قسم لك من جملتها، وإنك لا تدري متى يهجم عليك الموت فيقصمك، ولا متى ينزل بك فيحطمك، ولعله لا يمهلك حتى ينقضي نَفَسك.

فأنت إذا واظبت على هذا تمكن ذكر الموت من قلبك، وملكت القياد من نفسك، ونظرت بعون الله عز وجل في أمرك، ومهدت المضجع من قبرك، وأعددت به الأنيس ليوم حشرك.

وإلا فقد نبه من حذر، وأعذر من أنذر، ولا لوم إلا على المقصر، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعلك تقول: ياهذا قد أرعدت في ذكر الموت وأبرقت، وطولت فيه وعرضت، وعرضت في كلامك بمن عرضت، وأمرت بالتفكر فيه والاشتغال بذكره، وجمع الهمم له، وتقصير الأمل والخوف من انقضاء الأجل.

وأي فائدة في ذكر الموت وأنواعه، وضيق العمر واتساعه، وهذا أمر قد فرغ منه وأعجزت الحيلة فيه؟

وكما تقول لي لا تكثر الاشتغال بأمر الرزق، ولا تغتم له ولا تتفكر فيه فإنه مقدر مفروغ منه، وما ترزق يأتيك، فكذلك الموت أيضا وأسبابه، والعمر ومدته، وكل ذلك أمر مقدر مفروغ منه، ما قدر علي يصيبني، وما كتب عليّ يأتيني.

فأقول نعم كلاهما قد سبق في الأزل، وكتب في القسم الأول، والسبب الذي كتب عليك في الموت لن تتعداه ١٤/أ والعمر الذي قسم لك لن تتخطاه.

ولكن بين الأمرين في الاشتغال بهما فرقان: وذلك أن الرزق المقدر المفروغ منه لا يزيد فيه حرصك، وكذا لا ينقص منه كسلك وعجزك، وإن كانت له أسباب، ولطلبه أبواب، فقد تتعلق بأسبابه، وتأتيه في الظاهر من أبوابه، فتكون أحد المحرومين والمجتهدين والمجدودين[١٠١]، فهذا أمر قد شوهد بالعيان وعلم به كل إنسان، فلا يفيدك الطلب إلا العناء والتعب.

---

(١٠١) المجدودين: المحظوظين.

ولست بمأجور في ألم الحرص، ولا فيما تتحمل من مشقة الطلب لاكثر مما تحتاج إليه، وربما تبرمت في الحال ولم تنظر في المآل وسخطت قضاء الله وقدره عليك، وحكمه فيك، وإرادته لك من أفعال الخير وأعمال البر[١٠٢]، وفي هذا مافيه.

وقد تؤجر فيما يصيبك من ألم المشقة في طلب أكثر مما تحتاج إليه إذا كان لك فيه نية صالحة من صدقة أو صلة رحم، أو غير ذلك من أفعال الخير وأعمال البر.

وأما إن كان سعيك ذلك للتكاثر والتفاخر ومحبة في المال فلا، والحول والقوة لله وحده.

وأما ذكر الموت والتفكر فيه فإنه وإن كان أمراً مقدرا مفروغا منه، فإنه يكسبك بتوفيق الله سبحانه التجافي عن دار الغرور، والإنابة[١٠٣] إلى دار الخلود، والاستعداد للموت والنظر فيما تقدم عليه، وفيما يصير أمرك إليه، ويهون عليك مصائب الدنيا، ويصغر عندك نوائبها، فإن كان سبب موتك سهلا وأمره قريبا هينا فهو ذاك، وإن كانت الأخرى كنت مأجورا فيما تقاسيه، مثابا على ما تتحمله.

واعلم أن ذكر الموت وغيره من الأذكار إنما يكون بالقلب وإقبالك على ما تذكره، وإي فائدة لك - رحمك الله - في تحريك لسانك إذا لم يخطر بجنانك[١٠٤]؟

وإنما مثل ذلك مثل من يكون في بعض أعضائه جراحة، فيريد أن يداويها فيجعل الدواء على عضو آخر صحيح، ويدع العضو المريض ليس عليه شيء فانظر كيف يستريح هذا بهذا التداوي؟ ومتى يستريح؟ إلا أن يأتيه البرْء من بارئه، والشفاء من خالقه سبحانه وتعالى.

أو مثل من يريد أن يوقظ نائما فيدعه في غمرة نومه، ويوقظ غيره، فانظر كيف يستيقظ له ذلك الذي أراد ايقاظه بإيقاظ هذا الآخر، أو متى يستيقظ؟!

---

(١٠٢) من أفعال الخير وأعمال البر: هذه العبارة سقطت من ز.

(١٠٣) الانابة: الرجوع.

(١٠٤) يخطر: في ز تحضر. والجنان: القلب.

وإنما سنة الله تعالى الجارية أن يقصد العضو المريض بدوائه، والنائم بما يوقظ به، اللهم إلا أن يكون في إيقاظ هذا النائم حركة عظيمة، ومعالجة كثيرة تتعدى إلى ذلك النائم الآخر فيستيقظ، فيكون إذن كأنه قصده بالإيقاظ مع صاحبه، وإما إن كانت حركته لا تتعداه فإن النائم الآخر يبقى بحاله، وفي غمرات نومه حتى يوقظه الذي أنامه، ويحركه الذي أسكنه تبارك وتعالى.

وإنما مثل الذكر الذي يعقب التنبيه، ويكون له معه البرء من السقم، والإيقاظ من النوم، أن تحضر المذكور قلبك، وتجمع له ذهنك وتجعله نصب عينيك، ومثالا حاضرا بين يديك، وأن تنظر إلى كل ما تحبه من الدنيا من ولد أو أهل أو جاه أو غير ذلك، فتعلم أنه لا بد لك من مفارقته ١٤/ب، إما في الحياة أو في المهات، سنة الله الجارية، وحكمه المطرد.

وتشعر هذا قلبك، وتفرغ له نفسك، فتمنعها بذلك عن الميل إلى ذلك المحبوب، والتعلق به، والهلكة بسببه.

كما قيل: يا ابن آدم لا تعلق قلبك بما يأخذه منك الفوت أو يأخذك عنه الموت.

ونظر رجل إلى بُني له صغير يمشي بين يديه، فأعجبه حسنه، وألهته حركته، فقال: يابُني لولا الموت لعلقت قلبي بك ولأكثرت من حبي لك.

ونظر ابن مطيع يوما إلى داره، فأعجبه حسنها، فبكى ثم قال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورا، ولولا ما أصير إليه من ضيق القبر لقرّت عيني بك، ثم بكى حتى ارتفع بكاؤه وعلا نحيبه.

واعلم أن طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه، واشتد علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وقد روى في طول الأمل وذمه، وفي التحريض على العمل والترغيب فيه ما في بعضه الكفاية، وما بأقل منه يوصل إلى المقصود، بعون الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون(١٠٥)﴾.

---

(١٠٥) آية ٣ من سورة الحجر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يزال قلب الشيخ شابا في اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل»(١٠٦). ذكره البخاري ومسلم وغيرهما.

وذكر أبوبكر بن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا وقال: هذا الأجل، وخط في وسطه خطا، وقال هذا الإنسان، وخط في عرضه - يعني في جانبه - خطوطا فقال: هذه الأعراض، وخط خطا خارجا وقال: هذا الأمل، قال: فالأعراض تنهشه وعينه إلى الأمل(١٠٧)».

يريد عليه الصلاة والسلام أن الإنسان قد أحاط به أجله، وأنه دائر به، فحيثما توجه لقيه، وأن فتن الدنيا ومحنها تعترضه وتنهشه، وتتلقاه وتستقبله، وهو مع ذلك بعيد الأمل، مصروف النظر إليه.

ويروى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ عودا فغرزه بين يديه وغرز عودا آخر إلى جنبه قريبا منه، ثم أخذ عودا ثالثا فغرزه بعيدا منه، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم.

فقال: هذا الانسان، وأشار إلى العود الذي بين يديه، وهذا الأجل، وأشار إلى العود الذي إلى جنبه، ثم قال: وذلك الأمل وأشار إلى العود الثالث البعيد. فالانسان يتعاطى الأمل ويختلجه قبل ذلك الأجل(١٠٨).

ويروى أن النبي ﷺ اطلع ذات يوم على الناس فقال: ألا تستحيون من الله؟ قالوا: وما ذاك يارسول الله؟ قال: تجمعون مالا تأكلون، وتأملون مالا تدركون. (١٠٩)

---

(١٠٦) البخاري ١١/٢٠٥ في الرقاق. ومسلم رقم ١٠٤٦ في الزكاة. والترمذي رقم ٢٣٣٩ في الزكاة. وابن ماجه رقم ٤٢٣٣ في الزهد. وهو في جامع الأصول بلفظ: قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش او قال: طول الحياة وحب المال.

(١٠٧) رواه البخاري ١١/١٤ و١٢ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٤٥٦ في الزهد. ورسمه ابن حجر في فتح الباري ١١/١٨٧ هكذا:
انظر جامع الأصول ١/٣٩٠.

(١٠٨) أخرجه احمد وابن ابي الدنيا عن أبي سعيد الخدري. واسناده حسن. تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٤/٤٦٣.

(١٠٩) أخرجه ابن ابي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف. (تخريج أحاديث =

وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ ١٥/أ يقول: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيني إلا ظننت أن شفريّ لا يلتقيان حتى تقبض روحي، ولا طعمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت، ثم قال: يابني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، فوالذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.(١١٠).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رسول الله ﷺ يهريق الماء فيتيمم بالتراب، فأقول: يارسول الله إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدريني لعلي لا أبلغه(١١١). ذكره الحارث بن أبي أسامة في مسنده.

وروى عنه عليه السلام أنه قال: نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل.(١١٢)

ومن كلام بعضهم: (١١٣) أيها الجاري في أمله، رويدك فإن الزمان يفتل قيدك، وربما صرعك قبل أن تنال ما به خدعك، وقتلك قبل أن تستوفي أملك، فأوردك منهل رداك، وأشمت بك عداك وأخذك بما كسبت يداك، وربما أدركت ما طلبت واستوفيت ما أملت، فأخذك أخذة أسف قبل فَلٍّ عرشك وهدم حوضك، وأطبق سماءك وزلزل أرضك، ورمى بك حيث لا يرعى لك ذمة، ولا تدركك رحمة، ولا تنكشف عنك كربة، ولا تنجلي عنك غمة.

وأنشدوا:

أمّل من دنياه ما أمّلا ... وقال ما قال لأن يفعلا

وصال في هذا الورى صولة ... بزّ بها الآخر والأوّلا

وطبّق الأرض بفرسانه ... وهدّ منها شعفات الفلا

= الاحياء للعراقي ٤/٤٥٣).

(١١٠) أخرجه ابن ابي الدنيا والطبراني وابو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(١١١) أخرجه ابن المبارك وابن أبي الدنيا والبزار بسند ضعيف.

(١١٢) أخرجه احمد وابن أبي الدنيا.

(١١٣) من هنا الى قوله: لا ولا انفردت به نسخة ل.

وقال هذي ثمرات المنى ... فليجنها الأفضل والأفضلا
فمن حريم فض ختامه ... ومن مليك في الثرى جندلا
حتى إذا بات على عرشه ... مستوفيا كل الذي أمّلا
صاح به صرف الردى صيحة ... ألقى بأعلى عرشه أسفلا
ودكّ في الأرض بإيوانه ... وزلزلت أرجاء ذاك الملا
ومر لا ينعش من عثرة ... إلا إلى ثمت إلا إلى
فلا سقت مصرعه مزنةٌ ... ولا انجلت كربته لا ولا

وخطب علي رضي الله عنه فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وان الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غدا، ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل يحثه عجل، فمن عمل في أيام مهله قبل حضور أجله نفعه عمله، ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهله قبل حضور أجله ضره أمله، وساءه عمله.

وقال علي رضي الله عنه: ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد أشرفت مقبلة، وإن لكل واحدة منهما بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. ألا وإن اليوم عمل بلا حساب، وغدا حساب بلا عمل، ألا وإن من أشد ما أخاف عليكم خصلتين: طول الأمل، واتباع الهوى. أما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فإنه يصد عن سبيل الله.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، أما الثلاث الأول: فمؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط عليه رب العالمين أم راضٍ عنه.

أما الثلاث التي أحزنتني حتى أبكتني ففراق محمد ﷺ، وفراق الأحبة أصحابه، والوقوف بين يدي الله تعالى ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم إلى النار؟

وقال أبو بكر زكريا التيمي: بينما هشام بن عبدالملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر مكتوب فيه باللسان العجمي، فطلب من يقرؤه له فأتى بوهب بن

منبـه رحمـه الله، فقرأه، فإذا فيـه: يا ابن آدم لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك[114]، ففارقك الولد والقريب، ورفضك الوالد والنسيب.

فلا أنت لدنيـاك عائـد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة.

١٥/ب وقـال الحسن البصـري رحمـه الله: كان آدم عليه السلام قبل أن يخطيء الخطيئـة أمله خلف ظهـره، والمـوت نصب عينيـه، فلما أصاب الخطيئة تحول أمله فصار بين عينيه، وصار أجله خلف ظهره.

وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا نسي العمل.

ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق، فقال: يا أهل دمشق ألا تسمعون من أخ لكم ناصح. إن من كان قبلكم كانوا يجمعـون كثـيرا، ويبنـون مشيـدا، ويأملون بعيـدا، فأصبح جمعهم بورا[115]، وبنيـانهم قبـورا، وأملهم غرورا، هذه عاد قد ملأت البـلاد أهـلا ومـالا وخيلاً ورجالا، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين؟

وقيـل لبعض الـزهـاد بالبصـرة: ألك حاجة ببغداد؟ فقال: ما أحب أن أبسط أملي حتى تمضي إلى بغداد وتجيء.

وأنشدوا:

يا ذا المؤمـل آمـالا وإن بعـدت ... عنـه ويـزعم أن يحظى بأقصـاهـا
أنـى تفـوز بما ترجـوه ويـك وما ... أصبحت في ثقـة من نيـل أدنـاهـا

وأنشدوا أيضا:

ما الأمـر أمـرك في حل ولا ظعـن ... تجول في جلد جذلان ومـنـفـسـح
ردّت أوائـلهـا بالمـوت فانـقـبضت ... والمـوت يقبض ذا الأحـزان والفرح

---

(١١٤) حشمك: الحشم: من يغضب للرجل من أهل وعبيد أو جيرة.

(١١٥) بورا: البور، الهلاك.

وبادر الأمر ما أصبحت في مهل ... من المشيب ومن مداك في فسح
فربما سكنت في الحال عاصفة ... وعاد غور مياه القوم للنضح

وقال بعض الحكماء: الأمل كالسراب، غرّ من رآه، وخيب من رجاه.

وخطب عمر بن عبدالعزيز يوما فقال: ألا إن لكل سفر زادا، فتزودوا التقوى لسفركم من الدنيا إلى الآخرة، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، وإنه والله ما بسط الأمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه.

وبين ذلك خطفات المنايا وهجمات المنون، وإنما تقرعين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة.

وأما من لا يداوي جرحا إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتظهر غباوتي. إنكم قد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لا نكدرت[116] أو الجبال لذابت، أو الأرض لتشققت.

أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزل، وأنكم صائرون إلى أحدهما.

وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: بينما نحن نصلح خُصّاً لنا إذ مر بنا رسول الله ﷺ، فقال: ماهذا؟ فقلنا يارسول الله قد وهى فنحن نصلحه. فقال ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» ذكره الترمذي[117].

والخص بيت من قصب، يريد عليه السلام تعجيل الأمر وتقريبه وخوف بغتته، والحذر من فجأته.

وقيل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وكان الحسن رحمه الله تعالى قصير الأمل طويل

---

(١١٦) انكدرت: تناثرت.

(١١٧) الترمذي رقم ٢٣٣٦ في الزهد، وأبو داود رقم ٥٢٣٥ و ٥٢٣٦ في الأدب، وابن ماجه رقم ٤١٦٠ في الزهد. جامع الأصول ١/ ٦١٥.

الخوف، وكان يأتي عليه الأحيان يظن الظان أن الموت قد نزل به، وأنه في سياقه من كثرة تفكره فيه وتخيله له.

وقال داود الطائي رحمه الله تعالى: لو أملت أن أعيش شهرا لرأيت أني قد أتيت عظيما، وكيف آمل ذلك وأنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل والنهار.

وقيل للربيع بن خيثم رحمه الله تعالى: كيف أصبحت؟ فقال: كيف يصبح رجل إذا أصبح لايدري أنه يمسي، وإذا أمسى لا يدري أنه يصبح.؟

امتثل الربيع رحمه الله الحديث ١٦/أ المروي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي[118] وقال: كن في الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل، وعدّ نفسك من أهل القبور، فإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن غناك لفقرك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري يا عبدالله ما اسمك غدا.

وقوله: إذا أصبحت.. الكلام إلى آخره.. أكثر ما يروى من قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ذكر الحديث الترمذي وغيره.[119]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب كتبه إليّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهو: أما بعد فإن الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا، ولا بما فاتك منها ترحا، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد نزل بك الأجل، والسلام.

وقال بعض الحكماء [في موعظة له: كلنا نتيقن الموت وما نرى له منا

---

(١١٨) المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد. وهما منكبان.

(١١٩) رواه البخاري ١١/١٩٩ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٣٣٤ في الزهد. جامع الأصول ١/٣٩٢.

مستعدا، وكلنا نتيقن الجنة وما نرى لها منا عاملا، وكلنا نتيقن النار وما نرى لها منا خائفا، فعلام تعرجون(١٢١)؟ وما عسى تنتظرون؟ وماذا ترجون أوماذا تأملون؟ الموت أول قادم يقدم عليكم بخير أو شر، فيا إخوتا سيروا سيرا جميلا(١٢٠)].

وقال آخر: العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله.

وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوب، وبإخلاص النية تقل الذنوب.

ويروى عن شقيق البلخي أنه جاء إلى استاذ له يقال له أبو هشام وفي طرف كسائه شيء مصرور، فضرب عليه الباب، فخرج إليه، فرأى ما في كسائه، فقال له: ما هذا الذي في كسائك؟ فقال: يا أستاذ دفع إليّ أخ لي لويزات(١٢٢)، وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال له: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أن تعيش إلى الليل؟
لا أكلمك. ثم أغلق الباب في وجهه ودخل.

ويروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا نعم يارسول الله. قال: فقصروا آمالكم، وثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء.

وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفي في المنام بعد موته، فقلت له: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل.

وقال بعضهم في موعظة له: أيها الناس حسنوا أعمالكم، وقصروا آمالكم واعلموا أن الموت معقود بنواصيكم، وأن الدنيا تطوى من ورائكم.

وأنشدوا:

عقد الموت منكم بالنواصي	ودفعتم منه لهول القصاص
ففراراً ولات حين فرار	ومناصا ولات حين مناص
قد طوتكم صروف هذي الليالي	عن كمال فعدتم لانتقاص

---

(١٢٠) ما بين المربعين سقط من ش و ز.

(١٢١) تعرجون: تميلون وتتركون.

(١٢٢) لويزات: تصغير لوزات واحدة اللوز.

أحكمت أسركم وما من أسير ... في يديها يرجى له من خلاص
كم ركضتم وراءها من جياد ... وامتطيتم بإثرها من قلاص
وانتضيتم لحربها من نصالٍ ... ولبستم لذاكم من دلاص
ونزلتم مساربا وغياضا ... وعلوتم شواهقا وصياصي
وإلى ذا فما وجدتم نجاة ... من ترد لكم بها والتحاص
رحتم مثخنين جرحا وقتلا ... كقنيص بايتتهم القناص
فاطلبوها بما لكم من قصاص ... ومحال أن تسعفوا بقصاص
فذروها ذميمة دار دنيا ... أخلصت عيشها لذي الإخلاص
وإذا امتدت الاماني فيها ... واشادت بوصلها المتعاص
فاقطعوا ذكرها بذكر مقام ... هام من ذكره مطيع وعاصي
وان ارتاع من حديث فؤادي ... فلذاكم يشيب سود النواصي

وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل وليس أكل الخشن ولبس العباءة، وصدق الثوري رحمه الله: فإن من قصر أمله لم يتأنق في المأكولات والمطعومات، ولا يتفنن بالملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يبلغه.

وفي بعض الخطب: أيها الناس إن سهام الموت قد فوقت (١٢٣) إليكم فانظروها، ١٦/ب وحبالة الأمل قد نصبت بين أيديكم فاحذروها، وفتن الدنيا قد أحاطت بكم من كل جانب فاتقوها ولا تغتروا بما أنتم فيه من حسن الحال فإنه إلى زوال، ومقيمه إلى ارتحال، وممتده إلى تقلص واضمحلال. (١٢٤)

أما تسمعون أيها الناس لما به توعظون؟ أما تعتبرون بما إليه تنظرون؟ أما تفكرون فيما عنه تزولون وفيما إليه ترجعون وعليه تقدمون؟ أين من تقدمكم وكان قبلكم ممن أمّل أملكم وسعى سعيكم، وعمل عملكم؟ أين الذين بنوا المدائن وملأوا الخزائن واستعدوا لما هوعندهم كائن؟ أين الذين غرسوا في روضة الملك ونظموا الآمال في سلك؟ وهتكوا حجبها أيما (١٢٥) هتك؟ وكانوا في ظاهر

---

(١٢٣) فوّقت: صوّبت.
(١٢٤) اضمحلال: تلاشي وانحلال.
(١٢٥) أيما هتك: أي هتكا شديدا.

أعمالهم في ريب من الزمان وفي شك؟

انظروا إليهم كيف نضبت لهم تلك المياه، وذبلت منهم تلك الشفاه، وتكسرت عند سقوطهم تلك الوجنات وتثلمت تلك الجباه، وتغيرت الأحوال، وانكمشت الآمال، وبقيت شاهدة عليهم تلك الرسوم والأطلال[١٢٦].

وأنشدوا:

رفعت عرشك في الدنيا وتهت به ... وما بها للبيب ترفع العُرشُ
وبت فيها على فرش ملينةٍ ... ولو عقلت لما لانت لك الفرشُ
وظلت تسعى لآمال وتفرشها ... وللمواريث ما تسعى وتفترشُ
كم كان قبلك من مأسور رغبته ... بالحرص تلدغ جنباه وتنتهشُ
يمسي ويصبح في حل وفي ظعن ... يضم هذا إلى هذا ويحتوشُ
عطشان للمال محماة جوانحه ... ألقى على صدره[١٢٧] لسانه العطشُ
حتى إذا قيل قد تمت مطالبه ... وطاف من حوله أهلوه واحتوشوا
مدت إليه يد للموت باطشة ... خشناء لا دهش فيها ولا رعش
فقصعته[١٢٨] وقدما كان ذا جيد ... وأجهشته ولما يدر ما الجهشُ
فبات مستلبا وبات وارثه ... وقد تغطوا بذاك المال وافترشوا
أما سمعت بأملاك مضوا قدما ... شم الأنوف بروض الملك قد عرشوا
إن دوفعوا دفعوا أو زوحموا زحموا ... أو غولبوا غلبوا أو بوطشوا بطشوا
جاءتهم وجنود الله غالبة ... كتائب للمنايا كلها حبش
فضعضعت جنبات عزهم ورمت ... منارهم بظلام ما به غبش
لطال ما أكلوا وطال ما شربوا ... وطال ما رفعوا الآجام واعترشوا
مروا فلا أثر منهم بدارهم ... ولا حسيس ولا ركز ولا وقش[١٢٩]
قد كان للقوم آمال مبسطة ... فأصبحوا قبضوا الآمال وانكمشوا

---

(١٢٦) الأطلال: جمع طلل وهو ما بقي من البناء بعد زواله

(١٢٧) على صدره: في ز على ظهره وهو غير مقعول.

(١٢٨) قصعته: طحنته. والجيد: طول العنق. أجهشته: أعجلته، جعلته يبكي.

(١٢٩) وقش: حركة.

ويروى أن أمير المؤمنين المهدي رحمه الله تعالى نام ليلة، ونساؤه حوله، فانتبهن لبكائه، فقلن له: ما شأنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ما رأيتن الشيخ؟ قلن: لا والله ما رأينا أحدا، فقال: دخل عليّ شيخ وأنا بين النائم واليقظان، والله لو كان بين ألف رجل لعرفته، فأنشدني:

كأني بهذا القصر قد باد أهله   وأوحش منه ركنه ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة   وملك إلى قبر عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه   ينادي بويل معولات حلائله

فقلن له: أضغاث أحلام، خيرا رأيت، فوالله ما أتت عليه سابعة حتى مات.(١٣٠)

واعلم أن الناس في قصر الأمل وطوله مختلفون، وفي درجاته متفاوتون، فمنهم من يؤمل أن يعيش أقصى ما يعيشه إنسان ممن شاهد أو سمع به في زمانه، ولو كان الاختيار إليه لما مات أبدا، حبا منه للدنيا وكلفا بها، وتلذذا بالبقاء فيها، وهيهات ليس للإنسان ما تمنى، ولا أن يدرك كل مافيه تعنى، وغاية هذا أن يتمنى طول العمر، ويود أن لو يبقى الأحقاب الكثيرة من الدهر.

قال الله تعالى في قوم كانوا كذلك: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة(١٣١)﴾.

ويمكن أن يكون ١٧ / أ هؤلاء تمنوا طول البقاء، لأنهم كانوا لم يتحقق في الآخرة لهم رجاء، لكفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم له مع صحة نبوته عندهم، لكن حملهم بغيهم وحسدهم له على الكفر به والإنكار لدعوته، وكانوا يقولون إنهم يدخلون النار ثم يخرجون منها فيتمنون لذلك طول العمر.

وهذه الآية نزلت في اليهود، ومنهم من يؤمل أن يعيش ستين سنة وسبعين سنة وأكثر من ذلك، ومنهم من يؤمل أن يعيش فوق ذلك ودون ذلك، حتى إن منهم من لا يجاوز أمله يومه وربما كان أمله أقصر من ذلك، بل منهم من يكون الموت نصب عينيه يتوقعه مع الأنفاس أن يثب عليه.

---

(١٣٠) هذه الحكاية عن المهدي انفردت بها نسخة ل.

(١٣١) آية ٩٦ البقرة.

يذكر عن الأسود الحبشي أنه كان يلتفت يمينا وشمالا، فقيل له ماهذا الالتفات؟ قال: انظر ملك الموت من أين يأتيني.

وأنشد بعضهم من كلمة:

والبس لهذا الموت جبة خائف ... قد ضاق عنه مسلك ومقامُ[١٣٢]

لا نأمنن عليك من إقدامه ... فله على هذا الورى إقدامُ

واكحل جفونك بالرقاد لأجله ... فالسهد حِلٌّ والمنام حرامُ

إلا غراراً كالغذاء تناله ... لولا الضرورة ما وجدت تنامُ

ومن العجائب أن تراه نائما ... من طالبوه ساهرون ينامُ

وكان بعض الصالحين يقول: ما أحسبني إلا رجلا قد أقعد ليقتل، وجرد السيف عليه ومدت عنقه، فهوينتظر أن يضرب، فيلقى رأسه بين يديه، فشتان مابين الرجلين.

وآخر قد مد في عمره، وطول في أمله، فازداد في كسله، ودخل الوهن[١٣٣] في عمله.

ورجل آخر قد جعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته، بل جعل الموت نصب عينيه، ومثالا قائما بين يديه، وسيفا مصلتا عليه، فهو مرتقب له، مستعد لنزوله، لا يشغله عن ارتقابه شاغل، ولا يصرفه عن الاستعداد له صارف، قد ملأ قلبه وجلا، وعمره عملا، وعد يوما واحدا يعيشه بقاء ومهلا، وغنيمة تملأ نفسه سرورا وجذلا، لازدياده فيه من الخير، وادخاره فيه من الأجر، واكتسابه عند الله عز وجل من جميل الذكر.

ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله، وبهاءه.

فانظر رحمك الله تعالى أي الرجلين تريد أن تكون، وأي العملين تريد أن تعمل، وبأي الرداءين تريد أن تشتمل، وبأيهما تريد أن تتزين وتتجمل، فلست تلبس هناك إلا ما لبسته هنا، ولا تحشر هناك إلا فيما كنت فيه هنا، إن

---

(١٣٢) انفردت بهذه الأبيات نسخة ل.

(١٣٣) الوهن: الضعف.

صلاح فصلاح، وإن فجور ففجور.

ولعل هذا هو تأويل الخبر المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يبعث الميت في ثيابه التي مات فيها[١٣٤]» لأنه قد صح أن الناس يبعثون حفاة عراة.

وهذا الخبر ذكره أبو داود في السنن.

وأنشدوا:

قد طواك الزمان شيئا فشيئا	وبرتك الخطوب جزءاً فجزءا[١٣٥]
ورمت منك حادثات الليالي	حبة القلب فأذنُ بعد أو انأى
كان ما كان وانقضت مدة العمـ	ـر وولى الشباب خبرا ومرأى
وقديما قد أعلمتك الليالي	أن أدواءها تفوتك برءا
فادرك منها فائتا بمتاب	بل بإيمان أنشىء اليوم نشئا
واتخذ للهيام ويحك ريّاً	واتخذ للسهوم ويلك فيئا
وإذا ما خرقت بالدين خرقا	فارفينْه بالإنابة رفئا
وإذا ما وردت مورد دنيا	فليكن ما وردت من ذاك ظمئا
ولتدعها تحيّلا وأماني	ألبست قلبك المغفل صدأ
وإذا ما الحِمام جاءك يوما	لم تجد من جميع ذلك شيئا

واعلم أن طول الأمل حجاب على قلبك يمنعك من رؤية الموت ومشاهدته، ووقر[١٣٦] في أذنيك يمنعك من سماع وجبته[١٣٧] ودويّ وقعته، وبقدر ما يرفع لك من الحجاب ترى، وبقدر ما يخفف عن أذنيك من الوقر تسمع.

فانظر رحمك الله نظر من رفع الحجاب وفتح بابه، واستمع سماع من أزيل وقره، وخوطب سره، وبادر قبل أن يبادر بك، وينزل عليك وينفذ حكم الله فيك، فتطوى صحيفة عملك، ويختم على ما في يديك، ويقال لك: اجن ما

---

(١٣٤) أبو داود رقم ٣١١٤ في الجنائز. وإسناده صحيح. جامع الأصول ١١/١١٥.

(١٣٥) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(١٣٦) الوقر: ثقل السمع.

(١٣٧) الوجبة: السقطة.

غرست، واحصد ما زرعت، واقرأ كتابك الذي كتبت، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، وبربك تبارك وتعالى شهيدا ورقيبا.

قال مالك بن دينار رحمه الله: رأيت ١٧/ب في البادية في يوم شديد البرد شابا عليه ثوبان خلقان، وعليه آثار الدعاء، وأنوار الاجابة، فعرفته، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة ذا ثروة وحسن حال، وكان ذا مال وآمال.

قال فبكيت لما رأيته على تلك الحال، فلما رآني بكى وبدأني بالسلام وقال لي: يا مالك بن دينار، ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاء شديدا، وقلت له: وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده، والعباد عباده، فأين يهرب المسكين؟ فقال: يامالك سمعت قارئا يقرأ ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[١٣٨] فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي فلا تخمد ولا تهدأ من ذلك اليوم يامالك أتراني أرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي.

فقلت له: أحسن الظن بمولاك فإنه غفور رحيم.

ثم قلت له: إلى أين؟ قال إلى مكة شرفها الله تعالى لعلي أن أكون ممن إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم.

قال مالك: ففارقني ومضى، فتعجبت من وقوع الموعظة منه موقعها، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع.

واعلم أن الأمل يكسل عن العمل، ويورث التراخي والتواني ويعقب التشاغل والتقاعس[١٣٩]، ويخلد إلى الأرض ويُميل إلى الهوى وهذا أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان.

كما أن قصره يبعث على العمل، ويحمل على المبادرة، ويحث على المسابقة، وسأضرب لك في ذلك مثلا، مثل ملك من الملوك كتب إلى رجل يقول له: افعل كذا وكذا، وانظر في كذا وكذا، وأصلح كذا وكذا، وانتظر رسولي فلانا فإني سأبعثه إليك ليأتيني بك، وإياك ثم إياك أن يأتيك إلا وقد فرغت من أشغالك، وتخلصت من أعمالك، ونظرت في زادك، وأخذت ما تحتاج

---

(١٣٨) آية ١٨ سورة الحاقة.

(١٣٩) التقاعس: التأخر.

إليـه في سفـرك، وإلا أحللت بك عقـابي، وأنـزلت عليك سخطي، وأمرته أن يأتيني بك مغلولة يداك مقيدة رجلاك مشمتا بك عداك، مسحوبا على وجهك إلى دار خزيي وهواني وما أعددته لمن عصاني.

وإن هو وجـدك قد فرغت من أعـمالـك، وقضيت جميع أشغالك أتي بك مكرما مرفعا مرفها إلى دار رضواني وكرامتي، وما أعددته لمن امتثل أمري وعمل بطاعتي.

واحذر أن يخدعك فلان أو فلانة عن امتثال أمري، والاشتغال بعملي.

وكتب إلى رجل آخر بمثل ذلك الكتاب.

فأمـا الـرجـل الأول فقال: هذا كتاب الملك جاء يأمرني فيه بكذا وكذا، وذكـر لي أن رسـولـه يأتيني ليحملني إليه، وأنا لا أمضي إليه حتى يأتيني رسوله، ولعـل رسـولـه لا يأتيني إلا إلى خمسين سنة أو أكثر. فأنا على مهلة، وسأنظر فيها أمـرني به، ولم يقـع الكتـاب منـه بذلك الموقع، ولم ينزله من نفسه بتلك المنزلة، وقال: والله لقد أتى كتابه إلى خلق كثير بمثل ما أتاني، ولم يأتهم رسوله إلا بعد السنين الكثيرة، والمدد الطويلة وأنا واحد منهم، ولعل رسوله يتأخر عني كما تأخر عنهم، وجعل الغالب على ظنه أن الرسول لا يأتيه إلا إلى خمسين سنة كما ظن أو أكثر أو إلى المدة التي جعل لنفسه بزغمه[١٤٠].

ثم أقبـل على اشغـــال نفســه مما لا يحتـاج إليه، ومما كان غنيا عنه، وترك أوامـر الملك، والشغـل الـذي كلفه النظر فيها والاشتغال به، فكلما دخلت عليه سنـة قال: أنـا مشغـول في هذه السنـة وسأنظر في السنة المقبلة، والمسافة أمامي طويلة، والمهـل[١٤١] بعيـد وهكـذا كلما دخلت سنـة قال: أنـا في هذه مشغـول وسأنظر في الأخرى، أو سأنظر في نصف السنة أو في الشهر الثاني منها، أو سأنظر غدا.

فبينما هو على ذلك[١٤٢] من تسويفه واغتراره، إذ جاءه رسول الملك فكسر بابه،

---

(١٤٠) في ش باضافة: فيما يظن.

(١٤١) في ي: والمنهل.

(١٤٢) في ز: على ذلك الحال.

وهتك حجابه، وحصل معه في قعر بيته، وقال له: أجب الملك. فقال: والله لقد جاءني كتابه يأمرني فيه بأعمال أعملها، وأشغال انظر له فيها، وما قضيت منها شغلا، ولا عملت منها حتى الآن شيئا.

فقال له الرسول: ويلك؟ وما الذي أبطأك عنها؟ وما الذي حبسك عن الاشتغال بها والنظر فيها؟ فقال: لم أكن أظن أنك تأتيني في هذا الوقت.

فقال له: ويلك! ومن أين كان لك هذا الظن، ومن أخبرك به؟ ومن أعلمك بأني لا آتيك إلا في الوقت الذي تظن؟ قال: ظننت وطمعت وسوّلت لي نفسي ومنتني، وخدعني الشيطان وغرني.

فقال له: ألم يحذرك الملك في كتابه منهما؟ وأمرك ألا تسمع لهما؟ قال: بلى والله لقد فعل، ولقد جاءني هذا في كتابه، ولكني خدعت فانخدعت، وفتنت فافتتنت، وارتبت[143] في وقت مجيئك فتربصت.

فقال له: ويلك! غرك الغرور، وخدعك المخادع، أجب الملك لا أمَّ لك.

قال: أنشدك بحق الملك إلا ما تركتني حتى أنظر فيما أمرني به، أو في بعضه أو فيما تيسر منه، حتى لا أقدم عليه في جملة المفرطين وعصابة المقصرين.

وهذا مال قد كنت جمعته لنفسي، وأعددته لمؤنة زماني، فاتركني حتى آخذ منه زادا أتزوده، ودابة أركبها، فإن الطريق شاقة، والمفازة[144] صعبة، والعقبة كؤود[145]، والمنزل ليس فيه ماء.

قال: أتركك حتى أكون عاصيا مثلك؟ ثم دفعه دفعة ألقاه على وجهه، ثم جمع يديه إلى عنقه وانطلق به يجره من خلفه خزيان ندمان جوعان عطشان وهو ينشد بلسان الحال:

لا كحزني إذا لقيت حزينا	جل خطبي[146] فديتكم أن يهونا
ضاق صدري عن بعضه واحتمالي	فاسلكوا بي حيث ألقى المنونا

---

(١٤٣) ارتبت: شككت.

(١٤٤) المفازة: الصحراء، سميت بذلك تفاؤلا بالفوز.

(١٤٥) كؤود: شاقة صعبة المرتقى.

(١٤٦) جل خطبي: عظمت مصيبتي.

ما تريد العداة مني وإني لبحال يرق لي المبغضونا
زفرات هتكن خلب[147] فؤادي وهموم قطعن مني الوتينا[148]
خنت عهد المليك قولا وفعلا واتخذت الخلاف شرعا ودينا
غرستْ في الحياة كفي شرا فاجتنيت العقاب منه فنونا
ليتني لم أكن وأين لمثلي ظالم نفسه بأن لا يكونا
ياخليلي ولا خليل لي اليو م سوى حسرة تديم الأنينا
ربح الرابحون وانقضت السو ق وخلوا بغبنه المغبونا
فابكني إن يكن بكاك مفيدا أو فدعني وعصبة يبكونا

وأما الآخر الذي كتب إليه الملك بمثل ما كتب به إلى هذا، فإنه أخذ كتاب الملك وقبّله، وقرأه وتصفحه وتدبره، وقال: أرى الملك قد كتب إليّ بأن أعمل له كذا وكذا، وأقضي له كذا وكذا، وأنظر له في كذا وكذا، ومن أين سبقت لي هذه السابقة عند الملك؟ ومن الذي عني بي عنده؟ ومن الذي أ نزلني منه بهذه المنزلة؟ حتى جعلني من بعض[149] خدامه والقائمين بأمره والناظرين في أعماله؟.

والله إن هذه لسعادة، والله إن هذه لعناية، الحمد لله رب العالمين. ثم نظر في الكتاب وقال أسمع الملك وقد قال لي في كتابه: وانتظر رسولي فإني سأبعثه إليك ليأتيني بك، وأراه لم يحد لي الوقت الذي يبعث فيه الرسول إلي، ولا سماه لي، ولعلي لا أفرغ من قراءة كتابه إلا ورسوله قد أتاني ونزل علي، والله لا قدّمْت شغلا على شغل الملك، ولا نظرت في شيء إلا بعد فراغي مما أمرني به الملك[150]، وإعدادي زادا أتزوده ومركوبا أركبه إذا جاءني رسوله وحملني إليه.

فتعرض له رجل وقال له: لم هذه المسارعة كلها؟ وفيم هذه المبادرة كلها؟ فقال له: ويحك! أما ترى كتاب الملك بما جاءني؟ أما تسمع ما فيه، أما تصدقه؟

---

(١٤٧) الخلب: بكسر الخاء: حجاب القلب.
(١٤٨) الوتين: عرق في القلب يجري فيه الدم إلى سائر الجسد.
(١٤٩) بعض: ليست في ز و ش وهي من ي.
(١٥٠) من ولا نظرت إلى هنا سقط من ش.

أمـا تؤمن به؟ قال: بلى سمعت وآمنت وصـدقت، ولكن لم يقـل لك فيـه إن رسـولـه يأتيـك اليـوم ولا غدا ولا وقتا معلوما، ولكنه سيأتيك وقد جاء كتابه إلى فلان بهذا الـذي قد جاءك أنت به، وقـد بقي منتظـرا لرسـولـه أكثـر من سبعين سنة، وإلى الآن ما أتاه، وبعد زمان طويل ما جاءه، وفلان أتاه بعد ثمانين سنة، وفلان أتاه بعد مائة سنة وأكثر، وفلان كاد أن لا يأتيه.

وأنت واحد من المرسول إليهم فلم هذه العجلة؟ وفيم هذا الإسراع؟.

فقـال: ويحـك! أمـا ترى أنت فلانـا قد جاءه كتـاب الملك بهذا الـذي جاءني، وجـاءه الـرسـول في إثـر مجيء الكتـاب، وفلان كذلك وفلان جاءه بعد سنة، وفلان كذا.

فقـال له: بلى ولكن لا تنظـر إلى هؤلاء خاصـة، وانظر إلى الذين قلت لك ممن تأخر عنه مجيء الرسول.

فقـال له: دعني ياهـذا فقد شغلتني والله، وإني لأخاف أن يأتيني الرسول وأنا أكلمك.

ثم أقبل على ما أمره به الملك فامتثله، ونظر فيما حدّ له، واشتغل بما يجب أن يشتغـل به، وأخـذ الزاد لسفره، وأخذ الأهبة لطريقه، وجعل ينتظر الرسول أن يأتيه، وأقبل يلتفت يمينا وشمالا من أين يأتيه، ومن أين يقبل عليه.

فبينـما هو كذلـك وإذا برسـول الملك قد أتاه، فقال: أجب الملك. قال: نعم. قال: الساعة؟ قال: الساعة. قال: وفرغت مما أمرك به، وعملت ما حدّ لك أن تعمله[١٥١]؟ قال: نعم قال: فانطلق. قال بسم الله، فخلع عليه خلعة الأوليـاء وكسـاه ١٩ / أ كسـوة الأصفيـاء، وأعطـاه مركـوبا يليق به ويجمل بمثله وانطلق به في حبور وسرور، وهو ينشد بلسان الحال:

هنئـوني بغـبطـتي وسـروري ... فجـديـر بأن يهنأ مثـلي
ربـحـت صفـقـتي وزُكـّي سعيـي ... وارتـقـى للالـه قولي وفـعـلي
كيـف لي أن أعـبر الـيـوم عني ... بمـقـال يبـين وصـف محلي
ضاقـت الـكـتـب أن تضـم حديثي ... بل تلاشـت عن بعض ما أنـا أمـلي

(١٥١) من وعملت: سقط من ش.

قد بلغت المنى وزدت عليها   وتملأتُ بالمسرة كلي
ليت قومي لو يعلمون بما للـ   ـه من نعمة عليّ وفضلِ
طاب عيشي وقر فيه قراري   وتقلبت بين ماء وظل
أنا ذاكم حقيقا أم هو غيري   اعذروني فقد تدلّه[152] عقلي

فبان لك بهذا المثل وبغيره فضيلة قصر الأمل، وفضيلة المبادرة إلى العمل، والاستعداد للموت قبل نزوله، والانتظار له قبل حلوله.

وقد كثر الحض على هذا، وكثرت الأقاويل فيه، ولم يزل المذكرون يذكرون، والمنبهون ينبهون، لو يجدون سمعا واعيا وقلبا حافظا، ومحلا قابلا، والحول[153] حول الله، والأمر كله بيد الله.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لرجل وهو يعظه:

«اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

وعن ابن عباس أيضا عن النبي ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ[154]».

ذكر البخاري

وقال القائل:

إن في الموت والمعاد لشغلا   وادّكاراً لذي النهى وبلاغا
فاغتنم نعمتين قبل المنايا   صحة الجسم يا أخي والفراغا

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا، أو هرما مفندا، أو

---

(١٥٢) تدلّه العقل: ذهب.

(١٥٣) الحوْل: القدرة.

(١٥٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٠٧ في الزهد. وقال فيه: حسن غريب.

مرضا مفسدا، أو موتا مجهزا، أو الدجال، والدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ[155]».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».[155]

وقال النبي ﷺ: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد».

ذكره القاضي أبو الحسن بن صخر في الفوائد.

وقال جابر بن عبدالله: كان رسول الله ﷺ إذا خطب رفع صوته، واحمرت عيناه، كأنه منذر جيش يقول صبّحكم ومسّاكم.

ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه [السبابة والوسطى][156]

ذكره مسلم بن الحجاج. يريد عليه السلام تقريب الأمر وسرعة نزوله، وكل آت قريب، وكل ما هو كائن سيكون.

قال ابن مسعود: قرأ رسول الله ﷺ: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقال: إن النور إذا دخل القلب انفسح، فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟

قال: نعم التجافي[157] عن دار الغرور، والإنابة إلى دار ١٩/ب الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ومن كلام بعضهم: أما تسمعون أيها الناس داعي الموت يدعوكم؟ وحاديه يحدوكم، أما ترون صرعاه في منازلكم، وقتلاه بين أيديكم ففيم هذا التصامم عن الداعي، والتشاغل عن الحادي. والتعامي عن مصارع القتلى، والتغافل عن مشاهدة الهلكى؟، فرحم الله امرأ أيقظ نفسه في مهلة الحياة قبل أن توقظه روعة المهات، واستعد لما هو آت قبل الانبتات[158] وحلول الفوات. وكان

---

(١٥٥) أخرجه الترمذي رقم **٢٤٥٢** في صفة القيامة. وقال عنه: حسن غريب.

(١٥٦) مسلم رقم ٨٦٧ في الجمعة. والنسائي **١٨٨/٣** و **١٨٩** في العيدين.

(١٥٧) التجافي التباعد.

(١٥٨) الأنبتات: الانقطاع.

الحكم قد وقع، والخطاب قد ارتفع، أعرض من أعرض، وسمع من سمع.

وأنشدوا:

قطعت زماني حيناً فحيناً ... أدير من اللهو فيه فنونا
وأهملت نفسي وما أهملت ... وهونت من ذاك ما لم يهونا
ورب سرور شفى غلة ... وولى فأعقب حزناً رصينا
وكم آكل ساعة ما يريد ... يكابد ما أورثته سنينا
وما كان أغنى الفتى عن نعيم ... يعود عليه عذاباً مهينا
وكم وعظتني عظات الزمان ... لو اني أصيخ إلى الواعظينا
وكم قد دعاني داعي المنون ... وأسمع لوكنت في السامعيا
وماذا أؤمل أو أرتجيه ... وقد جزت سبعاً على الأربعينا
فلو كان عقلي معي حاضراً ... سمعت لعمري منه أنينا
ولن يبرح المرء في رقدة ... يغط إلى أن يوافي المنونا
فتوقظه عندها روعة ... تقطع منه هناك الوتينا
وإذ ذاك يدري بما كان فيه ... وتجلو الحقائق منه الظنونا

وقال أنس في قول الله عز وجل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ قال: أكثركم للموت ذكرا، وأحسن استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا(١٥٩)

وقال حذيفة رضي الله عنه: ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس، الرحيل الرحيل.

وقال بعضهم: أيها الانسان إنما أنت نازل من الدنيا في منزل تعمره أيام عمرك، ثم تخليه عند موتك لمن ينزله من بعدك وأنشدوا:

اخل لمن ينزل ذا المنزل ... وارحل فقد آن أن ترحل
وارحل بما قد كنت جمعته ... واحمله إن خُلِّيتَ أن تحمل

---

(١٥٩) من وقال أنس: سقط من ش.

هيـهـات لا تخرج منـه بشـيء ... فافـعـلن ما شئـت أن تفـعـل
واقـعـد من الـغـيـظ وإلا فقـم ... واطـلع إلى الـكـوكـب أو فانـزل
فلسـت بالخـارج إلا بما ... جئـت فسلم ويـك واستـبسـل
وخـل عن هذي الأمـاني فما ... تثـمـر إلا شر ما يؤكـل
كم من فتـى طوّل آمـالـه ... فقـصـرت دنـيـاه ما طوّل
فجـاءه المـوت على غرة ... فمات من قبـل الـذي أمّـل
فيـا إلهـي والـذي جوده ... قد غمـر الآخـر والأول
رحمـاك يا رحمـن في فتـيـة ... ليس لهم دونـك من مؤمـل
قد حجـبـتـهـا عنـك آثـامـهـا ... وانـزلـتـهـا شر ما منـزل
ولـيس إلا عفـوك المـرتجـى ... أو دلهـا ماذا الـذي تعـمـل

وقال محمد بن إبراهيم: جلست إلى عامر بن عبدالله وهو يصلي فجوّز في صلاته، فقال: أخبرني بما جئت له فإني أبادر. فقلت له: وما تبادر؟ قال: ملك الموت ـ رحمك الله ـ ٢٠/أ فإني أخاف أن ينزل بي. فقمت عنه، وقام إلى صلاته.

ومر داود الطائي ـ رحمه الله ـ فسأله رجل غريب عن حديث فقال: دعني فإني أبادر خروج نفسي(١٦٠).

وقال الربيع بن خثيم رحمه الله: من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التؤدة(١٦١) خير في كل شيء إلا في أمر الآخرة، والتؤدة: هي التثبت والتأني.

وكـان الحسن رحمـه الله يقـول في موعظتـه: المبـادرة المبـادرة، فإنـما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم الأعمال التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرأ نظر(١٦٢) لنفسه وبكى على ذنبه، ثم قرأ هذه الآية: «إنما نعد لهم

---

(١٦٠) في ي: روحي.
(١٦١) التؤدة: التأني.
(١٦٢) في ش ايقظ نفسه.

عدّا» يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك وفراق أهلك.

وقال بعض الصلحاء: اغتنم تنفس الأجل، وإمكان العمل، واقتطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، ونفَس معدود، وعمر غير ممدود.

وقال غيره: أعمل عمل المرتحل، فإن حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك، فيطرحك في حفرة لا يخافك فيها أحد ولا يرجوك.

وكتب رجل إلى بعض إخوانه: أما بعد فإن الدنيا حلم، والأخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث(١٦٣) أحلام، والسلام.

وكتب محمد بن يوسف رحمه الله إلى أخ له: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني محذرك من دار منقلبك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في باطن الأرض بعد ظهرها، فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا فاقه(١٦٤) ولا بأس ولا وحشة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك يا أخي من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة النشور ونفخة الصور، وقيام الخلائق لفصل القضاء، وامتلأت الأرض بأهلها، والسموات بسكانها، فباحت الأسرار وسعّرت النار، ووضعت الموازين ونشرت الدواوين، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين.

فكم من مفتضح ومستور، ومعذب ومرحوم، وكم من هالك وناج فياليت شعري ما حالي وحالك يومئذ، فإن في هذا ما هدم اللذات، وسلى عن الشهوات، وقصر من الأمل، وأيقظ النائم ونبه الغافل. أعاننا الله وإياك على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا من قلبك وقلبي موقعها من قلوب المتقين، فإنما نحن له وبه والسلام.

وأنشد بعضهم:

مرادك أن يتم لك المراد ... وتركض في مطالبك الجياد

وتمضي في أوامرك الليالي ... فلا يعصى هواك ولا يكاد

---

(١٦٣) أضغاث أحلام: أحلام مختلطة لا يصح تأويلها.

(١٦٤) فاقة: احتياج.

لقد ملكت مضلات الأماني قيادك فاعتديت بها تقاد
ألم تسمع بذي أمل بعيد وآمال الفتى منها بعاد
رماه الموت فانقبضت إليه أمانيه بشيء لا يراد
ويلقاه بإثر الموت يوم تميد لهوله السبع الشداد
تصم لوقعه الآذان صما وينطق من زلازله الجماد
فكم سالت هنالك من دموع يغيرهن من دمه الفؤاد
وكم شاهت هنالك من وجوه على صفحاتها طُلِيَ الحداد
وماذا الكرب يشبه ما عهدْنا وأنى يشبه البحرَ الثماد
وما الأسماء تعطيك اتفاقا على معنى يتم لك المراد
ولكن ربما كان اشتباه قليل لا يحسّ ولا يكاد
يسمى البحر ذو الأهوال بحرا وبحرا مثله الفرس الجواد[١٦٥]

وفي بعض الخطب المروية: أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، وإن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الموت، فإن الدنيا خلقت لكم وخلقتم أنتم للآخرة، ٢٠/ب والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار[١٦٦].

وخطب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للفصل وللحكم فيما بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنة عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى، وباع قليلا بكثير، وفانيا بباق، وشقاء بسعادة.

ألا ترون أيها الناس أنكم في أصلاب الهالكين ويستخلف بعدكم الباقين[١٦٧]

---

(١٦٥) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.
(١٦٦) من خطبة للنبي ﷺ.
(١٦٧) من ألا ترون إلى هنا سقط من ي.

ألا ترون أيها النـاس أنكم تشيعـون غاديـا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه وانقطع عمله وأمله، فتضعونه في بطن قاع من الأرض غير ممهد ولا موسد، قد قطع الأسباب وفارق الأحباب، وواجه الحساب.

وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما عندي، ولكنها سنن من الله عادلة، أمر فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته، ثم استغفـر الله تعـالى ووضـع كمـه على وجهه(١٦٩) وبكى، حتى بلت دموعه لحيته، وما عاد إلى مجلسه ذلك حتى مات رحمه الله.

ومما يروى من خطبـه أيضـا أنـه قال: أيهـا النـاس إن الدنيا ليست بدار قراركم ولا محل إقـامتكم، دار كتب الله عليهـا الفنـاء، وأوجب منها على أهلها الـرحيـل، فكم من عامر مؤنق(١٧٠) عما قليـل ستخـرب عمارته، وكم من مقيم مغتبـط عما قليـل سيرحـل فأحسنـوا رحمكم الله منهـا الـرحلة، واحملوا خير ما يحضركم للنقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

إن الـدنيـا كظـل قلص فذهب، بينـما ابن آدم فيهـا ينـافس، وعليهـا يضـارب، إذ دعـاه الله بقدره، ووافاه يوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير(١٧١) للآخـرين مصـانعـه(١٧٢) ومغنـاه. إن الـدنيـا ما تسـر بمقدار ما تضر، إنها تسر قليلا، وتحزن حزنا طويلا

وخطب المأمـون يومـا فقـال: عبـاد الله اتقـوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار، فاستبدلوا بها وتعوضوا عنها.

أيهـا النـاس استعـدوا للمـوت فقد أظلكم، وترحلوا فقد جد بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبا يحدوه الجـديـدان(١٧٣) لجديـر بسـرعـة الأوبة(١٧٤)، وإن قادما يقدم بالفوز أو بالشقوة

---

(١٦٨) عمله سقطت من ش و ز.

(١٦٩) وجهه: في ش و ز لحيته.

(١٧٠) مؤنق: من الأناقة وهي الحُسن.

(١٧١) من هنا إلى: فانتبهوا سقط من ش.

(١٧٢) المصانع: هنا بمعنى القرى والحصون، أو أحواض الماء. والمغنى: المنزل.

(١٧٣) الجديدان: الليل والنهار.

(١٧٤) الأوبة: الرجعة.

لمستحق بأفضل العدة.

اتقى عبد ربه، نصح نفسه، وغلب شهوته، وقدم توبته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به، يمنّيه التوبة ليسوّفها، ويزين لها المعصية ليركبها، حتى تهجم عليه منيّتُه أغفل ما يكون عنها، وأنسى ما يكون لها، وإن ما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، فيالها من حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، أو أن تؤدبه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن الطاعة معصية، ولا تحل به بعد الموت حسرة، إنه سميع الدعاء فعال لما يشاء.

ومن كلام بعضهم[١٧٥]: يا ابن آدم إنك لو رأيت ما حل بك، وما أحاط بأرجائك، لبقيت مصروعا لما بك، مذهولا عن أهليك وأصحابك، يا ابن آدم أماعلمْت أن بين يديك يوما يصم سماعه الآذان، وتشيب لروعه الولدان، ويترك ما عز وهان، ويهجر له الأهلون والأوطان.

يا ابن آدم أما ترى مسير الأيام بجسمك، وذهابها بعمرك وإخراجها لك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، وبعد ذلك ما لذكر بعضه تتصدع القلوب، وتنضج له الجوانح وتذوب، ويفر المرء على وجهه فلا يرجع ولا يؤوب.

وأنشدوا:

لأمر ما تصدعت القلوب ... وباح بسرها دمع سكيب
وباتت في الجوانح نار ذكرى ... لها من خارج أثر عجيب
وما خف اللبيب لغير شيء ... ولا أعيا بمنطقه الأريب
ذراه لائماه فلا تلوما ... فربت لائم فيه يحوب
رأى الأيام قد مرت عليه ... مرور الريح تدفعها الهبوب
وما نفس يمر عليه إلا ... ومن جثمانه فيه نصيب
وبين يديه لو يدري مقام ... به الولدان من روع تشيب
وهذا الموت يدنيه إليه ... كما يُدنى إلى الهرم المشيب
مقام تُستلذ به المنايا ... وتدعى فيه لو كانت تجيب
وماذا الوصف بالغه ولكن ... هي الأمثال يفهمها اللبيب[١٧٥]

وخطب الحجاج يوما فقال: أيها الناس إن الله كتب على الدنيا الفناء،

---

(١٧٥) من: ومن كلام بعضهم، إلى هنا انفردت به نسخة ل.

وعلى الآخـرة البقـاء، فلا فنـاء لما ٢١ / أ كتب الله عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب الله عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

وفي بعض الخطب المـرويـة: أيها الناس إن الآمال تطوى والأعمار تفنى، والأبـدان تحت الـتراب تبلى، وإن الليـل والنهـار يتراكضـان كتراكض الـبريد، يقــربـــان كل بعيــد، ويبليــان كل جديـد، وفي ذلـك عبـاد الله ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

وفي بعض الخطب أيضـا: أكثـروا من ذكر هادم اللذات الموت فإنكـم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم، فرضيتم به فأجرتم، وإن ذكرتموه في غنى نغصه عليكم فجـدتم به فأثبتم، إن المنـايـا قاطعـات الآمـال، والليالي[١٧٦] مدنيات الآجـال، وإن المؤمن بين يومـين: يوم قد مضى أحصى فيـه عمله فختم عليه، ويوم قد بقي لعله لا يصل إليه، إن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه[١٧٧] يرى جزاء ما أسلف، وقلة غناء ما خلف، ولعله من باطل جمعه أو من حق منعه.

وقال بعض الحكماء: إن للباقي بالماضي معتبرا، وللآخر بالأول مزدجـرا[١٧٨]، والسعيـد لا يغـتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع[١٧٩]، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل نسي العمل وغفل عن الأجل.

وقـــال بعض المفســـرين في قول الله عز وجـل: ﴿فتنتم أنفسكم﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿وتربصتم﴾ قال بالتوبة ﴿وارتبتم﴾ قال: شككتم ﴿حتى جاء أمر الله﴾ قال: الموت. ﴿وغركم بالله الغرور﴾ قال: الشيطان.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى يزيد بن عبدالملك إياك أن تدركك الصـرعـة عنـد الغـرة[١٨٠]، فلا تقـال[١٨١] العثـرة، ولا تمكن من الرجعة، ولا يحمدك من خلفت على ما تركت، ولا يعذرك من تقدم عليه بما به اشتغلت.

---

(١٧٦) والليالي: سقطت من ز

(١٧٧) رمسه: قبره.

(١٧٨) مزدجر: رادع.

(١٧٩) الخدع: جمع خدعة.

(١٨٠) الغِرة: الغفلة.

(١٨١) تقال العثرة: أقال عثرته: أنهضه من سقوطه.

وقال بعض البلغاء: لا تَبِتْ على غير وصية، وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة، فإن الدهر خائن، وكل ما هو كائن كائن.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما منكم من أحد إلا وهو ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة.

وقال الحسن البصري رحمه الله ياعجبا لقوم أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل، وحشر أولهم على آخرهم، وهم مع ذلك قعود يلعبون.

وقال بعض الحكماء: ليس من الدين عوض، ولا من الإيمان بدل ولا من الجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن قمتم أخذكم، وإن هربتم أدرككم.

وكان عبدالله بن ثعلبة يقول في موعظته: تضحك ياهذا ولعل أكفانك عند القصّار(١٨٢).

وقال بعض الحكماء.. كل يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوفي مدة الأجل، وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل.

٢١/ب(١٨٣) وفي كلام بعضهم: أعلم رحمك الله أن أمانيك سترد عليك وترجع خائبة إليك، وأن الساعات تهدم في جسدك، وربما عاجلتك المنية في ساعتك أو في يومك أو في غدك، فأوقفتك على غشك وظلمك، وأطالت في كربك، وزادت في غمك، وأرتك مالم تعهد، وأشهدتْك مشهدا ما مثله مشهد.

وأنشد:

مرادك لا يصح ولا يتم	إذا ما كنت للدنيا تدمُّ*
وما فرقت منها من أمان*	فلست وإن أصبت لها تضم
وما تبنيه في دنياك هذي	ستلقاه من الأيام هدم

(١٨٢) القصار: الذي يحور الثياب ويبيضها.

(١٨٣) من هنا إلى: وقال أبو عبيدة، سقط من ش و ز.

* تدمُّ: تسرع. وأمانٍ: جمع أمنيّة.

وجسمك ويك اسرعه انهداما وهل يبقى مع الساعات جسم
ومن تتبعه تابعة المنايا محال أن تبقّي منه رسم
وليتك لم تكن إلا منون يضاعف بينها كرب وغم
ولكن بعدها يوم عصيب طويل الكرب ذكراه تصم
وما تلك الكروب كما عهدنا ولا هي ما يعبر عنه فهم
فلا تغتر بالأسماء جهلا فربت معنيين عليهما اسم
يسمى الكوكب الدري نجما ومنبسط النبات كذاك نجم[184]

وقال أبو عبيدة الناجي رحمه الله: دخلنا على الحسن البصري رحمه الله في يومه الذي مات فيه، فقال: مرحبا بكم وأهلا، وحياكم الله بالسلام، وأحلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم، فلا يكونن حظكم من هذا الأمر أن تسمعوه بهذه الآذان، وتخرجوه من هذه الأفواه، فإن من رأى محمدا ﷺ رآه غاديا ورائحا، لم يضع لبنة[185] على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحى[186] الوحى، النجاء النجاء، علام تعرجون؟ ارتبتم ورب الكعبة، كأنكم والأمر معا، رحم الله امرأً جعل العيش عيشا واحدا، فأكل كسرة، ولبس خِلقا، ولصق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطَيئة، وفر من العقوبة، وطلب الرحمة، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك.

وقال أبو محمد الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة، وخرج فيها داود الطائي رحمه الله، فانتبذ[187] وقعد ناحية وهي تدفن، فجئته فقعدت إليه قريبا منه، فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب.

واعلم يا أخي أن كل شيء شغلك عن الله فهو عليك مشؤوم، وأعلم أن

---

(١٨٤) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(١٨٥) اللبنة: واحدة اللبن بكسر الباء وهو ما يضرب من الطين للبناء.

(١٨٦) الوحى: المبادرة والإسراع.

(١٨٧) انتبذ: اعتزل وتنحى.

أهـل القبـور إنـما يندمون على ما يتركون، ويفرحون بما يقدمون، فما عليه أهل القبور يندمون أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه يتزاحمون.

وقال محمد بن أبي توبة رحمه الله: أقام معروف الكرخي رحمه الله الصلاة ثم قال لي: تقـدم. فقلت: إن صليت لكم هذه الصـلاة لم أصـل لكم غيرها. فقـال لي: أراك تحدث نفسـك أنـك تعيش حتى تصلي صلاة أخرى، أعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويل لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله، عظيم بِطْنَته(١٨٨)، قليل فطنته، عالم بأمر دنياه، جاهل بأمر آخرته.

وقـال العـلاء بن زياد رحمه الله تعالى: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله.

وقال بعض الحكماء: عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت ممن الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة.

وقال بعضهم: أيها الناس إن لكم معالم تستَبِقون إليها، وإن لكم موارد تردون عليها، وإن الجديدين يسيران بكم وإن لم تسيروا، ويسرعان بكم، وإن لم تسرعوا، وإن قصاراكم الموت، وإن بعد الشأو(١٨٩) وامتدت الغاية وطال المدى.

فرحم الله امـر أً أضمـر نفسـه للسبـاق وسـاقهـا إلى الغاية أشد مساق، واستعـد للمـوت قبـل هجـومـه وأخـذ حذره منه قبل قدومه، وأنفد دموعه على ٢٢/أ ما تقدم قبل أن تزل به القدم، ويؤخذ بما علم وبما لم يعلم.

وأنشد بعضهم من كلمة له:

لمن ورقـاء(١٩٠) بالـوادي المـريـع ... تشـب به تبـاريـح الـضـلـوع
على فينـانةٍ(١٩١) خضـراء يصـفـو ... على أعطـافـهـا وشـي الـربـيـع

(١٨٨) البطنة: كثرة الأكل.
(١٨٩) الشأو: الأمد.
(١٩٠) الورقاء: الحمامة يضرب لونها إلى الخضرة.
(١٩١) فينانة: بتسكين الياء: الشجرة الطويلة الحسنة ذات الأغصان الملتفة.

تردد صوت باكية عليها ... رماها الدهر في الأهل الجميع
فشتت شملها وأدال[192] منه ... غراما عاث في قلب صريع
عجبْتُ لها تكلم وهي خرسا ... وتبكي وهي جامدة الدموع
فهمْتُ حديثها وفهمت أني ... من الخسران في أمر شنيع
أتبكي تلك إن فقدت أنيسا ... وتشرب منه بالكأس الفظيع
وها أنا لست أبكي فقد نفسي ... وتضييعي الحياة مع المضيع
ولو أني عقلت اليوم أمري ... لأرسلت المدامع بالنجيع[193]
إلا ياصاح والشكوى ضروب[194] ... وذكر الموت يذهب بالهجوع
لعلك أن تعير أخاك دمعا ... فما في مقلتيه من دموع

وقال بلال بن سعد رحمه الله: يقال لأحدنا تريد أن تموت؟ فيقول: لا فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحا، فيقال له: اعمل. فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل فيؤخر عمل الله تعالى، ولا يؤخر عمل الدنيا.

وقال[195] بعض الحكماء: السعيد من صرف الله أمله إلى ما يبقى، وقطعه عما يفنى، وأعانه في دار الفناء على عمارة دار البقاء.

والويل الطويل والحسرة التي لا تزول لمن أعرض ونأى، ولم ينه نفسه عن الهوى. وإن كان الكل من الله عز وجل فاللوم متوجه على المقصر وقد بدت عليه علامة البعد، وظهرت من أفعاله أمارة الطرد.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: عجبت لثلاثة: لغافل وليس بمغفول عنه، ومؤمل دنيا والموت يطلبه، وبانٍ قصرا والقبر مسكنه.

وقال بعض الحكماء: ما انقضت ساعة من يومك إلا بقطعة من عمرك، ونصيب من جسمك.

---

(١٩٢) أدال منه: نزع وحوّل.
(١٩٣) النجيع: الدم المائل إلى السواد.
(١٩٤) ضروب: أنواع.
(١٩٥) من هنا إلى الطرد سقط من ش و ز.

وقال لقمان لابنه: يابني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك.

وقال الحسن رحمه الله: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقا أشبه بالكذب من قولهم إنا نطلب الجنة مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها.

وقال بعضهم: أيها الناس إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسف عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب[196] ويجمع من هم اللبيب، ويرسل من عبرات[197] الكئيب، فرحم الله امرأً بكى على نفسه، فليس يبكي عليها غيره، ونظر إليها، فليس ينظر إليها سواه.

وأنشدوا:

لبيْكِ على الشبيبة من بكاها ... كما أبكي عليها ملء جفني
ومن يك بات ذا حزن عليها ... فمثلي فليبتْ في فرط حزن
ومن يك ساليا يوما فإني ... قطعت علائق السلوان عني
عجبت لمن يبكي رسم دار ... عفت[198] أبياتها أو سير ظعن
ويترك نفسه يبكي عليها ... وقد جُبلتْ على ضعف ووهن
وقد صاح الحِمام بها أجيبي ... إلام وفيم ويلك ذا التأن
ومن بعد الحِمام له حديث ... يريه من العجائب كل فنّ
حديث ما حديث ما حديث ... يبين له اليقين من التظني[199]
وعمر ينقضي في غير شيء ... ولكن في المحال من التمني
ويعذلني إذا أرسلت دمعا ... على وجنات ذي خسر وغبن

(١٩٦) الأريب: العاقل، الماهر.
(١٩٧) عبرات: دموع.
(١٩٨) عفت: انمحت وزالت.
(١٩٩) التظنى: الظن والشك.

ألا ياصـاح والـبـلوى ضروب   ودَعْـتُـك للذي تهوى فدعـني
إذا أنـا لم أبـك ذهـاب عمـري   فمـن هذا الـذي يبـكـيـه عني

ولعلك أن تقـول: لو أني قصـرت أمـلي كما تريده مني، وقصر ذلك أمله، وذاك أمله، وقصـر النـاس آمـالهم وتـركـوا صناعاتهم وأسباب معيشتهم لخربت الأرض وهلك الناس(٢٠٠) وفسد هذا العالم.

فأقـول: نعم صدقت، لو قصـر النـاس آمالهم بحيث يتركون صناعاتهم والنظر في معيشتهم وعمارة دنياهم، وأجمعوا على ذلك لكان ما قلت، ولكنهم لا يفعلون، وليس بتقصـيرك أنت أملك يقصـر النـاس آمالهم، ولا بزمدك أنت في الدنيا يزهد الناس كلهم فيها، فلا تبك ياهذا ولا تشغل نفسك به، ولا يمنعك ذلـك من تقصـير أملك، ولا من زهدك وإصلاح عملك، وعليك بنفسك فعنها تسأل وبالواجب عليها تطلب.

وليس تقصـيرك أملك بالـذي يمنعـك أن تطلب رزقـك، وإن تشتغـل باصـلاح نفسـك ومعيشتـك وتـربيـة ولدك، إلى غير ذلك من جميع منافعك بل تقـدر أن تجمـع بينهما، وذلك أن تنظر بمعونة الله عز وجل لك وتثبيته إياك، إلى غير ذلك من سبب معيشتك.

فإن كان مما يتكـرر كل يوم عملت فيـه يومـك، وأخـذت منـه قوتك، ولم تعول على أنك تعيش غدا، فإن أصبحت غدا عملت كذلك أيضا.

وكذلك إن كان سببك مما يتم بعد أيام كثيرة، أو يكون مما ينظر فيه السنة كلها كالزراعة وغيرها نظرت فيه على كماله، ولم تعول على أن تدرك إبانه، وأن تبلغ وقتـه وأوانـه، فإن بلغتـه كان الذي أردت، وإن اخترمتك المنية دونه كان ما عملت منه معونة لغيرك، وتسهيلا لمن يأتي من بعدك.

وتقـدر أن تعمـل السبب الـذي يكـون فيـه معيشتـك كما وصفت لك، وتقصر أملك عن تمامه [سواء] كان السبب مما تعمل فيه سنة أو يوما أو أقل.

وكـذلـك سائـر الناس لو كانوا هكذا لما هلكوا، ولا خربت الأرض ولا فسد هذا

(٢٠٠) وهلك الناس: سقط من ز.

العالم كما قلت. لكنه كان يقل فرحهم بالدنيا وسعيهم لها، واغتباطهم بها، وكانوا يتركون تشييد البنيان وتنضيده، وزخرفته وتنجيده[٢٠١]، ويدَعون التأنق في ملابسهم ومراكبهم، إلى غير ذلك من جميع أمورهم، ويجتزئون من الدنيا بما أمكن، ويأخذون منها ما تيسر، ويقتصرون على ما يبلغ، فتقل تبعتهم[٢٠٢]، ويهون حسابهم، ويخرجون من الدنيا خفافا يقدرون على قطع عقبات الآخرة، وسلوك طرقها الضيقة وسبلها الشاقة، ويسهل عليهم الأمر هنالك.

وأما قصر الأمل حتى تترك الصناعات وأسباب المعيشة فإنما يصح في بعض الأشخاص وفي القليل من الناس.

فإنه إن فعل ذلك قام غيره بمؤنته، ونظر له سواه في معيشته، سنة الله ٢٣/أ عز وجل مع المتوكلين، وعادته مع المنقطعين، ويبقى أولئك مع آمالهم والنظر في أعمالهم، فإن الأمل رحمة من الله تعالى تنتظم به أسباب المعاش، وتستحكم به أمور الناس، ويتقوى به الصانع على صناعته، والعابد على عبادته.

وإنما يذم من الأمل ما امتد وطال حتى أنسى العاقبة والمآل وثبط عن صالح الأعمال.

يروى أن الله عز وجل لما مسح ظهر آدم عليه السلام فاستخرج ذريته، قالت الملائكة: رب لا تسعهم الأرض.

قال الله عز وجل: إني جاعل موتا: قالت الملائكة: لا يهنأهم العيش. قال: إني جاعل أملا.

وقال[٢٠٣] الثوري رحمه الله: بلغني أن الانسان خلق أحمق، ولولا ذلك ما هنأه العيش.

ويروى أن عيسى عليه السلام كان جالسا وبين يديه شيخ يعمل بمسحاة[٢٠٤] في أرض له، فنظر إليه وقال: اللهم انزع الأمل من قلبه، فطرح

---

(٢٠١) تنجيد البناء: تزيينه بالفرش.

(٢٠٢) التبعة: المسؤولية.

(٢٠٣) من هنا إلى العيش سقط من ش.

(٢٠٤) المسحاة: ما يسحي به التراب ونحوه كالمجرفة.

الشيخ المسحاة في الأرض وقعد، فقال عيسى عليه السلام: اللهم رد عليه أمله، فقام الشيخ إلى مسحاته ورجع إلى عمله، فدعاه عيسى عليه السلام فقال: أيها الشيخ لم طرحت مسحاتك ثم رجعت إليها؟ فقال: ياروح الله بينما أنا أعمل بمسحاتي إذ قلت في نفسي: وإلى متى هذا العمل؟ وإلى متى هذا التعب؟ ولعل الموت يأتيني في هذه الساعة، فطرحت المسحاة وقعدت، فبينما أنا قاعد إذ تفكرت في نفسي، وقلت: لعل الموت لا يأتيني في هذا الوقت وأنا محتاج إلى قوت يقيمني، وغذاء يمسك بنيتي، ولا بد من العمل فقمت إلى مسحاتي ورجعت إلى عملي.

وقال مطرف بن عبدالله رحمه الله: لو علمت متى أحلي لخشيت ذهاب عقلي، ولكن الله منّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة عنه ما تهنأوا بعيش ولا قامت الأسواق.

وقال الحسن رحمه الله: الغفلة والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم، ولولاهما ما مشى المسلمون(٢٠٥) في الطرق. يريد لو كانوا من التيقظ وقصر الأمل وخوف الموت بحيث لا ينظرون في معايشهم وما يكون سببا لحياتهم، لهلكوا، وكذلك أراد مطرف رحمه الله.

ويروى أن المفضل بن فضالة رحمه الله تعالى سأل ربه أن يرفع عنه الأمل، فاستجاب له، فترك الأكل والشرب، ولم تستقم له عبادة، فدعا ربه أن يرد عليه أمله، فردّه عليه، فرجع إلى طعامه وشرابه.

وقال ابن المهدي رحمه الله: من قوى أمله قل عمله، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله غير أنه لا بد من أمنية وأمل تحيا بهما النفس ويقوي بهما القلب وتعمر بهما الدنيا.

وقال سعيد بن عبدالرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها يريد أنهم بقلة عقولهم انصرفت هممهم عن الآخرة، وأقبلت على الدنيا فعمروها واشتغلوا بها.

وأنشدوا:

---

(٢٠٥) في ش الناس.

خذ من الآمال ما احتجت إليه ففضول المرء محسوب عليه[٢٠٦]
كان مالا أو كلاما أو هوى أو فآمال مشت بين يديه
ولدنياك فويهٌ[٢٠٧] شبم وقديما ذ اقنا ذاك الفويه
ولأخراك وإن طال المدى موقف يسلك إحدى جهتيه
وإذا لم تك أعددت له نلت ما تكرهه من عدتيه
وصروف الدهر تخبر قبل ذا بأمور ركبت في طيتيه
ورأى الإنسان طرفا لهما فمضى يعمل فيه صفتيه
وإلى كم أنت في سكر الهوى وإلى كم أنت مأسور لديه
وكلا الدارين تحتاج له ويمين المرء أقوى عضديه
فلتبادر ما هو الأولى بمن صرفت عامله الريح لديه
ورآه الموت فانقض له كعقاب خر من جو عليه

واعلم رحمك الله أن تقصير الأمل مع حب الدنيا متعذر وانتظار الموت مع الإكباب عليها غير متيسر، فإن حب الدنيا **٢٣/ب** هو سبب طول الأمل فيها، والإكباب عليها يمنع من الفكرة في الخروج منها، والجهل بغوائلها وعواقبها يحمل على الإرادة لها والازدياد منها. لأن من أحب شيئا أحب الكون معه والازدياد منه، ومن كان مشغوفا بالدنيا محبا لها حريصا عليها، قد خدعته بزخرفها، وأمالته برونقها وسحرته بزينتها كيف يريد مفارقتها؟ أم كيف يحب مزايلتها[٢٠٨]؟ هذا أمر لم تجر العادة به ولا حدثنا عنه. بل[٢٠٩] تجد من كان على هذه الصفة أعمى عن طريق الخير أصم عن داعي الرشد، قليل الرأي، سيء النظر، ضعيف الإيمان، لم تترك له الدنيا ما يسمع به ولا ما يرى الحقائق بواسطته، إنما دينه وشغله وحديثه دنياه، لها ينظر ولها يسمع، ولها يعطي ولها يأخذ قد ملأت عينه وقلبه وأذنه.

---

(٢٠٦) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(٢٠٧) فويه شبم: فم جائع.

(٢٠٨) مزايلتها: تركها.

(٢٠٩) من هنا إلى: قد ملأت، سقط من ش.

كما قال القائل:

ملأتْ قلْبَه غرورا وفتنه — وأصمّت عن الحقيقة أذنه
ورمت عينه ببرقة سحر — طمستها فما يرى ما أجنّه[210]
لم تدع فيه مطمعا لسواها — فهواها لديه فرض وسنة
أي خداعة تعلق منها — إنها إنها وإنه إنه
فأطّرِحْها فما إخالك إلا — مثله فالكلام شعر وجنة

فتجده قد طول أمله ومد المسافة بين يديه، فإن كان شابا قال أنا صغير والأيام بين يدي، وأين حتى أبلغ ستين سنة أو سبعين سنة؟ وأنا محتاج إلى الزوجة، والزوجة تحتاج إلى كذا وكذا، وإذا كانت الزوجة كان الولد وكانت البنت، واحتاج الولد إلى كذا وكذا، واحتاجت البنت أيضا إلى كذا وكذا، وهذا كله إنما يكون بالمال، وإن لم يكن لي مال لم أصل إلى مرغوب، ولم أظفر بمطلوب، وإن قعدت عن الطلب احتجت إلى الناس، فإذا احتجت إلى الناس احتقرت واستخف بي وجهل قدري كما قال القائل:

والمرء لا يصغر مقداره — إلا إذا احتاج إلى الناس

وترى فلانا قد اكتسب وجمع، وتزوج وتمتع، وظفر بالمراد، ووصل إلى ما أراد، وفلان كذلك.

ولا يقول ترى فلانا كان شابا مثلي، وأراد ما أردت وسعى فيما سعيت، فمات قبل أن يصل إلى إرادته، واختطف قبل أن يحصل على مطلبه.

ولا يقول ترى فلانا طلب واجتهد، فلما اجتمع له ما اجتمع، سرق منه أو اعتدى عليه فاغتصب أو عطب[211] في رجوعه إلى بلده وانصرافه إلى وطنه، فمات في عطبته، وهلك في نكبته.

أو ترى فلانا خرج محزونا مسلوبا فقيرا حسيرا[212].

---

(٢١٠) أجنّه: ستره وغطاه.

(٢١١) عطب: انكسر، هلك.

(٢١٢) الحسير: الضعيف، المتعب.

وترى فلانا كذلك، وفلانا كذلك.

إنما يعرض على نفسه، ويجري على خاطره من بلغ إلى إرادته ووصل إلى أمنيته، لأن ذلك هو الذي غلب على قلبه، وشغف بحديثه، فتراه يسعى ويرغب، ويحرص ويطلب، ويزفر ويكد في حدور[213] وصعود، وطلوع وهبوط، آناء الليل وآناء النهار، ولا يقرُّ به قرار، ولا تضمه في أكثر الأوقات دار، وكلما فرغ من شغل أخذ في آخر، مما يحتاج إليه، بل لا يفرغ من شغل إلا وقد عرضت له أشغال، ولا يصل إلى أمل إلا انبعث له آمال.

فيمني نفسه بالأماني الباطلة، ويحدثها بالأحاديث الكاذبة.

فإن وصل إلى حظ من المال ٢٤/أ ونصيب وافر من الكسب مما يمكن أن يعيش به عمره كله، أو طعن في السن وقيل له يافلان أرح نفسك ودع جسمك فهذا الذي عندك يكفيك، قال يا أخي لا تقل هذا،الليل والنهار بين يدي، ولا يكفيهما قليل، ولن يدوما على أحد إلا أذهبا ما في يده، وأخذا ما كان عنده. ولا يدري ما يكون، والآفات كثيرة، والآمراض متوقعة، والحاجة إلى الناس صعبة لاسيّما مع الكبر، ولا سيما إن كان الأهل والولد.

فيقيم العذر لنفسه، ويطلب لها الحجة، ويوجد لها الدليل، ويصحح لها بزعمه التأويل.

فإن ذكِّر بالموت أو حُدِّث بموت إنسان، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله إني لفي غفلة، والله إني لفي غرور، والله إن هذه لمصيبة، لايدري الانسان متى يخترم[214] ولا متى يختطف، ولا متى تفجؤه المنية، وتحل به هذه الرزية، وتنزل به هذه المصيبة.

هكذا قولا بلا فعل، وكلاما بلا نية، ولو كان عن صدق نية وصحة[215] طوية لظهر ذلك عليه، وبدت مخايله[216] منه.

---

(٢١٣) حدور: نزول.

(٢١٤) يخترم: يهلك، يموت.

(٢١٥) طوية: نية، ضمير.

(٢١٦) مخايله: علاماته.

وربما وعد نفسه ومناها وطمعها في التوبة، ورجاها، وقال: لو جئت من هذه السفرة، أو لو بنيت هذه الدار، أو لو جمعت ما كان لي متفرقا، أو لو جهزت هذه البنت أو هذا الولد، وأدخلته بيته ونظرت له فيما يعيش به، لتفرغت للنظر لنفسي، وقدمت ما أجده في رمسي، وكنت من داري إلى مسجدي، ومن مسجدي إلى داري، ولا أنظر في شيء ولا اشتغل في شيء.

فإن جاء من سفرته تجهز لغيرها، وإن فرغ من بنيان داره نظر فيما يصلح لها، وإن جمع ماله نظر في تفريقه في الوجه الذي ينميه ويزيد فيه، وإن جهز ولدا بقي له آخر، وإن لم يكن له آخر قال ما تريد؟ تريد أن آكل ما عندي وأرجع إلى ولدي حتى يطعمني ويكسوني ويعولني؟ لا يكون هذا أبدا، الموت في القفار ولجج البحار أهون علي من هذا، فهو هكذا أبدا لا مع المال ولا دون المال، ولا مع الولد ولا دون الولد.

يحدث الناس عن الأموات ولا يحدث نفسه أنه يموت ويشيع جنائزهم ولا يتخيل أن جنازته تشيع، ويقدر لنفسه العيش الطويل ولا يقدر لها الموت القريب. قد غلب عليه السهو وأطبقه الجهل، وسدت عليه الغفلة طرق الإنابة، وصرفته عن أسباب الفكرة.

كم رأى من إنسان قد أعد ثوبا ليلبسه فكان كفنه، وكم رأى ممن يبني دارا ليسكنها فكانت قبره، وكم رأى من آخر كان يحب الولد ويشتهيه، ويتضرع إلى الله عز وجل ويرغب إليه فيه، فلما أُعطِيه ومُنّ عليه بن جمع عليه الرجال وأنفق عليه الأموال وقال العقيقة سنة، والنفقة فيها حسنة، وربما كانت إلى الاسراف أقرب وإلى التبذير أميل، وربما كانت نفقته سببا للمناكر، وسُلّما لبعض المعاصي على روية منه ومشاهدة لذلك، كما جرت العادة في الأعراس والولائم والاجتماعات، فيجعل الإسراف شكرا لتلك النعمة، والمعصية جزاء لتلك المنة.

ولعل الولد يموت بعد ذلك بأيام، أو بأشهر أو بأعوام أو يعيش فيرى فيه من الأمراض ٢٤ /ب والأسقام وأنواع الابتلاء والامتحان ما يود معه أنه هو لم يكن، فكيف ولده، هذا أمر مشاهد في العيان موجود بالبرهان، ولعله إن شب

وبلغ فيه الأمل ورأى له من العمر ذاك الذي كان أمل، صار له أعدى الأعداء وكــان منــه أبعـد البعـداء، كما قد سمـع بجـماعـة قتلهم أولادهم ليستعجلوا ميراثهم، أو ليصير لهم الملك بعدهم. ونعوذ بالله من أمر لا يستخار الله فيه، ولا يردّ إليه عند تمنيه.

وكـذلـك إن كان صاحب تجارة في سوقـه، وملتـزمـا في دكـانه إنما هو من الحانوت إلى الدار، ومن الدار إلى الحانوت، ومن الصباح إلى المصباح، ومن البكرة إلى آخر الرواح.

وإن كان ممن يصلي في المسجد ويكثر التعاهد له قل ما يخلو فيه مع ربه، ويتنصـل من ذنبـه، إنـما هو في الحديث مع فلان والضحك مع فلان، والسؤال عن أحوال الإخوان، وما جرى في البلدان، وما اتفق في القديم من الأزمان.

وربما أخرجه ذلك إلى الغيبة[٢١٧] وكثير من البهتان.

وكذلك صاحب الصنعة والضعيف من الحرفة إنما هو في كدّ وعناء وتعب وشقـاء ونصب[٢١٨] وبـلاء، وكـدّه وجهـده ولذته وأمنيته أن يكسو ظهره ويشبع بطنـه، أو يقـوم على عيـال أو يغـدو على أطفـال، مع شكـايته لربه، وتسخطه لحكمه، وتبرم بقضائه وقلة صبره على بلائه، ولا يحدث نفسه بموت، ولا يخطر ببـالـه زوال. ولعله إن ذكـر المـوت إنـما يذكـره متمنيا له ليريحه من ذلك العذاب العاجل الذي عذب به، وذلك البلاء النازل الذي نزل عليه. قد شغله مالقي في الحال عن النظر في المآل وعن التزود من صالح الأعمال، فلا هو من أبناء الدنيا المنعمـين ولا من طلابهـا المـدركـين، ولا مع الصـابـرين الـراضـين الحـامـدين الشـاكـرين ولا يزال كل واحـد من هؤلاء على حاله مواظبا، ولما هو فيه ملازما، حتى يمـوت على ما هو عليـه، ثم يبقى في الـبرزخ[٢١٩] على ما كان عليه، ثم يبعث على ما بقي عليـه في الـبرزخ، أو تتغمده الرحمة، وتغشاه المنة، فيستنقذه ربـه تعـالى من هذه الغمـرات ويأخـذ بيـده من هذه الهلكـات، ويجعل له نورا

---

(٢١٧) الغيبه: في ز الغيبة والنميمة.

(٢١٨) النصب: التعب.

(٢١٩) البرزخ: المدة التي تفصل بين الموت والقيامة.

يمشي به في الظلمات على ما يرجى من منته وفضله، لا رب غيره ولا معبود سواء.

وربما كان الرجل مبخوتا من أول عمره إلى آخره، فيولد في نعمة ويتربى في نعمة، وينشأ في نعمة، تمد عليه ظلالها وتطول من خلفه أذيالها، ويجدد عليه في كل حين إسعادها وإقبالها قد صار لوالديه دينا ودنيا، فله يقومان وله يقعدان، ولـه يهتـمان ولـه يجمعان، وبعينيه ينظران وبأذنيه يسمعان ثم يموتان ويسلمان له تلك النعمة بكمالها، ويتركانها له على حالها، لم يسمع له فيها أنين، ولا عرق له فيهـا جبـين، فيبقى هو على ما كان عليـه، يمـد في تلك النعمة يديه ورجليه، ويفتـح لها عينيـه وأذنيـه، فما شاء من لذة نال في الحال، وأخرى تنتظر في المآل، كلما نال لذة سعى في الأخـرى ٢٥ / أ وكلما وصـل إلى مطلوب نظـر في غيره. لم يصحب إلا شكله، ولا يسمـع إلا قولـه، ولا رأى إلا عمله وفعله، فإن ذُكّـر بالتوبة أو خُوّف بالموت قال دعنا من هذا وحدثنا في غير هذا. هذه سنوات الصبا وأيام الشباب ومنازل اللذات ومرتع الأحباب.

كما قال القائل فيه وفي أمثاله:

نال أمـوراً خاب من نالهـا	ثم سعـى يطـلب أمثـالهـا
وواقَـعَ الـذنـب فما هالـه	والبـاذخـات الـشم قد هالهـا
وقـال هذي سنـوات الـصبـا	فاسـحـب على رسلك أذيـالهـا
وقـم إلـى خاتـم جريـالهـا	فَفـضَّـه واستـفّ جريـالهـا[٢٢٠]
ومـن يقـل في شأنـنـا قولـة	فخـلهـا في فم من قالهـا
أمـا ترى الـقـضـبـان ميـالـة	فامـدد على رأسـك ميـالهـا
ومـر يستـهـتر في عصـبـة	من شكـلِه تصـحـب أشكـالهـا
أوْلـى له ثمـت أوْلـى له	وتـلكـم الـعـصـبـة أوْلـى لها
يا ويحـه[٢٢١] من غافـل يا له	وتـلكـم يا ويحـهـا يا لها

(٢٢٠) الجريال: الخمر. وهذا البيت سقط من ز.

(٢٢١) ويحه: في ز ويله.

وأما أكثر الشباب فيقول: إذا كبرت تبت، والطلق[222] ممتد، والميدان عريض، ولا يرى هذا البائس أنه قد شيع إلى الآخرة من كان أصغر منه سنا، وأحدث منه بالرحم عهدا، قد غرته الشبيبة وخدعته الصحة، وتمكنت منه الغرة بما عنده من الثروة والقوة.

يقول: أنا صحيح ومتى أمرض ومتى أموت؟ ولا يرى المسكين أن الموت في الشباب أكثر، وحادثه إليهم فيه أسرع، وأن الذي يموت في الهرم قليل، وأن الانسان يموت بغتة، وإن لم يمت بغتة مرض بغتة ثم مات. كما يروى أن الحسن قيل له: إن فلانا مات بغتة، فقال: ما تعجّبكم من ذلك؟ إنه لو لم يمت بغتة لمرض بغتة ثم مات، أما يعلم هذا المسكين[223] المغرور أن الأرض كلها مكان للموت، وأن الزمان كله وقت للموت، لا يختص من الأرض بمكان دون مكان، ولا من الزمان بوقت دون وقت، فلا يزال هذا المغرور منكبا على شهوته، مثابرا على لذته، غافلا عن يوم صرعته حتى يؤخذ بما تأخر وما تقدم، ويلقى صريعا لليدين والفم، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[224]، تبكيه بواك طال ما من حبها أضحكته، وتندبه نوادب طال ما قبل ذلك غنته.

وفي مثل ذلك قيل:

تندبه نادبة طال ما غنّتْه من قبل وغَنّىً لها
ولم يكن يخطر ذا باله ولم تكن تخطر ذا بالها

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف يقصر مع هذه الأحوال أمل، أويستقيم معها عمل؟ أوكيف يطمع مع هذه الموانع أن يخرج حب الدنيا من القلب أويقطع علائقها عن النفس، أو يخطر بالخاطر ذكر الموت؟ كلا.

حب الدنيا في القلب أرسخ، وإخراجها منه أصعب، والنفس إليها أميل

---

(٢٢٢) الطلق: الشوط، الانطلاق وعدم التقييد، الحبل.

(٢٢٣) المسكين سقطت من ش وز.

(٢٢٤) إلى حيث القت رحلها أم قشعم: هذه العبارة سقطت من «ش» و «ز» و «ل».

وهي بها أشغف، وفي طلبها أهلك وأتلف، وعن طريق الرشد أبعد وأصرف.

وإن حب الدنيا لهو الداء العضال الذي أهلك الرجال، وأفسد كثيرا من الأعمال، إلا أن تأتي العناية الإلهية والشفاعة الربانية، فتصرف الانسان إلى النظر الصحيح، وتحمله على الطريق المستقيم، فيرى بعين الحقيقة وصحيح البصيرة أنه لابد من الموت وإن طال المدى وامتد الطلق وبعدت الغاية وأنه يدفن تحت أطباق الثرى، ويرمي به في ظلمات الأرض، ويسلط الدود على جسده، والهوام على بدنه، فتأخذه من قرنه إلى قدمه ٢٥/ب وقد عدم الطبيب، وأسلمه القريب، وتركه الولي والحبيب، وعرض عليه عذاب السعير، وأتاه منكر ونكير، ولم يجد هنالك أنيسا إلا عمله، ولا صاحبا إلا فعله الذي فعله. كما قال القائل:

اسلمني الأهل ببطن الثرى	وانصرفوا عني فيا وحشتا
وغادروني معدما يائسا	ما بيدي اليوم إلا البكا
وكل ما كان كأن لم يكن	وكان ما حاذرته قد أتى
وذاكم المجموع والمقتنى	قد صار في كفي مثل الهبا[٢٢٥]
ولم أجد لي مؤنسا هاهنا	غير فجور كان لي أو تقى
فلو تراني أو ترى حالتي	بكيت لي ياصاح[٢٢٦] مما ترى

وأما الدنيا فينظر إليها، فإن كان ملكا نظر إلى من تقدمه من الملوك، وما فعل الدهر بهم، كيف فرق جموعهم وشتت جميعهم، واقفرت منهم قصورهم، وعمرت بهم حفرهم وقبورهم.

وينظر إلى أيام ملكه هل يخلو من عدو يكابده، أو منازع يكايده أو قتال يكافحه، أو مرض يهجم عليه، أو خلط سوء يثور معه.

وأنه كما قيل تمرة بجمرة، إن نال لذة تجرّع بعدها غصة، وإن أتته فرحة غشيته في أثرها ترحة[٢٢٧]، بل ربما كانت الترحات أكثر من الفرحات، والداهية

---

(٢٢٥) الهبا: الهباء ما يرى سابحا في الشمس إذا دخلت البيت من كوة.

(٢٢٦) يا صاح: أي يا صاحبي ويسمى هذا في النحو الترخيم وهو حذف آخر الاسم المنادى.

(٢٢٧) ترحة: حزن، هم، فقر.

أكثر من العافية، وكلما عظم ملكه عظمت همته، وامتد أمله، وأراد ما لا يمكن، وطلب مالا يجد، وقد يأتيه النكد من حيث لا يظن، ويدخل معه الهم من حيث لا يحتسب، ولو من جارية يحبها، أو امرأة يشغف بها فيجعلها قبلته، ويصفي لها مودته، ويخلص لها محبته، ويريد منها مثل ذلك، والقلوب قد تتنافر، والمزاج ربما يختلف، والطباع قد لا تتفق، فيرى منها خلاف الذي يريد ويجد عندها غير الذي يطلب، ولا يقدر على معاقبتها، لأنه إن عاقبها إنما يعاقب نفسه، وإن آلمها إنما يؤلم قلبه، فتجده يتحمل منها مالا يتحمل من بعض رعيته، فبينما هو ملك إذ قد صار مملوكا، وبينما هو رئيس إذ قد عاد مرؤوسا.

كما قد سمع وتحقق عن بعض الملوك، حتى قال أمير المؤمنين هارون الرشيد، وقصته مشهورة:

ملك الثلاث الآنسات عناني[٢٢٨] وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

وقد تكون صادقة في محبتها، مخلصة في مودتها، فيتهمها في ودادها، ولا يصدقها في إخلاصها لشدة كلفه[٢٢٩] بها، وفرط محبته لها، لأنه يتخيل أن عيشه لا يطيب، وسروره لا يتم، وفرحه لا يكون إلا بأن تخلص له المودة من قلبها، وتحبه من ذات نفسها، وقد تكون له كما يريد، فيخلع عنانه معها، ويستوي سروره بها، فيصاب فيها بمرض، أو يفجع فيها بموت، فيعود الفرح حزنا، والسرور همّا.

كما يروى في قصة يزيد بن عبدالملك أمير المؤمنين أنه كان مشغوفا بجارية يقال لها حبابة، وكانت قد ملأت قلبه، وأطاشت عقله، وأذهبت لبه، ونزلت من نفسه حيث أرادت، وحلت منه ٢٦/أ بالمحل الذي شاءت، وكان قد نزل منها بالمكان الذي نزلت منه.

---

(٢٢٨) العنان: اللجام والمراد أنهن تحكّمن فيه كما يتحكم الفارس بالفرس عندما يمسك لجامه.
(٢٢٩) الكلف: التعلق والحب الشديد.

فقال يوما لحاجبه: لا تأذن اليوم عليّ لأحد، ولا تخبرني بخبر ولو كان فيه ذهاب ملكي.

وخلا بجاريته تلك في مجلس أنسه ومكان سروره، ومعه من الدنيا ما يكون مع مثله، فبينما هما على ما اشتهيا إذ أخذت حبة رمان فأدخلتها في فيها، فشرقت بها، فتخبطت حتى خرجت روحها بين يديه.

فلا تسأل عن حال يزيد وما طرأ عليه وما حل به، فقد الصبر والعقل، وتولّه وتحيّر وتدلّه، وأكثر الصراخ والبكاء والصياح، والعجيج والضجيج. ومنع من دفنها، وصد عن مواراتها، وأقامت على ذلك الحال أياما حتى تغيرت وأنتنت.

فاجتمع إليه بنو أمية وعزوه فيها وصبّروه عنها، وسألوه في دفنها، وقالوا له يا أمير المؤمنين هذه فضيحة بنا وسبّة[٢٣٠] علينا، وأي فائدة لك في تركها؟ وكم عسى أن تبقى على هذه الحالة؟ وكم عسى أن تدوم على هذه الصفة؟ فلم يزالوا به حتى كلمه النساء ممن يكرم عليه من أهله وسراريه، إلى أن أمر بدفنها، وخرج في جنازتها على رجليه.

فلما دفنت تمثل على قبرها ببيتين لكثيّر:

وإن تسْلُ عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل ... من اجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم أخرجها من قبرها بعد شهر، وجعل يعانقها ويقبلها، فاجتمع عليه أهله وبنو عمه من بني أمية، وقالوا له: ما هذا يا أمير المؤمنين؟! والله لئن سمع بهذا لتخلعن من ملكك، ولينقضنّ عليك أمرك، وليقومن في مقامك هذا غيرك، فأقصر عن هذا الهيمان وسكن من ذلك الهيجان ثم لم يزل واجدا عليها محزونا بموتها إلى أن مات ولم يعش بعدها إلا يسيرا، وكذلك غيره وغيره، ويروى أنه ما عاش من بعدها إلا تسعة أيام أو نحوها.

---

(٢٣٠) سبّة: عار.

ويروى[٢٣١] أن الهادي أمير المؤمنين كان له جارية تسمى غادر، وكانت أحظى من عنده وأغلبهم على قلبه، وأملكهم لنفسه، وكانت من أحسن الناس وجها وأطيبهم غناء، كان إبراهيم الموصلي هو الذي ربّاها وأدبها وعلمها وباعها بعشرة آلاف دينار.

فبينما الهادي يوما يشرب مع ندمائه، وهي تغنيهم من وراء الستارة، إذ عرض له فكر وسهو وتغيّر لون، وقطع الشراب فقال له ندماؤه: مالك يا أمير المؤمنين؟ قال: وقع في فكري أني أموت، وأن أخي هارون يلي الخلافة بعدي ويتزوج جاريتي غادر هذه، فقالوا له: نعيذك بالله يا أمير المؤمنين، ويطيل الله بقاءك، ونتقدم نحن وهو بين يديك ونموت قبلك، فقال لهم: ليس هذا مما يزيل ما في نفسي، ثم أمر أن يؤتى برأس هارون، ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره، فعرّفه بما خطر بباله، فاستعطفه هارون وجعل يكلمه بما يوجب زوال مافي نفسه، ويخضع له ويتذلل، فلم يقنع بذلك، وقال: لا أرضى حتى تحلف لي بكل ما أحلفك به، أني إذا مت لم تتزوج جاريتي هذه غادر، قال: افعل. فأحلفه بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحج راجلا وغير ذلك من الأيمان المؤكدة أنه لا يتزوجها أبدا، فحلف له بجميع ذلك، فرضي وسكن ذلك الخاطر عنه.

ثم قام إلى الجارية، ودخل عليها الستر، فأحلفها بالأيمان المؤكدة من الحج والعتق والصدقة، وما يحلف به النساء أنها لا تتزوجه أبدا، قال: فلم يلبث بعدها إلا شهرا أو نحوه حتى مات.

وولي هارون الخلافة بعده، فلما ولي بعث إلى الجارية فخطبها، فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف بأيماني وأيمانك؟ قال: اكفر عن أيماني وأيمانك وأحج راجلا، ففعل، وتزوجها، فوقعت من قلبه ألطف موقع، وشغف بها أشد من شغف أخيه الهادي، حتى كانت تسكر وتنام في حجره، فلا يتحرك ولا ينقلب حتى تنتبه.

فبينما هي ليلة نائمة في حجره إذ انتبهت فزعة مرعوبة، فقال لها: مالك

---

(٢٣١) من هنا انفردت به نسخة ل.

فديتك؟ فقالت له: رأيت أخاك الهادي الساعة في النوم، فأنشدني:

أخلفت وعدي بعد ما ... جاورت سكان المقابر
ونسيتني وحنثت في ... أيمانك الكذب الفواجر
وحلَلْتِ في أهل البلى ... وغدوتِ في الحور الغرائر
ونكحت غادرة أخي ... صدق الذي سماك غادر
لا يهنك الإلف الجديـ ... ـد ولا تدُرْ عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا ... ح وصرتِ حيث غدوت صائر

قالت: ثم ولّى عني، ولكأنها مكتوبة في قلبي، ما نسيت منها كلمة.

فقال لها هارون: هذه أحلام الشيطان، فقالت: كلا والله يا أمير المؤمنين، ثم اضطربت بين يديه، وتخبطت حتى خرجت روحها تلك الساعة.

ولا تسل عن هارون وما لقي عليها.

وكذلك إن لم يكن ملكا وكان وزيرا أو غيرذلك من أصناف الناس، وصفاتهم في تقلب الدنيا بهم معلومة، وأحوالهم فيها مشهورة وكل واحد منا يعلم هذا من نفسه، ويراه من غيره.

وانه ليس من إنسان إلا وله شرب من الكدر، ونصيب من الهمّ، يقل عند إنسان ويكثر عند آخر. فإذا أخذ نفسه بهذه الأفكار، وعرض عليها هذا الاعتبار أعرض عن الدنيا ولم يلتفت إليها ولا شغل نفسه بها، وتذكر الموت وخاف فجأته ولم يأمن بغتته، ولم يسمع إلا وجبته، ولا رأى إلا صدمته وصرعته، والله تعالى ولي التوفيق بفضله وطوْله، لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأنشدوا:

سجعت هذه الحمامة سجعا ... فتذكرت أنت إلفا وربعا
لا لشيء إلا لأنك ناسٍ ... مصرعا قد تقدمت فيه صرعى
وحديثا من بعده وحديثا ... وحديثا يُجري فؤادك دمعا
ياجهولا وغافلا وظلوما ... كل هذي جمعن عندك جمعا
ما لآمالي انتجعت سناها ... حيث لاحت بروقها حيث تسعى

خلّب أبْردُ المناهل ماء مهمل أجذب المراتع مرعى
شغلت نفسك اللجوج وأعمت منك عينا وأثقلت منك سمعا
فتخطيت بالدواء أُساةً لم يروا للدواء عندك نجعا
ومحال بأن يرى فيك شحم لانتجاع وانت جسمك ترعى(٢٣٢)

واعلم رحمك الله انه من كان منتظرا لعقاب أن ينزل به من أمير بلدته أو عظيم قريته، فإنه لا يزال متألم القلب مشغول النفس، وبحسب النوع الذي يخاف من العقاب يكون ألم قلبه وشغل نفسه.

فإنه من توعّده الأمير بأن يضربه مائة سوط، فإنه أشغل سرا ممن توعده أن يضربه عشرة أسواط، ومن توعده ان يقطع جارحة من جوارحه كان أكثر توجعا ممن توعده بأن يضربه مائة سوط، ومن توعده بأن يضرب عنقه كان أشد خوفا ممن توعده بأن يقطع بعض جوارحه، وكذلك من توعده بأن يجعل عليه أنواع العذاب ويعاقبه بضروب من العقاب حتى يموت تحتها وتخرج نفسه بها، كان أعظم جزعا ممن توعده بضرب عنقه. هذا هو المتعارف.

فإن وجد إنسان يختار تطويل العذاب ويهون عليه(٢٣٣) رغبة منه في ٢٦/ب الحياة ما بين موته بالعذاب وسرعة موته بالسيف فهذا رجل قد غلب عليه الجزع، وملك قلبه الهلع، فأطاش لبه وأزال عقله، حتى منعه من حسن النظر وأوقعه في سيء الاختيار.

وما منا أحد إلا وقد توعد بالقتل، لأن الموت قتل في الباطن، ألا ترى أنه يقال قتل فلان فلانا، فيقال بم قتله؟ فيقال: بسيف أو بسكين أو بخنجر أو خنقه أو غرقه أو بغير ذلك من أنواع القتل، والموت كالخنق، فهو إذن قتلة من القتلات، وإنما جرت العادة بأن يقال: قتل فلان، إذا قتله مخلوق، وقد يقال قتل الله فلانا وهو قد مات من علة أو مات بغتة، ولم يكن لمخلوق في ذلك فعل.

فقد بان لك اذن أن كل واحد منا ينتظر القتل، ولا فرق بين أن يثب عليك إنسان بسيف أو بسكين أو خنجر أو بغير ذلك، فيقتلك، أو يثب عليك

---

(٢٣٢) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(٢٣٣) ويهون عليه: سقطت من ز و ش.

ملك الموت فيقبض روحك.

فلو كشف للناس عن أبصارهم فرأوه حين يثب عليك، وشاهدوه في الباطن حين يأخذ روحك، لما كان بينه وبين إنسان يقتلك - في الظاهر - فرق، إلا أن الانسان يحتاج إلى آلة يقتل بها من سيف أوسكين أوغيرذلك، والملك لا يحتاج إلى شيء من ذلك.

فإن أخذك إنسان وروّعك[٢٣٤] وحبسك للقتل وهددك ثم قتلك، فاجعل ذلك الألم الذي تجده من حبسه وترويعه وتهديده، كالذي يصيبك من المرض أو مما كان من العلل قبل الموت، ثم تموت.

ومعلوم أن من الأمراض ما يقوم ألمه مقام التهديد، والوعيد، بل منها ما هو أشد وأشق، كوجع الاحتقان، ووجع الحصى وغيرهما، وقد شوهد من الناس من مات من وجع الحصى ووجع الاحتقان.

وليس القتل الذي هو الضرب بشيء على يد مخلوق، ولا ما يكون على يد غير المخلوق، كالهدم والغرق والحرق وغير ذلك مما يزيد في شدة الموت، ويكثر من ألمه ووجعه، لأن هذه كلها أسباب للموت، والموت شيء آخر، وهو أمر إلهي ينزل بالروح لا يعلم حقيقته إلا الذي ينزل به.

قال أبو حامد[٢٣٥] - رحمه الله -: اعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها على الحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس على الآلام التي أدركها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ماهم فيه. فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه لا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح أحسّ، فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر[٢٣٦] إلى الروح، فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الأثر، فإن كان في الألم ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشده.

---

(٢٣٤) روّعك: خوّفك.

(٢٣٥) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦١ الباب الثالث في سكرات الموت وشدته.

(٢٣٦) الأثر: في ش و ز الألم.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ٢٧ /أ وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحرق ظاهرا ولا باطنا إلا وتصيبه النار، فيحسّ به في الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة فإنها تصيب الموضع الذي يمسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار.

فألم النزع يهجم على نفس الروح فيستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع والمجذوب من كل عرق من العروق، وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء، ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من القرن إلى القدم.

فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا إن الموت أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوة في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه وكربه، لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه شدة ألمه وغلب على كل موضع منه، فهد كل جزء، وأضعف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة.

أما العقل فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد أضعفها.

ويود أن لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك. فإن بقيت فيه قوة سمِعْت له عند نزع الروح وجذبه خوارا وغرغرة من حلقه وصدره. وقد تغير لونه وأربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل خلقته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى جفونه، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع

الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضرّ أنامله.

فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم، وليس هو من عرق واحد بل من العروق كلها.

ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا، فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، وينغلق دونه باب التوبة، وتحيط به الندامة والحسرة.

ويروى(٢٣٧) أن العبد يقول لملك الموت عند الموت: يا ملك الموت اخرني يوما استعتب فيه وأتوب إلى ربي وأعمل صالحا، فيقول له: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فتبلغ الروح الحلقوم، فيؤخذ بكظمه عند الغرغرة، فيغلق باب التوبة دونه ويحجب عنها، وتنقطع الأعمال وتطوى الصحف وتتم الأوقات، ويبقي عدد الأنفاس يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحد بصره، فإذا كان في آخر نفس يدركه ما سبق له من السعادة، فتخرج روحه على الإيمان، فذلك حسن الخاتمة، أو يدركه ما سبق له من الشقاوة، فتخرج روحه على الكفر أو الشك، وذلك سوء الخاتمة، ونعوذ بالله ثم نعوذ بالله.

٢٧/ب وأنشد بعضهم:

كأني بنفسي على ضعفها ... تجرَّعُ رغْما كؤوس الردى
وقد كشف الله عنها الغطا ... فحنت هناك لكشف الغطا
ومُدّتْ إليها يد فظة ... لفظّ غليظٍ شديد القوى
فما شئت من نَفَس ضيق ... وجذب عروق وقطع الحشا
ونفْس تساق أشد مساق ... فتضغط في لهوات الفتى
ولا دافع يرتجى دفعه ... ولا قائل ما به يفتدى
ومالي انتصار ولا لي قرار ... ومالي من حيلة ترتجى

(٢٣٧) من هنا إلى: ثم نعوذ بالله، انفردت به نسخة «ل».

فدعـــني ويـــومـــي أبـــكـــي لـه فحــق ليـــومــي بطــول الــبـكــا

وأنشدوا أيضا:

يا ندمـا أنـدمـه نيس في ذلـك من ريـب ولا شك

إذا أرسـي المـوت على لبـتي[238] وحـال بين الـفـك والـفـك

ولم يكـن لي عنـه من مخلص ولم أكـن عنـه بمـنـفـك

وحشـرجت نفسي في صدرهـا كأنهـا تمخض في مَسْـك[239]

وكـل ما تدريـه من نخـوة في ومـن عجـب ومـن فتـك

قد عاد ذاكـم كله ذلـة يظـل منهـا شامِـتي يبـكـي

وذاكـم المـال الـذي كنـت قد جمعـتـه من زور ومـن إفـك

قد حيـل مابـيـني ومـابـيـنـه وزال عن حكـمـي وعـن ملكـي

غير تبـعـات تحمـلتـهـا تكـثـر من همي ومـن معـكـي[240]

فكـيـف لا أنـدم أو كيف لا ملء جفـوني بدم أبـكـي

فيـا إلهـي والـذي جوده سال لذي الاخـلاص والـشـك

رحمـاك في واهـي الـقـوى بائس في عيـشـه من حالـة ضنـك

قد حجـبـتـه عنـك آثـامـه ورد عن بابـك بالـصـك

إن لم ينـلـه عفـوك المـرتجـى وتحـتـويـه سعـة المـلـك

فاعـف إلهـي عنـه واغـفـر له واعـدل به عن هوة الهـلـك

أولا فمـن ذا جوده يرتجـى غيرك أو عن فضـلـه نحـكـي

ويـروى أن النبي ﷺ دخـل على مريض فقـال: إني لأعلم ما يلقى، ما فيه عرق إلا ويألم للموت على حدته[241].

وكان علي رضي الله عنه يحرض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا، والذي نفس محمد بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش.

---

(٢٣٨) اللبة: المنحر، موضع القلادة من الصدر.

(٢٣٩) تمخض في مسك: تخض وتحرك في قربة جلد كما يفعل باللبن.

(٢٤٠) المعك: الدلك، الذلة والاهانة.

(٢٤١) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث سلمان بسند ضعيف.

وقـال شداد بن أوس: المـوت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشد من نشر المناشير، وقرض المقاريض، وغلي في القدور، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بألم الموت لما انتفعوا بعيش ولا التذوا بنوم(٢٤٢).

ودخل الحسن البصري رحمه الله على رجل مريض، فوجده في سكرات المـوت، فنظـر إليـه وقال: إن أمرا هذا أوله ينبغي أن يتقى(٢٤٣) آخره، وإن أمرا هذا آخره، ينبغي أن يزهد في أوله.

ويروى أن النبي ﷺ كان عنده قدح من ماء عندما نزل به الموت، فجعل يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت، وروى يدخل يده في الاناء ويمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، وفاطمة ابنته رضي الله عنها تقول واكرباه لكربك يا أبتاه، وهو يقول: لا كرب على أبيك بعد اليوم.

ذكـره البخـاري ومسلم والنسـائي وغـيرهما، ذكر كل واحد منهم أشياء لم يذكرها صاحبه.

وعن عيسى عليـه السـلام أنـه قال: يا معشـر الحواريين ادعوا الله لي أن يهون علي ٢٨ / أ هذه السكـرة، يعني المـوت، فقد خفت من الموت مخافة أوقعني خوفي من الموت على الموت.

وعن أسلم مولى عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه قال: إذا بقي على المؤمن من ذنـوبـه شيء لم يبلغـه بعمله شدد عليـه المـوت ليبلغ بسكرات الموت وشـدائـده درجتـه في الجنـة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفا في الدنيا هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم يصير إلى النار.(٢٤٤).

وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: لوددت أني رأيت رجلا لبيبا حازمـا قد نزل به المـوت فيخـبرني عن المـوت، فلما نزل به المـوت قيـل له يا أبـا عبدالله، قد كنت تقول في حياتك: وددت أني رأيت رجلا لبيبا حازما قد نزل به

---

(٢٤٢) الإحياء ٤/٤٦٣.

(٢٤٣) يتقي: يتجنب.

(٢٤٤) الإحياء: ٤/٤٦٣.

الموت يخبرني عن الموت وأنت ذلك الرجل اللبيب الحازم، وقد نزل بك الموت فأخبرنا عنه.

فقال: أجد كأن السموات أطبقت على الأرض وأنا بينهما، وكأن نَفَسي يخرج من ثقب إبره، وكأن غصن شوك يجر من هامتي إلى قدمي.

ويروى عن مكحول رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال: لو أن شعرة من شعرات الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى، لأن في كل شعرة من الميت الموت ولا يقع الموت على شيء إلا مات.(٢٤٥)

وأنشدوا:

ماذا تؤمل والأيام ذاهبة	ومن ورائك للآمال قطّاع
وصيحة لهجوم الموت منكرة	صُمت لوقعتها الشنعاء أسماعُ
وغصة بكؤوس أنت شاربها	لها بقلبك آلام وأوجاع(٢٤٦)
يا غافلا وهو مطلوب ومتّبع	أتاك سيل من الفرسان دفاع
خذها إليك طعانا فيك نافذة	تعدي الجليس وأمر ليس يسطاع
إن المنية لو تلقى على جبل	لأصبح الصخر منه وهو مياع

ويروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما مات قال الله عز وجل له: كيف وجدت الموت؟ قال: كسفود جعل في النار ثم أدخل في صوف رطب ثم جذب، فقال الله تعالى: أما إنّا لقد هوناه عليك يا إبراهيم.(٢٤٧)

ويروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له: يا موسى، كيف وجدت الموت؟ فقال: وجدت نفسي كالعصفور حين يلقى في المقلى، لا يموت فيستريح، ولا ينجو فيطير(٢٤٨)

ويروى عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية بيد القصاب تسلخ.

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت،

---

(٢٤٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية ابن ميسرة مرسلا، وهو حسن الاسناد الإحياء ٤/٤٦٣.
(٢٤٦) سقط هذا البيت من ش.
(٢٤٧) الإحياء ٤/٤٦٣ أيضا.
(٢٤٨) الإحياء ٤/٤٦٣.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل فأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى.[249]

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج فإنهم كانت فيهم أعاجيب، ثم أنشأ يحدث قال: خرجت طائفة فأتوا مقبرة من مقابرهم، فقالوا: لو صلينا ركعتين ودعونا الله تعالى أن يخرج ٢٨/ب لنا بعض الأموات فيخبرنا عن الموت، قال: ففعلوا، فبينما هم على ذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر وبين عينيه أثر السجود، فقال: يا هؤلاء ما أردتم إليّ؟ فوالله لقد مت منذ مائة سنة وما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن، فادعوا الله أن يعيدني كما كنت[250].

وفي الخبر أن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكروبه، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض يقول: عليك السلام، لا نجتمع إلى يوم القيامة.[251]

وأما مشاهدة صورة ملك الموت وما يدخل في القلب منه من الروع والفزع فهو أمر لا يعبر عنه لعظم هوله وفظاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يشاهده ويطلع عليه. وإنما هي أمثال تضرب، وحكايات تحكى.

يروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض بها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق ذلك. قال: بلى. قال: فأعرضْ عني. فأعرضَ عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود الثياب، قائم الشعر، منتن الريح، يخرج من فيه ومناخره لهب النار والدخان، قال فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى. فقال: ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا رؤية[252] وجهك لكان ذلك

---

(٢٤٩) نفس المصدر.

(٢٥٠) حكاه الغزالي في الإحياء ٤٦٢/٤ بلفظ روى ولم ينسبه إلى رسول الله ﷺ ولا إلى غيره. وذكر خمسين سنة بدل مائة.

(٢٥١) روى عن إبراهيم بن هدبة، وهو هالك.

(٢٥٢) في ش و ز صورة بدلا من رؤية.

حسبه[٢٥٣].

ونظر إبراهم الزيات رحمه الله إلى أناس يترحمون على ميت، فقال: لو تترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم، إن ميتكم قد نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رآه، ومرارة الموت، وقد ذاقها، وخوف الخاتمة وقد أمنها.

ويروى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إذا قبض ملك الموت روح العبد قام على عتبة بابه ولأهل البيت ضجة، فمنهم الضاربة وجهها، ومنهم الناشرة شعرها، ومنهم الداعية يا ويلها. فيقول ملك الموت: فيم هذا الجزع؟ فوالله ما انتقصت لأحد منكم عمرا، ولا أخذت لأحد منكم رزقا، ولا ظلمت أحدا منكم حقا، فإن كانت شكايتكم وتسخطكم عليّ فإني والله مأمور، وإن كانت علي ميتكم فإنه مقهور، وإن كانت من ربكم فأنتم به كفرة، ولي فيكم عودة ثم عودة حتى[٢٥٤] لا أبقي منكم أحدا.

قال: فلو سمعوا كلامه ورأو مكانه لشغلوا عن ميتهم وبكوا على أنفسهم.

وأنشد بعضهم:

بكى لأن مات ميت من عشيرته ... وقال واحربا[٢٥٥] وصاح يا هربا

وبات فوق حشاه للأسى لهب ... إذا أراد خبوّا[٢٥٦] فار والتهبا

ولو رأى بصحيح العقل حين رأى ... وكشف الله عنه للهوى حُجُبا

لما رأى الدهر ميتا أو أحس به ... إلا بكى نفسه المسكين وانتحبا

ومن رأى السمر[٢٥٧] في جنبيه شارعة ... أنى يراها بجنب ناء أو قربا

وطلعة الموت أن تطلع على أحد ... أرته في نفسه من هولها عجبا

ولعلك تقول: قد ذكرت من هول الموت وشدته وكربه وغصته، وأنه أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وأنه وأنه.. وقد شاهدنا ٢٩/أ من بعض

(٢٥٣) حسبه: كافيه.

(٢٥٤) عبارة: حتى لا.... الخ سقطت من ش و ز.

(٢٥٥) واحربا: عبارة يندب بها الميت وتعني الويل والتأسف.

(٢٥٦) الخبو: الخمود والسكون.

(٢٥٧) السمر: الرماح.

الأموات ما يدل على أن الموت ليس كما وصفت، وأنه إنما هو كأس يسهل على إنسان ويصعب على آخر، وقد رأينا من الأموات من يتحدث فيوصي ويشهد بماله وبما عليه، ونفسه تخرج من قدميه إلى صدره أو إلى حلقه وهو على حاله في وصيته وإشهاده، وربما ظن من رآه فجأة أنه لا بأس عليه ولا موت عنده، ثم يموت كذلك، وما هذه صفة من ينشر بالمناشير ويقرض بالمقاريض ويفعل به ويفعل به . . ولو كان كذلك لمنعه ألم النشر ووجع القرض وكرب الموت عن الكلام والإشهاد، وعن الوصية بأن يدفن في موضع كذا وكذا، وأن يكفن في ثوب كذا وكذا.

ولو كان كما قلت فقد رأينا من سرعة خروج بعض الأرواح مالو كان في الميت أضعاف ما قلت من الشدة لما كان يبالي في ذلك لسرعة خروج روحه وعجلة استلابها.

نعم للموت عند الأكثر مقدمات من الآلام والأمراض والأسقام يبلغ منه المبالغ قبل الموت ثم يموت، وقد تنزل تلك الأمراض والاسقام بآخر فتشرف به على اليقين وتريه المنون قبل المنون ثم تقلع عنه فلا يبقى لها أثر وكأنه ما سمع لها بخبر.

فأقول: صدقت والأمر كما قلت، وقد شوهد في بعض الأموات ما ذكرت، وقد علم أن الموت يهون على بعض الناس ويسهل عليه، وبعضهم أو أكثرهم يشدد عليه ويغص به، فمن أي الفريقين أنت؟ ممن يهون عليه أو ممن يصعب عليه؟ فلا بد لك من أن تشرب بأحد الكأسين وترمى بأحد السهمين، لا بد لك من ذلك فما الذي يؤمنك أن تطعم أضرّه وتسقى أمرّه وتصلى أشقه وأحره؟ ما الذي أمّنك من هذا، وكيفما كان فالموت شربه كريه وكأس مرّة حتى ان الانسان لو عرض عليه مقعده من الجنة وقيل له تموت ثم تصير إليه ربما انقبض عن ذلك وانجمع عندما يذكر له الموت.

كما روى عن سهل بن عبدالله التستري رحمه الله أن وليا من أولياء الله عز وجل تبدى له ملك الموت فأخبره برضا الله عز وجل عنه وبشره بالجنة وأنه يموت في وقت قريب حده له.

قال سهل: فقلت له كيف وجدت نفسك عند ذكر الموت؟ فقال: أصابتني قشعريرة. ثم مات الرجل في الوقت الذي حدّ له.

وقد تقدم لك أن النبي ﷺ كان عند الموت يدخل يده في قدح فيه ماء ويمسح به وجهه ويقول: اللهم هوّن علي سكرات الموت.

وقال(٢٥٨) عمر بن صبيح السعيدي: رأيت عبدالعزيز بن سليمان العابد في منامي بعد موته وعليه ثياب خضر وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ، فقلت له: يا أبا محمد كيف كنت بعدنا؟ وكيف وجدت طعم الموت؟ وكيف وجدت الأمر هناك؟ فقال: أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه، ولكن رحمة الله تعالى سترت منا كل عيب، وما نلتها إلا بفضله.

وأيضا فإنك لا تدري بما تسمع نغمة الملك ٢٩/ب الوارد عليك من ربك، ولا بماذا يبشرك ولا بد لك من إحدى البشريين والإعلام بمنزلك الذي كتب لك من إحدى الدارين، ولا بد لك من أن يقرع سمعك قوله إما يا ولي الله أبشر بالجنة، وإما ياعدو الله أبشر بالنار.

وهذا هو الذي قطع قلوب الخائفين، وأسال عبرات التائبين وأسهر ليالي العابدين.

وإن كنت من جملة الخاطئين وأصحاب الكبائر من المسلمين فلا بد أن يفتح لك الباب الذي تلج منه، ويظهر لك العمل الذي تسأل عنه.

وقد تقدم الحديث الصحيح عن الله عزوجل: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه.

وإن هذه المحبة وهذه الكراهية لا تكون إلا عند الموت. ذكرت ذلك عائشة رضي الله عنها. وهذا موضع ذكرى تتفتت لها الأعضاد وتتصدع لها الأكباد.

وسأذكر لك جملة من كلام المرضى والمحتضرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الصالحين، وغيرهم من المغترين والجهلة المخدوعين لعله يحرك منك، ساكنا ويخوف منك آمنا، ويشغلك بعون الله ظاهرا وباطنا.

(٢٥٨) من هنا إلى وأيضا سقط من ش.

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مرض، فقيل له: ألا ندعو لك طبيبا؟ فقال: قد رآني. فقالوا: وأي شيء قال لك؟ قال: قال إني فعال لما أريد.

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه، فقالوا[259] له: أي شيء تشتهي؟ قال: الجنة. قالوا: ندعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال له رجل من أصحابه: يا أبا الدرداء أتشتهي أن أسامرك الليلة؟ فقال أبو الدرداء: أنت معافى وأنا مبتلى فالعافية لا تدعك أن تسهر، والبلاء لا يدعني أن أنام، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر، ولأهل البلاء الصبر.

ولما اشتد المرض على عمر بن عبدالعزيز جاءوه بطبيب، فلما دخل عليه ورآه قال: إنه قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع بصره عمر وقال: لا يؤمن أيضا الموت على من لم يسق السم فقال الطبيب: وهل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم عرفت ذلك حين وقع في بطني. قال: تعالجْ يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك. فقال عمر: ربي تبارك وتعالى خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت إليه يدي، اللهم خِرْ[260] لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات رضي الله عنه.

ومرض الربيع بن خثيم رضي الله عنه فقالوا له: ألا ندعو لك طبيبا؟ فتفكر وقال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثير، قد كانت فيهم الأدواء والأطباء، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوَى، كل قد قضى[261] ومضى، والله لا أدعو لي طبيبا أبدا.

وذكر ابن جهضم في كتابه عن أبي يعقوب يوسف بن أحمد قال: خرجت إلى مكة على طريق البصرة ومعي جماعة فقراء وفيهم شاب كنت أميل إليه لحسن سمته[262] ٣٠/أ ومراعاة حاله واشتهاره بذكر ربه وكثرة مناجاته

---

(٢٥٩) من هنا إلى: فقال له رجل سقط من ز.
(٢٦٠) خِرْ له: أي اختر.
(٢٦١) قضى: مات.
(٢٦٢) سمته: السمْت: هيئة.

وتملقه[٢٦٣]، فلما وصلنا إلى المدينة شرفها الله تعالى مرض مرضا شديدا وانفرد عنا فسرت إليه مع جماعة من أصحابنا نتعرف خبره، فلما رأينا شدة ما به قال بعضنا: لو أحضرنا له طبيبا ينظر إليه ويرى علته فلعله يكون عنده دواء فاستمع الشاب مقالته فتبسم من ذلك وقال: يا مشايخي ويا أحبابي ما أقبح المخالفة بعد الموافقة، من أراد الله له حالا وأراد هو غيرها أليس قد خالف الله في إرادته؟ قال أبو يعقوب: فخجلنا من كلامه، فنظر إلينا وقال: لو علمتم داء القتيل لطلبتم لدائه دواء، إن الأمراض والأسقام فيها تطهير وتكفير وتذكير، ودواء القتيل مشاهدة النفس وموافقة الهوى.

ثم أنشأ يقول:

بيد الله دوائي وبعلم الله دائي
إنما أظلم نفسي باتباعي لهوائي
كلما داويت دائي غلب الداء دوائي

فقمنا من عنده وتركناه، يريد بقوله داء القتيل: الداء الذي يقتل صاحبه وهو اتباع الهوى.

وقيل لحسان بن أبي سنان في مرضه: كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير إن نجوت من النار[٢٦٤]

وقال بعض الصالحين: دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريض، فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقرا[٢٦٥] بالآثام. فقلنا له: فما تشتكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة. قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإنابة إلى ما عند الله والنقلة عما يكرهه الله. قال: فبكى القوم جميعا.

ودخل الحسن البصري على عطاء السلمي وهو مريض، فوجده قد علاه الغبار والصفار، فقال: يا عطاء لو خرجت إلى صحن الدار فكان يضربك

(٢٦٣) تملّقه: تقرّبه.
(٢٦٤) من وقيل لحسان إلى هنا سقط من «ل».
(٢٦٥) مُوقَرا: مثقلا.

الهواء فتجد له راحة، فقال له: يا أبا سعيد وبهذا تأمرني، إني لأستحي من الله عز وجل أن أخطو خطوة في راحة بدني.

وقال منصور: دخلت على عطاء السلمي بعد هذا أعوده وهو مريض، فرأيته يتبسم فعجبت من ذلك، فكأنه فهم عني.
فقال: أتعجب يا ابن أخي؟ فقلت: وكيف لا أعجب؟ فقال: وكيف لا أضحك وقد دنا فراقي ممن كنت أخافه وأحذره، ودنا قدومي على خالق كنت أرجوه وآمله، أتجعل مقامي مع مخلوق أخافه كقدومي على خالق أرجوه، قال هذا قبل أن يحضره وينزل به الموت.

قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على بعض المتعبدين وهو مريض فقلت: كيف تجدك؟ فقال: بحال شريفة، أسير كريم، حبيس جواد مع أعوان صدق، والله لو لم يكن لي مما ترون عوضا إلا ما أودع قلبي من محبته لكنت خليقا أن أدوم على الرضى عنه، بما الدنيا وما غاية البلاء فيها؟ هل هو إلا ما ترون من هذه العلة؟ ويوشك إن اشتد بي الأمر أن يدخلني إلى سيدي، ولنعمت العلة رحلت بمحب إلى محبوب قد أحزنه طول التخلف عنه.

ويروى أن مالك بن دينار رحمه الله دخل على شاب يعوده، فوجده خيالا على فراشه كالشن[٢٦٦] البالي، فسأله عن حاله فلم يستطع الجواب بلسانه فأشار بطرفه[٢٦٧]، فبينما نحن كذلك ٣٠/ب إذا بصوت المؤذن فسمعناه يقول كما يقول المؤذن ويشير بأصبعه عند الشهادتين، ثم أمر ولده فوضأه ثم أمره أن يوجهه إلى القبلة ليصلي راقدا بالإيماء. ثم قال: يا مالك البلاء منه سبحانه راحة مع بقاء الايمان، يامالك نعمه لا تعد وبلاؤه واحد، قال مالك: فتعجبت من يقينه وصبره وصدق وفائه وخالص محبته، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات رحمه الله.

وقال عبدالله بن عتبة عدت رجلا مريضا، فلما قعدت عنده قلت له: كيف تجدك؟ فقال:

---

(٢٦٦) الشن: الجلد.

(٢٦٧) طرْفه: عينه.

خرجت مِنَ الـدنيـا وقـامت قيـامتي غداة أقـلَّ[٢٦٨] الحـاملون جنـازتي
وعجّـل أهـلي حفـر قبري وصـيروا خـروجـي وتـعـجيـلي أجـلّ كرامتي
كأنهـم لم يعـرفـوا قط صورتـي غداة أتـى يومـي عليّ وسـاعـتي

ولما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاءته ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فلما رأته تمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشـرجت يومـا وضاق بها الصدر

فكشف أبـو بكـر عن وجهـه وقـال: ليس كذلـك ولكن قولي: «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد».

ثم قال: في كم كُفِّـن رسـول الله ﷺ؟ قالـت في ثلاثـة أثـواب بيض سحولية. فقال أبو بكر: خذوا هذا الثوب ـ لثوب كان عليه قد أصابه مسك أو زعفـران ـ فاغسلوه ثم كفنـوني فيـه مع ثوبـين آخرين، وكان ثوبا خلقا، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ تريد أنه خلق. فقال أبوبكر: الحي أحوج إلى الجديد من الميت، إنما هذه للمُهل، يريد الصديد والقيح. ثم سمع منشدا في البيت ينشد:

وأبـيض يسـتسقى الغـمام بوجهـه ثمال اليـتـامى عصمـةٌ للأرامـل

فالتفت إليه أبو بكر رضى الله عنه وقال: ذاك رسول الله ﷺ. وصدق أبو بكر فهذا البيت قاله أبو طالب عم رسول الله في قصيدته التي مدح بها رسول الله ﷺ، وقال فيها:

ومـا ترك قوم لا أبـالـك سيـدا يحوط الـذمـار غير ذرب مواكـل[٢٦٩]
وأبـيض يسـتـسقى الغـمام بوجهـه ثمال اليتـامى عصمـة للأرامـل[٢٧٠]

---

(٢٦٨) أقلّ: حمل.

(٢٦٩) الـذمـار: ما يلزمـك حمايته. والذرب: الفاحش المنطق. والمواكل: الذي لا جد عنده فهو يكل أموره إلى غيره.

(٢٧٠) ثمال اليتـامى: الـذي يقـوم بهم. والقصيدة في سيرة ابن هشام ١ / ٣٠٠ في أربعة وتسعين بيتا. وقال ابن هشام: بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

يلوذ به الهُلاّك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل

كذا قال أبو طالب: «يلوذ به الهلاك من آل هاشم». ولم يدر أنه ﷺ يلوذ به الهلاك من بني آدم.

ويروى عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه قال: لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه أتاه ناس من أصحابه فقالوا له: يا خليفة رسول الله إنا نراك ألمّ بك فأوصنا بوصية وزودنا منك بموعظة. فقال من قال هذه الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين. فقالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض وأشجار وأنهار، فمن قال هذا القول جعله الله في ذلك المكان.

اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقا للنعيم وفريقا للسعير، فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير، اللهم إنك خلقتهم وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقني بمعاصيك. اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس **٣١/أ** قبل أن تخلقها، ولا محيص(٢٧١) لهم مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك، اللهم إن أحدا لا يشاء إلا ما تشاء فاجعل مشيئتي أن أشاء ما يقربني إليك، اللهم إنك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك فاجعل حركاتي في تقواك، اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين، اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلني من ساكني جنتك، اللهم إنك أردت الضلال بقوم وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور فجعلت مصيرها إليك فاحيني حياة طيبة وقربني إليك زلفى، اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتي ورجائي، ولا حول ولا قوة إلا بك.

قال أبو بكر: وهذا كله في كتاب الله عز وجل.

وقال الشعبي رحمه الله لما طعن عمر رضي الله عنه أتي بلبن فشرب منه

---

(٢٧١) لا محيص: لا مفر ولا مهرب.

فخرج اللبن من طعنته، فقال: الله أكبر، وعلم أنه يموت. فجعل جلساؤه يثنون عليه خيرا، فقال: وددت أن أخرج من الدنيا كفافا كما دخلت لا عليّ ولا لي، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع.

ولما احتضر غشي عليه ورأسه في الأرض، فوضع ابنه عبدالله رأسه في حجره، فلما أفاق قال له: ضع رأسي على الأرض كما[٢٧٢] أمرتك فقال له ابنه: يا أبت وهل الأرض وحجري إلا سواء؟ قال: ضع رأسي على الأرض كما أمرتك، فوضعه.

قال: فمسح خديه بالتراب ثم قال: ويل لعمر! ويل لعمر! ويل لأم عمر إن لم يغفر الله لعمر فإذا قضيت فاسرعوا بي إلى حفرتي، فإنما هو خير تقدمونني إليه أو شر تضعونه عن رقابكم.

ولما احتضر عثمان بن عفان رضي الله عنه جعل يقول ودمه يسيل: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم أني أستعين بك على أموري، وأسألك الصبر على بلائي.

ولما احتضر سلمان الفارسي رضي الله عنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: والله ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن عهد عهده إلينا رسول الله ﷺ قال: ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب، فلما مات نظر في جميع ما ترك، فإذا قيمته ثلاثون درهما، وقد كان أميرا على المدائن، مدائن كسرى.

ويروى أن امرأته قالت وهو في الموت: واحزناه! فقال سلمان: بل وا طرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه.

ومثل هذا القول يروى أيضا عن بلال رضى الله عنه أنه قال عند موته: غدا نرى الأحبة محمدا وحزبه.

ويروى أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما دنا منه الموت دعا بحرسه ورجاله، فلما دخلوا عليه قال: هل تغنون عني من الله شيئا؟ قالوا: لا. قال: فافترقوا عني، ثم دعا بماء فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: احملوني إلى المسجد،

---

(٢٧٢) من هنا إلى فوضعه سقط من ش وز.

ففعلوا ٣١/ب فقال: استقبلوا بي القبلة، ففعلوا. فقال: اللهم إنك أمرتني فعصيت وائتسنتني فخنت، وحددت لي فتعديت، اللهم لا بريء فأعتذر ولا قوي فأنتصر، بل مذنب مستغفر لا مصر ولا مستكبر. ثم قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فلم يزل يرددها حتى مات.

وقوله لحرسه ورجاله: هل تغنون عني من الله شيئا، إنما فعل ذلك تصغيرا لنفسه وتحقيرا وليريها رؤية مشاهدة أن الذين كانوا يغنون عنه في الدنيا لا يغنون عنه عند نزول الموت شيئا.

ويروى أن ابنه عبدالله قال له: يا أبت ما كنت أظن أن ينزل بك أمر من الله إلا صبرت عليه، فقال يا بني نزل بأبيك ثلاث خصال: فراق أحبته، وانقطاع أمله، والثالثة هول المطلع. ثم قال: اللهم إنك أمرت فتوانيت، ونهيت فعصيت، اللهم من شيمتك العفو والتجاوز.

ولما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة رضي الله عنه قال: أقعدوني. فأقعدوه فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقدسه، ثم قال: الآن تذكر ربك يامعاوية بعد الانحطام والانهدام؟ ألا كان ذلك وغصن الشباب نضير ريّان؟ وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجُدْ بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك ثم قال لابنه يزيد: يابني إذا وفى أجلي فاعمد إلى المنديل الذي في الخزانة فإن فيه ثوبا من أثواب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره، فاجعل الثوب مما يلي جسدي واجعل أكفاني فوقه واجعل القراضة في فمي وأنفي وعيني، فإن نفعني شيء فهذا، فإذا جعلتموني في قبري فخلوا معاوية وأرحم الراحمين.

ويروى أنه قال في جملة ما قال: ياليتني كنت رجلا من سائر قريش بذي طوى ولم ألِ من هذا الأمر شيئا.

ولما حضرت أبا هريرة الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: يبكيني بُعْدُ

المفازة وقلة الزاد وضعف اليقين والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ولما حضرت حذيفة بن اليمان الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر(٢٧٣) وقيام الليل ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء في حلق الذكر. ولما اشتد به النزع جعل كلما أفاق من غمرة فتح عينيه وقال: يارب شد شداتك واخنق خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أني أحبك.

ومثل هذا يروى عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه أنه لما نزل به الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي حرصا على الدنيا ولا جزعا من الموت، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وقيام ليالي الشتاء.

وكذلك يروى عن عامر بن قيس.

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه لما حضر وقد نزل به الموت: ليعاين الناس غدا من عفو الله وسعة رحمته مالم يخطر على قلب بشر.

كشف له رضي الله عنه عن سعة رحمة الله وكثرة عفوه وعظم تجاوزه ما أوجب أن قال هذا.

٣٢/أ ولما دنت الوفاة من عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله تبارك وتعالى بك سنة وأظهر عدلا، فبكى ثم قال: أليس أوقف ثم أسأل عن هذا الخلق؟ والله لو عدلت فيهم لخفت أن لا تقوم نفسي بحجتها عند الله تعالى إلا أن يلقنها حجتها ويثبتها، فكيف بكثير مما ضيعت، ثم بكى.

ويروى عن فاطمة بنت عبدالملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز هذا أنها قالت: كنت أسمع عمر بن عبدالعزيز في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم اخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي مات فيه خرجت من عنده فجلست في بيت قريب منه، بيني وبينه باب، فسمعته يقول:

---

(٢٧٣) الهواجر: جمع هاجرة وهي نصف النهار حين يشتد الحر.

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾ .
ثم بعد ذلك هدأ فلم أسمع له حركة ولا كلاما، فقلت لوصيف لنا انظر إلى أمير المؤمنين ما صنع(٢٧٤) فلما دخل عليه صاح، فأسرعت إليه فإذا هو ميت رحمه الله .

ويروى أنه لما قرب موته قال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: اللهم أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، قالها ثلاث مرات، فإن عفوت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت ثم قال: لكن أرجو خيرا بقولي(٢٧٥): لا إله إلا الله، محمد رسول الله .

ثم أحَدّ النظر فقيل له في ذلك، فقال: أرى حضرة ماهم بإنس ولا جان. ثم خرج من كان عنده، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات رضي الله عنه .

ويروى أنه قيل له وقد اشتد مرضه: أوصنا يا أمير المؤمنين فقال: أحذركم هول مصرعي هذا .

ويروى أنه دخل عليه قبل أن يموت بأيام ابن أبي زكريا أو أحد الفقهاء، فتذاكرا الآخرة فبكى عمر وبكى الرجل، ثم دَعَوَا الله جميعا وسألاه أن يقبضهما إليه جميعا، فجاء ابن صغير لعمر يدب، فقال عمر: وهذا معنا فإني أحبه، فماتوا ثلاثتهم قريبا أو في جمعة واحدة .

ويروى عن عبدالملك بن مروان أنه لما حضره الموت نظر في موضع له مشرف إلى رجل وبيده ثوب وهو يضرب به المغسلة، فقال: يا ليتني كنت مثل هذا الرجل أعيش من كسب يدي يوما بيوم ولم أل من هذا الأمر شيئا .

وقال له رجل: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال تجدني كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم﴾ .

ويروى أنه قال عند موته أيضا يذم الدنيا: إن طويلك لقصير، وإن كبيرك

(٢٧٤) من ثم بعد ذلك إلى هنا سقط من ش.

(٢٧٥) لكن أرجو خيرا بقولي: سقطت العبارة من ش و ز.

لصغير، وإن كنا منك لفي غرور.

ولما حضرت الوفاة أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين، تمثل بهذه الأبيات:

المرء يأمل أن يعيـ ـش وطول عيش قد يضرّهْ
تبلى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مرُّهْ
وتخزنه الأيام حتـ ـى لا يرى شيئا يسُرُّهْ
كم شامت بي أن هلكـ ـت وقائل لله درُّهْ

ثم قال للربيع: يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت. ثم قال: اللهم إني ارتكبت الجرائم من الذنوب جرأة عليك وأطعتك في أحب الأشياء إليك شهادة إن لا إله إلا الله مَنًّا منك لا مَنًّا عليك، اللهم اجعل ذلك قربة لي عندك، ثم مات من ساعته.

وعن محمد بن منصور البغدادي قال: دخلت على عبدالله بن طاسر وهو في سكرات الموت، فقلت: السلام عليك أيها الأمير، فقال: لا تسمني أميرا وسمني أسيرا، ولكن أكتب عني بيتنين ما أراهما إلا آخر بيتين أقولهما، ثم أنشأ يقول:

بادر فقد أسمعك الصوت إن لم تبادر فهو الفوت
من لم تزل نعمته قبله زال عن النعمة بالموت

ولما نزل الموت بهشام بن عبدالملك أمير المؤمنين نظر إلى أولاده وأهله يبكون حوله فقال لهم: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم هشام ما جمع وتركتم عليه ما اكتسب، ما أعظم منقلب هشام! وما أسوأه إن لم يغفر الله له!

وكان أمير المؤمنين هارون الرشيد ينتقي أكفانه بيده وينظر إليها ويقول: «ما أغني عني ماليه، هلك عني سلطانيه».

ويروى عن الأصمعي أنه قال: دخلت على هارون الرشيد، فرأيته ينظر في الكتاب، ودموعه تسيل على خديه، فوقفت حتى سكن، وحانت منه التفاتة، فنظر إليّ وقال: اجلس، ثم رمى بالقرطاس إليّ، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية:

الخلق مختلف جواهره ... ولقلّ ما تزكو سرائرهُ
ولقلّ من تصفو إرادته ... وصح باطنه وظاهرهُ
الناس في الدنيا ذوو ثقة ... والدهر مسرعة دوائرهُ
والموت لو صح اليقين به ... لم ينتفع بالعيش ذاكرهُ
لا خير في الدنيا لذي بصر ... عميت لما فيها نواظره
وسبيلنا في الموت واحدة ... يتلو أكابره اصاغره
من كان للصالحات مدخرا ... فستستبين غدا ذخائرهُ
يامن يريد الموت مهجته ... لا شك مالك لا تبادرهُ
هل انت معتبر بمن خربت ... منه العداة معا دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه ... فتبرأت منه عشائره
وبمن خلت منه أسرّته ... وبمن خلت منه منابره
درست محاسن وجهه ونفى ... عنه النعيم ثرى يباشره
أين الملوك وأين غيرهم ... صاروا مصيرا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا للذّته ... والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك أن تنال من الد ... نيا فإن الموت آخره

ثم قال الرشيد: والله لكأني المخاطب بهذا دون الناس. قال: فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات.

وقال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي رحمه الله: لما اشتدت علة هارون الرشيد وسار إلى طوس هوّن الأطباء عليه علته وحقروا أمرها، فأرسل ماءه في قارورة مع جملة قوارير، فعرضت على متطبب فارسي كان هناك فجعل ينظر إليها قارورة قارورة ويقول ما يقول حتى أتى على القارورة التي فيها ماء هارون الرشيد فنظر فيها فقال: عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك بعد ثلاث فمروه فليوص فإنه لا برء له من علته هذه. فأتى الغلام هارون فقال له: ما قال لك؟ فجمجم الغلام ولم يبين، فعزم عليه فأخبره بما قال وقال قال عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك بعد ثلاث، فبكى هارون بكاء شديدا وتمايل على فراشه

وجعل ينشد :

إن الطبيب بطبه ودوائه	لا يستطيع دفاع مقدور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي	قد كان يبرئ مثله فيما مضى
ذهب المداوَي والمداوي والذي	جلب الدواء وباعه ومن اشترى

واشتد ضعفه عندما سمع كلام الطبيب، وأرجف الناس بموته، فلما بلغه ذلك دعا بحمار ليركبه فلما صار عليه سقط ولم يقدر، أن يثبت على السرج، فقال: صدق المرجفون، ثم دعا بأكفان فنشرت بين يديه فجعل يختار منها ما يصلح.

ثم أمر بقبره فحفر، فلما اطلع عليه جعل يقول: «ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه.

ومثل هذا القول مروى عن أبي شجاع فناخسرو بن عضد الدولة يروى أنه لما نزل به الموت لم يسمع منه إلا قوله: «ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه» ويروى أنه قال قبل ذلك شعرا يمدح به نفسه منه قوله:

ليس شرب الراح إلا في المطر	وغناء من جوار في السحرْ
غالبات سالبات للنهى	ناعمات في تضاعيف الوترْ
مبرزات الكأس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشرْ
عضد الدولة وابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

قال أبو منصور الثعالبي . . لم يفلح بعد هذا البيت . . يعني قوله: عضِد الدولة . . الخ.

ولما حضرت أمير المؤمنين المأمون الوفاة أمر بجل دابته ففرش له، فاضطجع عليه ووضع الرماد على رأسه وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم اليوم من قد زال ملكه.

ويروى أنه قيل له في صباه: إنك تموت في أرض يقال لها «مد رجلك»، فلما ولي الخلافة وأقام ما أقام غزا بلاد الروم، فلما انصرف من غزاته نزل بموضع فيه عين ماء عظيمة، لها قعر عميق، فاطلع فيها فرأى في قعرها حوتا

كبيرا، فأمر به فأخرج وجعل بين يديه، فانتفض الحوت انتفاضة، فرشه بما كان عليه من الماء، فأخذته قشعريرة، وحُمّ، فسأل عن اسم الموضع الذي هو فيه، فذكر له اسم اعجمي، قال فسّروه، ففسروه «مد رجلك» فلما سمع ذلك تفكر فيما قيل له، فأيقن بالموت، فأمر بجلّ دابته(٢٧٦) ففرش له، فاضطجع عليه، وأمر أن يطَاف به على هذه الحالة، وأمر المنادي أن يقول هذا القول «يا من لا يزول ملكه ارحم اليوم من قد زال ملكه».

وكان المعتصم أخوه يقول عند موته ـ وكان قد ولي بعده ـ لو علمت أن عمري هكذا قصير ما عملت ما عملت، وجعل يقولها ويبكي.

ولما حضرت المنتصر الوفاة جعل يضطرب، فقالوا لا بأس عليك يا أمير المؤمنين. فقال: تقولون هكذا لا بأس عليك ذهبت عني الدنيا والآخرة وتقولون لا بأس عليك؟!.

ولما حضرت أمية بن أبي الصلت الوفاة أغمي عليه، ثم أفاق وجعل يقول:

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لا بريء فأعتذر، ولا قوى فأنتصر، ثم أغمى عليه وأفاق، فجعل يقول:

إن تغفر الله تغفر جمًّا ... واي عبد لك لا ألما

ثم أغمى عليه وأفاق، فأنشأ يقول:

كل عيش وإن تطاول دهرا ... فمصيره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

ولما حضرت عبدالله بن علي الوفاة قال: ما أغفلني أمس عن مصرعي اليوم!

وقال أبو سليمان الداراني: دخلنا على عابد وقد حضره الموت وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك رحمك الله؟ فأنشأ يقول:

---

(٢٧٦) جُل الدابة: وهو كالثوب للانسان تصان به.

وحـق لمثـلي بالـبكـا عنـد موتـه ومـالي لا أبكي ومـوتي قد اقـترب
ولي عمـل في اللوح أحصاه خالقي فإن لم يجد بالعفـو صرت إلى العطب[٢٧٧]

وقال عبدالله بن العلاء: شهدت أعرابيا قد نزل به الموت فشخص ببصره ثم قال:

كل آت فإنـه سوف يأتي أنـت يامـوت هاذم[٢٧٨] اللـذات
يرحـم الله أعـظما بالـيات أصـبحت في عسـاكـر الأمـوات

ويروى أن ابن المنكدر رحمه الله عندما نزل به الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكني أخاف أن أكون قد أذنبت ذنبا حسبته هينا وهو عند الله عظيم.

وقد روى عنه كلام آخر يدل على علو منزلته وارتفاع درجته.

وقيل لجابر بن زيد عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا اخوتاه الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار، **٣٣**/أ.

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي عند موته: اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل. فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة.

وذكر ذلك للحسن البصري فقال: أقالها؟ قالوا نعم. قال: عسى.

وقال سليمان التيمي: دخلت على بعض أصحابنا وهو في الموت فرأيت من جزعه ما ساءني، فقلت: هذا الجزع كله لماذا وقد كنت تحمد الله على كذا، يعني على حالة صالحة، فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحق مني بالجزع؟ والله لو أتتني المغفرة من الله عز وجل لأهّمني الحياء منه فيما أفضيت به إليه.

وقال بعض الصالحين لغلامه ـ وقد حضره الموت ـ يا غلام شد كتافي وعفر بالتراب خدي، ففعل الغلام. ثم قال: دنا الرحيل اللهم لا براءة لي من ذنب، ولا عذر لي فأعتذر به، ولا قوة فانتصر بها. ثم قال: أنت لي [ثلاثا]، ثم صاح صيحة ومات.

---

(٢٧٧) العطب: الموت، الهلاك.

(٢٧٨) هاذم: هذم الشيء: قطعه بسرعة.

فسمعوا صوتا يقول في البيت: استكان[٢٧٩] العبد لمولاه فقبله وأدناه[٢٨٠]

ولما حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيام الخالية وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية.

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: انتظر رسولا من ربي يبشرني بالنار أو بالجنة.

وقال حماد بن سعيد بن أبي عطية المذبوح: لما حضر أبا عطية الموت جزع، فقالوا له: أتجزع من الموت؟ فقال: وما لي لا أجزع وإنما هي ساعة فلا أدري أين يسلك بي.

ولما حضرت الوفاة فضيل بن عياض رحمه الله غشي عليه، ثم أفاق وقال: يابُعْد سفري وقلة زادي.

وكان عامر بن قيس يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، فلما حضره الموت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال أبكي لقوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين[٢٨١]﴾

وقد تقدم عنه كلام آخر قاله عند الموت أيضا. ولما[٢٨٢] نزل الموت بسليمان التيمي قيل له أبشر فقد كنت مجتهدا في طاعة الله تعالى، فقال: لا تقولوا هكذا فإني لا أدري ما يبدو لي من الله عز وجل فإنه يقول سبحانه: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون[٢٨٣]» قال بعضهم: عملوا أعمالا كانوا يظنون أنها حسنات فوجدوها سيئات.

وكان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي فختم فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: ومن أحق مني بذلك وها هو ذا تطوى صحيفة عملي ثم كبّر ومات.

---

(٢٧٩) استكان: ذل وخضع.

(٢٨٠) أدناه: قرّبه.

(٢٨١) آية ٢٧ المائدة.

(٢٨٢) من هنا إلى سيئات سقط من ش.

(٢٨٣) آية ٤٧ الزمر.

وقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره.

ولما نزل الموت ببشر الحافي وكان على عليائه[٢٨٤] من العبادة والزهادة شق[٢٨٥] عليه وساءه ذلك، فقيل له: أتحب الحياة يا فلان؟ فقال: ياقوم القدوم على الله شديد.

ولما حضر أبا سليمان الداراني الموت قال له أصحابه: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم. فقال لهم: ألا تقولون تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير.

فأبو سليمان هذا غلب عليه الخوف في هذه الحالة فتكلم عن حاله.

٣٣/ب وقيل لِرُويم عند الموت: قل لا إله إلا الله. فقال: ما أحْسِن غيرها. وكان رويم هذا من الصالحين، ويروى أنه كان يدعو الطير فتجيبه.

واحتضر بعض الصالحين فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: عليك أبكي. قال: إن كنت باكية فابكي على نفسك فأما أنا فقد بكيت على هذا اليوم منذ أربعين سنة.

ولما حضرت أبا علي الروذباري الوفاة وكان رأسه في حجر ابنته فاطمة، ففتح عينيه ثم قال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زخرفت، وهذا قائل يقول: يا أبا عليّ قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها. ثم قال:

وحقك لانظرت إلى سواك ... بعين مودة حتى أراك
أراك معذِّبي بفتور لحظٍ[٢٨٦] ... وبالخد المورّد من حياك
أراك منعِّمي بجميل ظن ... وبالأمن المكرم من رضاك
فلو قطعتني في الحب إربا[٢٨٧] ... لما نظر الفؤاد إلى سواك[٢٨٨]

وكان أبو علي هذا ممن يعبد الله لذاته، وكان يقول: لا أريد الجنة ونعيمها، إنما أريدك يا رب.

---

(٢٨٤) علياته: علو شأنه.
(٢٨٥) شق: صعب.
(٢٨٦) اللحظ: العين.
(٢٨٧) إرْبا: عضوا.
(٢٨٨) الأبيات الثلاثة الأخيرة سقطت من ش و ز.

وكذلك كان ممشاد الدينوري ، لما نزل به الموت جعل بعض المشايخ يدعو له فضحك وقال : منذ ثلاثين سنة تعرض عليّ الجنة بما فيها فما نظرت إليها .

ويروى أن بعض الصالحين ضحك عند موته وقال : صادق يا وفي ، وفيت لي وما وفيت لك .

ويروى عن عبدالله بن المبارك أنه لما احتضر نظر إلى السماء فضحك ثم قال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

ومثل هذا يروى عن بعض أصحاب ابن فورك وكان من الصالحين الكبار المجتهدين ، انه لما نزل به الموت شخص ببصره إلى السماء ثم قال : ياابن فورك لمثل هذا فليعمل العاملون .

وفتح ابن بنان عينيه عند الموت فقال : ارتع فهذا مرتع الأحباب . وخرجت روحه .

ولما نزل الموت بأبي يعقوب النهرجوري رحمه الله قال له أبو الحسن المزّين : قل لا إله إلا الله . فتبسم أبو يعقوب وقال : إياي تعني؟ وعزة من لايذوق الموت مابيني وبينه إلا حجاب العزة ثم خرجت روحه من ساعته .

وكان أبو الحسن يأخذ بلحية نفسه ويقول : يا حجام مثلك يلقن أولياء الله الشهادة؟ وكان إذا ذكر هذه القصة بكى .

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي رحمه الله تعالى عند الموت وكان ممن أحرق قلبه الخوف ، فقلت له : كيف تجدك؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ، والذي قد أصابني من طبيبي؟

قال الجنيد : فأخذت المروحة لأروح عليه ، فقال : كيف يجد روح المروحة من قلبه يحترق؟ ثم أنشد :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى والشوق والقلق

ثم ذكر الله تعالى ومات رحمه الله .

وقيل لذي النون عند موته : ما تشتهي؟ فقال : أشتهي أن أعرفه تبارك وتعالى قبل موتي بلحظة .

لم يقل هذا القول ذو النون المصري رحمه الله لجهله بالله تعالى لكنه كان يستقل معرفته ٣٤/أ، وصدق في هذا فشأن الله أجل وأعظم من أن يحاط بمعرفته أو يبلغ كنه وصفه.

ويروى عن عبدالله بن شبرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريض نعوده، فوجدنا لما به، ورجل يلقنه الشهادة ويقول له:

قل لا إله إلا الله، وهو يكثر عليه، فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن يلقنّي أو لا يلقنّي فإني لا أدعها، ثم قرأ ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها[289] وأهلها﴾. فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجّى صاحبنا.[290]

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي قالوا له عند موته: قل لا إله إلا الله. فأنشد:

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السُّرُج
وعليلاً أنت زائره قد أتاه الله بالفرج[291]
وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج
لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

يريد الشبلي أن القلب إذا امتلأ واشتغل بعظمة الله وجلاله لم يحتج إلى منبه ينبهه ولا إلى مذكر يذكره.

ويروى أن الجنيد بن محمد دخل على بعض المشايخ فوجده في سياق الموت، فقال له الجنيد: قل لا إله إلا الله. فنظر إليه الشيخ شزراً. فأعاد عليه الجنيد، فلم يقلها، فأعاد عليه، فلم يتكلم. فقال له الشيخ: يا جنيد تذكرني بالتوحيد وأنا منذ ثلاثين سنة أبكي عليه ولا أسلو عنه؟ يا جنيد إني مشاهد

---

(٢٨٩) آية ٢٦ الفتح.
(٢٩٠) تذكرة القرطبي ٣١.
(٢٩١) سقط هذا البيت من ش.

حبيبي ومستأنس به .

ويروى أن إبراهيم بن أدهم دخل على بعض العباد يعوده، فوجده في الموت أو في مقدمات الموت، فجعل العابد يتنفس ويتأسف، فقال له إبراهيم: علام تتأسف رحمك الله؟ فقال: ما تأسفي على النقلة من دار الدنيا دار الأحزان والأسقام والخطايا والذنوب، ولكن أسفي على يوم أفطرته أو ليلة نمتها أو ساعة غفلت عن ذكر الله فيها ولكن يا أخي إن وقع في هذا تقصير فلم يقع في التوحيد تقصير، ما عبدت سواه ولا وحدت غيره ولا سكن في قلبي محبة شيء إلا محبته.

ودخل المزني على الشافعي رحمهما الله في مرضه الذي مات فيه، فقال: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا، ولسيء عملي ملاقيا، ولكأس المنية شاربا، وعلى ربي تبارك وتعالى واردا، ولا أدري روحي للجنة فأهنيها أو للنار فأعزيها. ثم أنشد[٢٩٢]:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنْته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يغو بإبليس عابد ... وكيف وقد أغوى صفيك آدما

وقال عطاء بن يسار رحمه الله تعالى: تبدّى[٢٩٣] إبليس لعنه الله لعابد عند الموت فقال له نجوت يا هذا، فقال: ما أمنتك بعد.

ولما حضرت الحسن بن هانيء الوفاة، أنشد:

دب فيَّ السّقام سفلاً وعلوا ... وأراني أموت عضوا فعضوا
ليس من ساعة مضت بي إلا ... نقصتني بِمَرِّها بي جزوا
لهف نفسي على ليال وأيا ... م قضيتهنَ لعبا ولهوا
قد أسأت كل الاساءة فالـ ... لهم صفحا وغفرانا وعفوا

(٢٩٢) الإحياء ٤/٤٨٤.

(٢٩٣) من هنا، إلى ما أمنتك بعد سقط من ز و ش.

ولما حضرت الوفاة أحمد بن خضرويه، سئل عن مسألة، فقال: يا بني باب أدقه منذ خمس وسبعين سنة وهاهو ذا يفتح لي الساعة، ولا أدري بما يفتح لي، بالسعادة أم بالشقاوة ٣٤/ب فآن لي أوان الجواب[٢٩٤]

ويروى عن مالك بن دينار أنه دخل على جار له وقد نزل به الموت فقال له الرجل: يامالك إني أرى جبلين من نار وأنا أكلف الصعود عليهما.

قال مالك: فسألت امرأته عن حاله، فقالت: كان له مكيالان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر، قال: فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر فكسرتهما. ثم قلت له: ما ترى؟ قال: ما أرى الأمر يزداد إلا شدة.

وروى أن رجلا نزل به الموت وعند رأسه صندوق فيه مال، فجعل يشير إليه ويقول: النار في الصندوق! النار في الصندوق!

ويروى أن طلحة بن عبيدالله القرشي عاد مريضا فوجده في الموت فسمع صوتا وهو يقول:

ناد رب الدار ذا المال الذي جمع المال بحرص ما فعل

فأجابه آخر:

كان في دار سواها نائما عللته[٢٩٥] بالمنى ثم انتقل

ويروى أنه ما من ميت يموت إلا ويكلّمه ملكاه اللذان يكتبان عمله في الدنيا، فإن كان مطيعا قالا له: جزاك الله من صاحبٍ خيرا فرب كلام حسن قد اسمعتناه، ورب مجلس خير قد أجلستناه، ورب عمل صالح قد أحضرتناه فنحن لك اليوم على ما تحب.

وإن كان فاجرا قالا له: جزاك الله من صاحبٍ شراً فرب كلام قبيح قد أسمعتناه، ورب مجلس سوء قد أجلستناه، ورب عمل سوء قد احضرتناه، فنحن لك اليوم على ما تكره.

* * *

---

(٢٩٤) الأحياء ٤/٤٨٤.

(٢٩٥) شغلته وألهته.

الباب الأول
من أخبار بعض الأموات عند الموت

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها، فرجع الملك إلى الله عز وجل فقال: إنك أرسلتني إلى عبدلك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: ألحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب رب أدنني من الأرض المقدسة رمية حجر، قال: رسول الله ﷺ فوالله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر[1].

وروى أن عيسى عليه السلام مر برأس ميت فضربه برجله وقال تكلم بإذن الله تعالى، فتكلم وقال: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس على سرير ملكي، عليّ تاجي وحولي حشمي وخدمي وجندي إذ تبدى لي ملك الموت، فزال مني كل عضو على حياله، وخرجت نفسي إليه، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة، ويااليت ما كا ن من ذلك الأنس وحشة.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان داود عليه السلام رجلا غيورا، وكان إذا خرج غلق الأبواب، فغلّق ذات يوم أبوابه وخرج، فأشرفت امرأته فإذا برجل في الدار، فقالت: من ادخل هذا دارنا؟ لئن جاء داود

(١) مختصر صحيح مسلم الحديث رقم ١٦/٣.

فرآه ليلقين منه عنتاً[٢]، فجاء داود فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنعني الحجاب قال: فأنت إذن والله ملك الموت، ثم قبض روحه.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان إبراهيم عليه السلام غيورا، وكان له بيت يتعبّد فيه، فإذا خرج أغلقه، فخرج ذات يوم بعدما أغلق بابه، فإذا هو برجل في جوف البيت، فقال له: من أدخلك دارنا؟ قال: ادخلنيها ربها، فقال: أنا ربها، قال ادخلنيها من هو أملك لها منك، فقال له إبراهيم: من أنت من الملائكة؟ قال: ملك الموت، فقال له هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم فأعرضْ عني، فأعرض عنه فإذا هو بشاب ٥٢/أ فذكر من حسن وجهه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه، ثم قبض روحه.

قال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد الخروج إلى أرض له، فلبس أحسن ثيابه، وركب أفره[٣] دوابه، وخرج في خاصته وجنوده ورجاله، فنفخ الشيطان فيه نفخة ملأه كبرا وعجبا، فكان يمشي ولا يلتفت إلى أحد من الناس كبرا وإعجابا بنفسه، فتصدى له رجل رث[٤] الهيئة فسلم عليه، فلم يرد عليه السلام ولا التفت إليه، فأخذ بلجام دابته فقال له: ويلك لقد تعاطيت أمرا عظيما كفّ يدك عن اللجام، فقال له: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك ودهش واضطرب لسانه وقال: سألتك إلا ما تركتني حتى أرجع إلى أهلي وأودعهم وأقضي حاجتي منهم، فقال: لا والله لا رأيت أهلك أبدا، وقبض روحه، فخرّ كخشبة ملقاة.

ثم لقي آخر في مثل حاله إلا أنه كان متواضعا، فتعرض له فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال له: إن لي إليك حاجة وأريد أن أذكرها لك في أذنك، فقال: هات، فأعطاه أذنه، قال: أنا ملك الموت، فقال له: مرحبا بمن طالت

---

(٢) العنت: الشدة، المشقة، الهلاك.
(٣) أفره: أنشط.
(٤) رث: يلبس البالي من الثياب.

غيبته عليّ فوالله ما كان غائب أحب إليّ من أن ألقاه منك، فقال له ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت إليها، قال لا، هذه الحاجة أهم حوائجي ٥٢/ب ومالي حاجة أهم عليّ ولا أحب إلي من لقاء الله عز وجل، قال: فاختر على أي حالة تريد أن أقبض روحك، قال: وتقدر على ذلك؟ قال: بذلك أمرت، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي، وتقبض روحي وأنا ساجد، قال: نعم فتوضأ وصلى ثم قبض روحه في سجوده.

وقال بكر بن عبدالله: جمع رجل من بني إسرائيل مالا، فلما أشرف على الموت قال لبنيه: أروني أصناف أموالي التي جمعت، فأتي بشيء كثير، فلما رآه بكى تحسرا، فقال له ملك الموت: ما يبكيك؟ فوالله ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك، فقال له: أمهلني حتى أفرقه، قال: هيهات انقطعت المهلة فهلا كان هذا قبل حضور أجلك؟ ثم قبض روحه.

ويروى أن رجلا جمع مالا فأوعى، ولم يدع صنفا من أصناف المال إلا اتخذه، ثم ابتنى قصرا وجعل عليه حجابا وحراسا، ثم جمع أهله وعياله وصنع لهم طعاما، وقعد على سريره ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون، ثم قال: يا نفسي تنعمي سنين فقد جمعت لك ما يكفيك، فما فرغ من كلامه حتى أقبل ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب فقرع الباب بشدة عظيمة، فوثب إليه الغلمان فقالوا له: ويلك ما شأنك ومن أنت؟ فقال: ادعوا إليّ مولاكم، قالوا: إلى مثلك يخرج مولانا؟!

قال نعم. فأخبروا مولاهم فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشد من الأولى، فوثب إليه الحرس، فقال: أخبروه أني ملك الموت،[5] فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والخشوع فقال: قولوا له يدخل وقولوا له قولا لينا، فدخل فقال له: اصنع بمالك ما أنت ٥٣/أ صانع فإني لست بخارج عنك حتى أخرج بنفسك فأمر بماله فجمع، فلما رآه قال: لعنك الله من مال فأنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني عن النظر لنفسي، فأنطق الله عز وجل المال فقال: لم تسبني وبي جلست مجالس الملوك، وبي نكحت المتنعمات، وبي

---

(٥) من هنا إلى: فلما رآه، سقط من ش.

فعلت وفعلت، وكنت تنفقني في سبيـــل الشـر فلا أمتنـع منـك، ولـو أنفقتني في سبيل الخير وطريق البر لنفعتك اليوم، ثم قبض ملك الموت روحه، فسقط ميتا.

وقـال يزيـد الـرقاشي: بينما جبار من جبابرة بني اسرائيل في منزله قد خلا ببعض أهله إذ رأى شخصـا قد دخـل عليـه من باب بيته، فوثب عليه مغضبا، فقـال له: ويلك من أنت ومن أدخلك داري، ومـا حملك على الهجـوم عليّ في بيتي؟ فقال له: أما الذي أدخلني الدار فربها، أنا الذي لا يمنعني الحجاب، ولا أستأذن على الملوك، ولا أخـاف صولـة السـلاطين، فأسقط في يد الجبار وأرعد حتى سقط منكبّاً على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستخذيا[٦] متذللا، فقال له: فأنت إذن ملك المـوت؟! قال: أنـا هو، قال: فهـل أنت ممهلني حتى أحـدث عهـدا؟ قال: هيهـات، انقطعت مدتـك، وانقضـت أنفـاسـك، ونفـدت[٧] ساعاتك، فليس إلى إمهالك سبيل، قال: فإلى أين أذهب؟ قال: إلى عملك الصـالـح الـذي قدمت، وإلى بيتـك الحسن الذي مهدت، قال: فإني لم أقدم عملا صالحا، ولا مهدت بيتا حسنا، قال: فإلى لظى[٨]، نزاعه للشَّوَى[٩]، ثم قبض روح، فسقط بين أهله، فمن صارخة تصرخ، وباكية تبكي.

قال يزيد: ولو يعلمون سوء المنقلب لكان العويل أعظم، والبكاء أكثر.

* * *

---

(٦) مستخذيا: منقادا.

(٧) نفدت: فرغت وانقطعت وفنيت.

(٨) تلظى: تلتهب، وتشتعل بشدة.

(٩) الشوى: جمع شواة وهي جلدة الرأس.

الباب الثاني
ما يستحب من أحوال الميت عند الموت
وفي تلقين الشهادتين للمسلم وغيره
وما يستحب للمسلم من الرجاء
وحسن الظن بالله عند الموت

اعلم رحمك الله أن المحبوب من حال الميت عند الموت أن يعلوه الهدوء والسكون، ومن لسانه الكلمة بالشهادتين، ومن قلبه حسن الظن بالله تعالى.

وذكر الترمذي من حديث بريدة بن حصيب عن النبي ﷺ أنه قال المؤمن يموت بعرق الجبين، ويروى في خبر أنه قال ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه، وإذا ذرفت عيناه، ويبست شفتاه، فذلك من رحمة الله نزلت به، وإذا غط غطيط المخنوق، واحمر لونه، واربدت شفتاه، فهو من عذاب الله نزل به[1].

وأما انطلاق لسانه بالشهادتين فهو علامة الخير، ودليل السعادة وأمارة الاتصال بالحضرة الإلهية.

وذكر أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

وذكر أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من مات وهو

---

(١) قال العلامة عبدالرحيم العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٤٦٥ عن هذا الحديث: أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان، ولا يصح.

يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة(٢).

وذكر أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله(٣).

وذكر مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة(٤).

ومن غير كتاب مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: حضر ملك الموت رجلا فنظر في عمله فلم يجد له شيئا، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا إله إلا الله. فغفر الله له بكلمة الإخلاص.(٤)

وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله فإنهم يرون ما لا ترون.

وذكر مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ٣٥/أ فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويعيدان له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ماكلمهم به: هو على ملة عبدالمطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله عز وجل: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم(٥)».

وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء(٦).

---

(٢) حديث صحيح روى بصيغ مختلفة كلها صحيحة. انظر جامع الأصول ٣٦٣/٩.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. جامع الأصول ٨٣/١١.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي في الشعب. وإسناده جيد.

(٥) آية ١١٣ التوبة.

(٦) رواه البخاري ١٤٩/٧ في فضائل أصحاب الرسول، وفي الجنائز وفي التفسير، ورواه مسلم رقم ٢٤ في الايمان. والنسائي ٩٠/٤ و ٩١ في الجنائز.

ويروى عن أنس بن مالك أن غلاما من اليهود كان يخدم النبي فمرض، فأتاه ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فعرض عليه الاسلام فقال له أسلم، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم، فقام النبي وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار.(٧)

ذكر هذا الحديث البخاري وأبو داود وغيرهما.

وينبغي أن لايلح على الميت بتلقين الشهادتين. قال ابن المبارك لقنوا الميت لا إله إلا الله، فإن قالها فدعوه، ولأنه يخاف عليه إذا ألح عليه بها أن يبرم ويضجر ويثقلها الشيطان عليه، فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة.

ذكر أبو بكر الدينوري في كتاب المجالسة عن الحسن بن عيسى قال: لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصرٍ مولاه: أجعل رأسي على التراب، قال فبكى نصر. فقال: مايبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هذا تموت فقيرا غريبا، فقال: اسكت فإني سألت الله أن يحييني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء. ثم قال: لقني الشهادة ولا تعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان.

والمقصود أن يموت الرجل ولا يكون في قلبه إلا الله وحده لأن المدار على القلب، وعمل القلب هو الذي ينظر فيه وتكون النجاة بسببه، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ولا خير عندها.

وأما حسن الظن بالله تعالى عند الموت فواجب، قال عليه الصلاة والسلام: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى(٨). ذكره مسلم.

وقال عبدالله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يحسن أحدكم الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه وذلك أن الخير بيده.

وقال عبدالله بن عباس: إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله تعالى: وإذا كان حيا فخوفوه بربه واذكروا له شدة عقابه.

---

(٧) رواه البخاري ١٧٦/٣ في الجنائز. وأبو داود رقم ٣٠٩٥ في الجنائز أيضا.

(٨) رواه مسلم رقم ٢٨٧٧ في صفة الجنة. وأبو داود رقم ٣١١٣ في الجنائز.

وقال المعتمر بن سليمان: قال لي أبي عند موته: يا معتمر[9] حدثني بالرُّخص لعلي أن ألقى الله تعالى وأنا حسن الظن به.

وكانوا يستعجبون أن يذكروا العبد بمحاسن عمله عند موته كي يحسن الظن بربه.

٣٥/ب وقال الفضيل بن عياض: ما دمت حيا فلا يكن شيء عندك أخوف من الله عز وجل، وإذا نزل بك الموت فلا يكن عندك شيء أرجى من الله عز وجل.

ويروى أن حذيفة بن اليمان لما نزل به الموت قال: حبيب جاء على فاقة قد كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك.

ويروى عن الحسن بن الليث قال: رأيت محمد بن محمد الرازي في المنام فقلت له يا أبا عبدالله ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي قلت: بم؟ قال: برجائي له منذ ثمانين سنة.

ودخل واثلة بن الأسقع على رجل فوجده في الموت، فقال: اخبرني كيف ظنك بالله تعالى: فقال الرجل: اغرقتني ذنوبي وأشرفت بي على الهلكة ولكن أرجو رحمة الله تعالى، فكبر واثلة وكبر أهل البيت لتكبيره، وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا ما شاء[10]

ويروى أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال عليه السلام: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه الذي يخاف. أخرجه الترمذي[11].

ورأى بعض الصالحين الحسن بن هانيء بعد موته في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا؟ قال: بأربعة أبيات قلتهن في طي فراشي، فمشى الرجل إلى دار الحسن، فالتمسها فوجدها، وهي:

---

(٩) الاحياء ٤/٤٦٦.

(١٠) رواه البخاري ١٣/٣٢٥ في التوحيد. ومسلم رقم ٢٦٧٥ في الذكر وفي التوبة.

(١١) الاحياء ٤/٤٦٦.

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يرجو المسيء المجرم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل ظني ثم أني مسلم[12]

وقال ثابت البناني: كان شاب به حدة وكانت أمه تعظه وتقول له: يا بني إن لك يوما فاذكر يومك، وإن لك مصرعا فاذكر مصرعك، فلما نزل به أمر الله تعالى اكبّت عليه امه فجعلت تقول: أي بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا، فقال لها يا أمة إن لي ربا كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعذبني بكرمه ورحمته. قال ثابت فرحمه الله عز وجل بحس ظنه بربه[13] أخبر بذلك في النوم أو أخبر به عنه.

وقال جابر بن عبدالله: كان شاب به زهو، فنزل به الموت فقالت أمه: يابني توصي بشيء؟ قال: نعم خاتمي ادفنيني به فإن فيه ذكر الله تعالى فلعله يرحمني. فلما دفن رئي في المنام فقال: اخبروا أمي أن الله قد غفر لي.

وقال ذو النون المصري رحمه الله: كان في جواري شاب مسرف على نفسه كثير الخطايا، فمرض فدخلت عليه أعوده فإذا هو قد مات وأوصى أن يكتب على قبره شيء فرأيته في منامي فقلت له ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي. فقلت: بماذا؟ قال: فكرت في جرمي وفي عفوه فرأيت عفوه أكثر من جرمي. قال ذو النون: فلما أصبحت جئت إلى قبره فإذا عليه مكتوب.

حسن ظني بك يا ... رب جرأني عليك
فارحم اللهم عبدا ... صار رهنا في يديك

ويروى عن بعض الصالحين قال: قال مالك بن دينار: رأيت مسلم بن يسار في

---

(12) الخبر والأبيات انفردت بها نسخة «ل».
(13) الإحياء ٤/٤٦٦.

النوم بعد موته بسنة، فسلمت عليه. فلم يرد علي السلام: فقلت له: لم لا ترد علي السلام؟ قال: وكيف أرد عليك وأنا ميت؟ فقلت له: وماذا لقيت بعد الموت؟ قال: ودمعت عينا مالك عند هذا القول ـ لقيت أهوالا وزلازل وعظائم وشدائد. قال مالك ٣٦/أ فقلت له: فما كان بعد ذلك؟ قال: وما تراه يكون من الكريم إلا الكرم؟ قبل منا الحسنات، وغفر لنا السيئات، وضمن عنا التبعات كما كان حسن ظني به.

قال: ثم شهق مالك شهقته خر مغشيا عليه فلبث في غشيته أياما مريضا ثم مات من مرضه ذلك، وكان يقال إن قلبه انصدع.

ولولا حسن الظن بالله تعالى لهلك الخلق.

وقال عبدالواحد بن زيد: وما كان سبب موت مالك بن دينار إلا هذه الرؤيا، سألته عنها فقصها عليّ فجعل يشهق ويضطرب حتى ظننت أن كبده تقطعت في جوفه، ثم هدأ فحملناه إلى منزله، فلم يزل مريضا منها يعاد حتى مات.

وقال أبوعمر الضرير: حدثني سهيل أخوحازم قال: رأيت مالك بن دينار في النوم بعد موته بسنة، فقلت له: يا أبا يحيى ماذا فعل الله بك؟ وماذا قدمت به عليه؟ فقال: قدمت عليه بذنوب كثيرة فمحاها حسن ظني به تبارك وتعالى.

وقال عمار بن سيف: رأيت الحسن بن صالح في منامي بعد موته فقلت له: لقد كنت متمنيا للقائك فماذا عندك؟ أخبرنا. فقال: لم أر شيئا مثل حسن الظن به تبارك وتعالى.

وأنشدوا:

أحسن الظن برب لم يزل	دائم الإحسان برا لم يمل
من غدت نعماؤه في ذا الورى	جُملا ترفق في إثر جُمل
وسع العالم فضلا وجدا	مرسل العزلاء سجا متصل
وإذا لم تحسن الظن به	فبمن تحسن إن خطْبٌ نزل
وإذا لم ترجه من يرتجى	وإذا لم تسألنه من ذا تسل

فلتطب نفسا عليه وله الـ ... مثل الأعلى والأسنى الأجل

وقالوا أيضا:

احسن الظن ما استطعت بربك ... فالأماني جمعن في حسن ظنك
وإذا ما أصبت يوما بضر ... فإليه اللجا في كشف ضرك
وإذا ما انتحاك أمر عسير ... فهو المرتجى لتيسير أمرك
وذنوب خبأتهن قديما ... وحديثا كسرت عظم ظهرك
تب إليه والجأ منها إليه ... فهو أدنى إليك من ذات نفسك
ودموع الحزين لا تمسكنها ... ولتدعها مساربا تحت نحرك
واقدحن في الضلوع نار متاب ... فعساها تميت نيران روعك
وإذا ما تعاظمتك ذنوب ... فاعتقاد القلوب أعظم ذنبك

ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت. فقال: فإذا مت أين يذهب بي؟ قيل إلى الله تعالى. قال: ما أكره أن يُذهب بي إلى من لا يُرى الخير إلا عنده.



الباب الثالث
في الجنائز وفضل اتباعها

ذكر البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من تبع جنازة مسلم إيمانا واحتسابا وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقراطين، كل قيراط مثل أحد ومن صلى عليها ثم رجع قبل الدفن فإنه يرجع بقيراط[1].

وذكر مسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على جنازة فله قيراط، فإن شهد دفنها فله قيراطان، القيراط مثل أحد[2]

واعلم رحمك الله أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبيها للغافلين وإيقاظا للنائمين. بينما الإنسان في قيام وقعود ونزول وصعود، وخذ هذا ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان وما كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان إذ جاءه أمر إلهي وحادث سماوي وحكم رباني فسكن حركته وأطفأ شعلته، وأذهب نضرته، وتركه كالخشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع وإن دعي لم يجب، وإن قطع أو أحرق لم يتكلم. إن ربك على ما يشاء قدير.

ولكن حب الدنيا وحجاب الهوى الذي غطى القلوب وأعشى[3] البصائر يمنع الفكرة في الجنائز والاعتبار بها، فصارت لا تزيد رؤيتها إلا غفلة، ولا مشاهدتها إلا قسوة، حتى كأن الميت إنما هو نائم يستيقظ بعد ساعة ويهب عن

---

(١) البخاري ٣/١٥٨ في الجنائز. جامع الأصول ٩/٤٤٣.

(٢) مسلم رقم ٩٤٦ في الجنائز. نفس المرجع. والقيراط في أصل اللغة هو عرض الأصبع.

(٣) أعشى: العشى ضعف البصر وقد يطلق على العمى.

قريب، أو كأن الذي يراها لا يكون مثلها ولا يدخل مدخلها، وكأن ذلك الميت نزل به ملك الموت وحده وإياه قصد خاصة.

نعم يعلم الانسان منا أن سيموت كما مات هذا ٣٦/ب وتشيع جنازته كما شيعت جنازة هذا، وربما مات بحيث لا تشيع جنازته ولا توارى له جثة، ولكن لا يظن ذلك عن قريب، ولا يحسب أنه منه غير بعيد، قد فسح لنفسه في المدة ومدّ لها في المهلة، وحكم أنه لا يموت إلا بعد سنين، وإن قال ربما أموت اليوم أو غدا فقول ضعيف لا يتحرك منه بسببه ساكن، ولا يظهر عليه منه أثر نازل، لأنه عند رؤية الجنازة كما كان قبل أن يراها وربما يحدث بحديثه الذي كان يتحدث والميت يدفن أو هو وراءه يشيعه إلى قبره، وإن جاءه ضحكٌ ضَحِكَ، وإن حضره نادر من لغو الكلام تكلم به وأودعه صحيفته وبعث به إلى ربه.

وقلما يبكى على الجنازة إلا أهلها تألما لفراقها لا لنفس الموت، كبكاء الصبي والمرأة اللذين لا يعقلان ولا يعلمان، ولو كانوا يعلمون لكان بكاؤهم على أنفسهم لا على ميتهم، لأن ميتهم قد مات وهم ينتظرون الموت.

وأنشدوا:

أعاذل[٤] حتى ما تعذليني	إن لم تعينيني فاتركيني
لومي بما شئت من ملام	ووبخيني وفنديني
ولا تظني بأن حزني	وسقم جسمي وما تريني
أثار ذاكم إن مات ميت	قد كان دنياي ذا ودين
تركته في القبور فردا	وحييت في دمعة الحزين
لا والذي جوده يرجى	كل أوانٍ وكل حينِ
ما أنا باك إلا لنفسي	لا لقريب ولا خدينِ
ومصرع للمنون ضيق	أتل فيه على الجبين
أؤخذ فيه من كل أفق	أخذ شديد القوى متين
فمن أمامي ومن ورائي	وعن شمالي وعن يميني
وفوق رأسي معا وتحتي	من حيث ما رحت يلتقيني

(٤) العاذل: اللائم.

ولا احتيال ولا افتداء لا برفيع ولا بدون
فخلّني عاذلي وشأني فليس شأني من ذي الشئون

واعلم أن الجنازة تمر بالانسان ولا يدري حالها، ولا يتبين حقيقة مصيرها، وإنما يرجى لها بحسب ما ظهر منها من الطاعات، ويخاف عليها بحسب ما بدا منها من المخالفات، وإن لها كلاما لو سمعه الانسان لانصدع له حجاب قلبه وشغله عن بنيه وأهله، بل أذهله عن النظر في خاصة نفسه.

ذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت قدّموني قدّموني، وإن كانت غير صالحة قالت يا ويلتي اين تذهبون بي، يسمع صوتها كل شيء إلا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق(٥).

وهما ميتان: فميت يستريح من تعب هذه الدار ويفضي إلى راحة دار القرار، وميت يستريح منه البلاد والعباد ويفضي إلى سوء المصير وبئس المهاد.

ذكر أبو قتادة قال: مرّ على رسول الله ﷺ بجنازة، فقال: مستريح أو مستراح منه. فقالوا: يارسول الله ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وإيذائها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب(٦).

وذكر هذا الحديث مسلم بن الحجاج وغيره.

وربما يكون منا من يهتز عند رؤية الجنازة ويرتاع عند مشاهدتها ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله إلا بمقدار ما يكون بين يديه أو ساعة تمر عليه.

[قال أبو عمرو بن العلاء:] جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول:

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

---

(٥) البخاري ٣/١٤ في الجنائز. والنسائي ٤/٤١. جامع الأصول ١١/١٢٧.

(٦) رواه مسلم رقم ٩٥٠ في الجنائز، والبخاري ١١/٣١٤ في الرقاق ومالك في الموطأ ١/٢٤١ و ٢٤٢ في الجنائز، والنسائي ٤/٤٨ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٦٣.

كروعــة ثلة[7] لمغــار ذئــب فلما غاب عادت راتــعــات

وكأن هذا البائس الغافل لم يسمع برجل قد شيع جنازة ثم مات المشيع بعد جمعة، وربما كان بعد يوم واحد ٣٧/أ أو أقل من يوم، أو كأنه لم يعلم أن هذا الميت كان طويل الأمل ممتد الرجاء، يطمع في العيش ويحرص على البقاء، حتى هجم عليه ملك الموت في الوقت الذي لم يكن يظن به وقام معه من المكان الذي لم يكن يحسبه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقـد كان السلف الصـالـح رضي الله عنهم بخـلاف هذا، كانوا إذا رأوا الجنائز نظروا إليها نظر المعتبرين، وتكلموا عندها بكلام الموفقين، وكانوا يقولون القول ويعملون بمقتضاه.

وسأذكـر لك من كلامهم وأحكي لك من أقـوالهم ما أمكنني، لعله يحرك منك ساكنا ويوقظ منك نائما. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا رأى جنازة قال: امض ونحن على أثرك.

وكان مكحول الدمشقي رحمه الله إذا رأى جنازة قال: اغد فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له[8].

ومـرت بالحسن البصـري رحمـه الله جنـازة فقـال: ياـلهـا موعظة ما أبلغها وأسرع نسيانها، يالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ثم قال: يا غفلة شاملة للقوم، كأنهم يرونها في النوم. ميت غد يدفن ميت اليوم.

وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى ما يفعل بالميت وما هو صائر إليه[9].

ولـمـا مات أخـو مالـك بن دينـار خرج مالـك في جنازته، فوقف على قبره

---

(٧) الثلة: بفتح الثاء وتشديدها: قطيع الغنم. والمغار: الإغارة.

(٨) الإحياء ٤/٤٨٤.

(٩) نفس المصدر.

وبكى ثم قال: والله يا أخي لا تقر عيني بعدك حتى أعلم إلى ما صرت إليه، ولا والله لا أعلم ذلك ما دمت حيا.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزَّى فيها لكثرة الباكين، وإنما بكاؤهم على أنفسهم لا على الميت.

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكيا[10]

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يشهدون الجنازة فيرى فيهم ذلك أياما كأن فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت.

وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه، أنه كان يلقى الرجل في الجنازة من خاصة إخوانه قد بعد عهده به فلا يزيده على السلام حتى يظن الرجل أن في صدره عليه موجدة[11]، كل ذلك لانشغاله بالجنازة وتفكره فيها وفي مصيرها، حتى إذا فرغ من الجنازة لقيه وسأله ولاطفه وكان منه أحسن ما عهد.

ورأى عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ رجلاً يضحك في جنازة، فقال: أتضحك وأنت في جنازة؟ والله لا أكلمك أبدا.

وفي الخبر أن الله يكره لكم ثلاثا، العبث في الصلاة، والرفث[12] في الصوم، والضحك عند المقابر.

ولما مات ذر بن عمر بن ذر ووضع في قبره قال أبوه عمر: يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ولدي ذر متعتني به ما متعتني، ووفيته أجله ورزقه ولم تنقصه حقه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، وإني قد وهبت له ما فرط فيه ٣٧/ب من طاعتي، فهب له ما فرط فيه من طاعتك. اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت ذلك له فهب لي عذابه ولا تعذبه وأنت أجود الأجودين وأكرم الأكرمين.

---

(١٠) الإحياء ٤/٤٨٤.

(١١) موجدة: غضب.

(١٢) الرفث: الفحش، دواعي الجماع.

قال: فأبكى النـاس، ثم قال عند انصرافه: يا ذر ما علينا بعدك من خصاصة، وما بنا مع الله إلى إنسان من حاجة.

ياذر مضينا وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك. [١٣]

ألا ترى إلى هذا لم يشغله الحزن على ولده وثمرة كبده عن الحزن بما قال وبما قيل له، لأنهم إنما كانوا يقدمون الأهم فالأهم ويبدأون بالأعظم فالأعظم.

يروى عن الأصـمـعي قال: حجت امـرأة من العـرب ومعهـا ابن لها فأصيبت به، فلما دفن قامت على **قبره وهي** موجعـة فقـالت: يا بني والله لقـد غذوتـك رضيعـا، وفقـدتـك **سريعـا، وكأن** لم يكن بين الحالتين مدة ألتـذ فيهـا بعيشـك وأتمتـع فيهـا بالنظـر إلى **وجهـك** وبقيت مدة أتـذكرك فيها وأذوب فيها بالحزن عليك[١٣].

ثم قالت: اللهم منـك العدل، ومن خلقك الجود، اللهم وهبتني قرة عيني فلم تمتعني به كثيرا بل سلبتنيه وشيكا ثم أمرتني بالصبر عليه ووعدتني الأجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك اللهم ارحم غربته واستر عورته يوم تنكشف العورات وتظهر السوآت، فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم ووسدته الثرى.

فلما أرادت الخروج إلى أهلها وقفت على قبره وقالت: أي بني قد تزودت لسفري من الدنيا فليت شعري ما زادك لسفرك ويوم معادك؟ اللهم أسألك الرضى له برضاي عنه. ثم قالت: استودعك من استودعنيك جنينا في الأحشاء وأذاقني عليه غصة الثكلى. واثكل الولدات ما أقل أنسهن وأشد وحشتهن.

وصلّت عند قبره ركعتين وانصرفت:

ولعلك[١٥] ياهـذا ممن يلبس النعش الثيـاب الملونـة، ويجعل عليه الأردية المصبغة، ويحليه الحلية المبيضة، ويخرجه كالفتاة المحلاة، والعروس المجلاة، ولا يتفكـر في ميتـه هل كسي أثـواب الحـريـر أوقطـران السعير، وإنه لموضع الفكرة وإرسال العبرة وإطالة العويل والحسرة.

---

(١٣) الإحياء ٤/٤٨٩.

(١٤) هذه العبارة من وبقيت سقطت من ش و ز.

(١٥) من هنا إلى: اثواب زهرتها، انفردت به نسخة «ل».

وأنشدوا :

وألبسوا النعش أثوابا ملونة ... مثل العروس تقام عند جلوتها
مثل العروس تنص في منصتها ... لتستميل قلوباً بزينتها
وفيه ميت أزال الله نضرته ... كالأرض قد زال عنها ثوب نضرتها
وشيعوه جماعات تطوف به ... تعشى العيون بمرآها وكثرتها
من بين باك يكف فيض دمعته ... وبين صارخة تعدي بصرختها
حتى أتوا حفرا إزاء بلدتهم ... فغادروه بها رهين وحشتها
وما دروا هل تلقته بنفحتها ... دار المقامة أو لظى بلفحتها
ثم انثنوا نحو أموال قد احرزها ... للنائبات فحازوا بجملتها
وذاكم البائس المغرور ما دفعت ... عنه القضاء ولا استشفى بلذتها
لكن تحمّل منها كل فادحة ... من الكبائر لا يقوى لعدتها
ومن ترفعه الدنيا وتسعفه ... فهو المحير مغمور بحسرتها
فما بكته السماء والأرض حين مضى ... ولا الرياض نضت أثواب زهرتها



الباب الرابع
في الثناء الحسن على الميت والثناء السوء

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أنس بن مالك قال: مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرا، فقال نبي الله ﷺ: وجبت وجبت وجبت ومُرّ بجنازة فأثني عليها شرا فقال: وجبت وجبت وجبت فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فداك أبيَ وأمي، مر بجنازة فأثني عليها خيرا فقلت وجبت، ومر بجنازة فأثني عليها شرا فقلت وجبت فقال رسول الله ﷺ: من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، وأنتم شهداء الله في الأرض.

وفي بعض طرق البخاري فقيل يارسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت؟ قال: شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله في الأرض[1].

وعن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: من شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قلنا: وثلاثة؟ قال وثلاثة، قلنا: واثنان؟ قال واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد. وهذا الحديث مخصوص. والله أعلم.

والذي قبله يعطى العموم وإن من كثرت شهوده وانطلقت ألسنة المسلمين ٣٨/أ فيه بالخير والثناء الصالح كانت له الجنة والله أعلم. وغير مستكثر إذا أحب الله عبدا أن يلقي على ألسنة المسلمين الثناء عليه وفي قلوبهم المحبة له. قال الله تبارك وتعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا. وقال عليه السلام: إذا أحب الله عبدا دعا جبريل عليه السلام

(١) مسلم رقم ٩٤٩ في الجنائز، والبخاري ٣/ ١٨١ في الجنائز، والترمذي رقم ١٠٥٨ في الجنائز، والنسائي ٤/ ٤٩ و ٥٠ في الجنائز. جامع الأصول ٩/ ١٨٠.

فقال: إن الله يحب فلانا فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. وذكر في البغض مثل ذلك وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج وغيره.

وقد شُهِد رجال من المسلمين علماء وصالحون كثر الثناء عليهم وصرفت القلوب إليهم في حياتهم وبعد مماتهم، ومنهم من كثر المشيعون والحاملون لجنازته والمشتغلون به. وربما كثر الله الخلق بما شاء من الجن والانس وغيرهم مما يشاء يكونون في صور الناس.

ذكر قاسم بن أصبغ قال حدثنا أحمد بن زهير قال حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي قال: مات عمرو بن قيس الملاي بناحية فارس، فاجتمع بجنازته ما لا يحصى عددهم من الخلق، فلما دفن نظروا فلم يروا أحدا، قال الرفاعي: سمعت هذا ممن لا أحصي كثرة.

وكان سفيان الثوري يتبرك بالنظر إلى عمرو بن قيس هذا.

ولما مات أحمد بن حنبل رضي الله عنه صلى عليه من المسلمين ما لا يحصى، فأمر المتوكل أن يمسح موضع الصلاة عليه من الأرض، فوجدوا موقف ألفي ألف وثلاثمائة ألف[2] أو نحوها.

ولما انتشر خبر موته أقبل الناس من البلاد يصلون على قبره فصلى عليه مالا يحصى.

ولما مات الأوزاعي رضي الله عنه اجتمع للصلاة عليه خلق لا يحصى. ويروى أنه أسلم ذلك اليوم من أهل الذمة اليهود والنصارى نحو ثلاثين ألفا لما رأوا من كثرة الخلائق عل الجنازة، ولما رأوا من العجب ذلك اليوم.

ولما مات سهل بن عبدالله التستري رحمه الله انكب الناس على جنازته وحضرها من الخلق مالا يعلمه إلا الله، وكان في البلد ضجة فسمع بها يهودي شيخ كبير، فخرج فلما رأى الجنازة صاح وقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: وماترى؟ قال: أرى قوما ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة. ثم أسلم وحسن إسلامه.

---

(٢) أي مليونين وثلاثمائة ألف من الناس.

ويقال إن الكعبة لم تخل من طائف يطوف إلا يوم مات المغيرة بن حكيم فإنها خلت لانحشار[3] الناس بجنازته تبركا بها ورغبة في الصلاة عليها.

وقد شوهد من جنائز الصالحين من تشيعها الطير وتسير معها حيث سارت. حدث بذلك الثقات.

وذكر أبو الحسن بن جهضم قال: أخبرنا محمد بن جعفر أبو الحسن ساكن دمشق قال سمعت أبا بكر المصري يقول: لما مات أبو الفيض ذو النون المصري بالجيزة: حمل في قارب مخافة أن تتقطع الجسور من كثرة من شيع جنازته من الناس. وكنت قائما مع الناس على كوم أنظر، فلما أخرج من القارب ووضع على الجنازة - يعني ٣٨/ب النعش، وحمله الرجال على أعناقهم رأيت طيورا خضرا قد اكتنفت الجنازة ترفرف عليها، حتى عطف به إلى حمام المغار وغاب عني. قال أبو بكر: فحدثت به خالي الحسن بن يحيى، فقال: قد رأيت مثل هذه الطيور على جنازة أبي إبراهيم المزني، وذكر مرثاة رثى بها، فقال منها:

ورأيت أعجب ما رأيت ولم أكن … من قبل ذاك رأيته لمشيع
طيرا ترفرف نعشه وتحفّه … حتى توارى في حجاب المضجع
قد احتجبن عن العيون ولم أحط … علما بكنه مسيره في المرجع
وأظنها رسل الاله تنزلت … والله أعلم فوق ذاك الشرجع[4]

ويجب ألا يحتقر أحد من المسلمين وإن كان ظاهر الفسوق فلعل له بطانة من خير وخبيئة من عمل صالح، ولأنه أيضا قد صار إلى أرحم الراحمين.

وحكى أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه وتحامي الناس له، فاستأجرت امرأته حمالين يحملونه إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملوه إلى الصحراء ليدفنوه بها، وكان بالقرب من الموضع جبل فيه رجل من

---

(٣) انحشار: اجتماع.
(٤) الشرجع: السرير يحمل عليه الميت. النعش.

الـزهـاد الكبـار، فنزل ذلك الزاهد للصلاة عليه فانتشر الخبر في البلد وقالوا نزل فلان ليصلي علي فلان، فخرج الناس فصلوا عليه مع الزاهد وجعلوا يتعجبون من صلاته عليه، فقال لهم: إني قيل لي في المنام انزل إلى الموضع الفلاني ترى فيه جنازة رجل ليس معها أحد إلا امرأته فصل عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب النـاس، فاستـدعى الزاهد زوجته فسألها عن ذلك وكيف كانت سيرته، فقالت كان كما سمعت، كان طول النهار في الماخور مشتغلا بشرب الخمر. فقال انظري هل تعرفين له شيئا من أفعال الخير؟

قالت: لا والله إلا أنه كان يفيق في كل يوم من سكره عند صلاة الصبح فيبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح ثم يعود إلى ماهو عليه فيشتغل بشربه ولهوه، وكان لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين يفضله على ولده، وكان يفيق في أثناء سكره فيبكي ويقـول: إلهي أي زاويـة من زوايـا جهنم تريـد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه.

وكذلك إن كان الميت منبوذا أو مطروحا لا يعرف أو لا يحضره أحد فلا تحتقره ولا تنظر إلى الظاهر من حاله.

يروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. ذكره مسلم بن الحجاج(٥).

ومن غير كتاب مسلم: رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره.

ويروى عن عمر بن عثمان بن شعبة قال: رأيت في بعض الليالي في المنام كأن قائلا يقول لي: إذا كان غدا فأت مصلى خولان فصل على ولي لنا. قال: فخـرجت ٣٩/أ قبـل طلوع الفجـر خوف أن يفوتني، ثم قعدت إلى قريب من غروب الشمس فلم يؤت بميت إلى ذلـك المصلى، قال: فانصـرفت فبينما أنا بين الآكـام إذا أنـا بميت على رأس حمال على فرد باب وعليـه عبـاءة فقـال لي الحمال ياهذا إن هذا الميت رجل غريب فهل لك أن تصلي عليه؟ فقلت في نفسي

---

(٥) مسلم رقم ٢٦٢٢ في البر والصلة، وفي صفة الجنة، جامع الأصول ٤/٦٧٧.

أنا قاعد له منذ اليوم، قال: فصليت عليه، ثم قال لي الحمال: ادخل معي حتى نواريه، فنزلت في قبره، فصوّبه عليٍّ فأضجعته وحللت العقدة من عند رأسه، فالتفت الميت إليّ وقال سوف أشكرك عندالله غدا يا عمر، ثم عاد كما كان.

ويروى عن أبي علي الروذباري قال: قدم علينا فقير فمات فدفناه، فكشفت عن خده فجعلته على التراب ليرحم الله غربته ففتح عينيه وقال: يا أبا عليّ أتذللني بين يدي من يدللني؟ فقلت: ياسيدي أحياة بعد الموت؟! فقال: بلى أنا محب لله وكل محب لله فهو حي، ياروذباري لأنصرنك غدا لجاهي عنده.

وقال أبو سعيد الخراز: كنت بمكة فجزت[٦] على باب بني شيبه فرأيت به شابا حسن الوجه ميتا، فنظرت في وجهه فتبسم في وجهي وقال يا أبا سعيد أما علمت أن الأحبّاء أحياء، وإن ماتوا فإنما ينقلون من دار إلى دار.

واعلم رحمك الله أن الميت وإن كان لا يتكلم فقد يُسمع الله تعالى كلاما منه ويرد به على صورة حياة بشارة له بصلاته عليه ودفنه إياه واشتغاله به.

وقد حدثني الفقيه أبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى القرشي قال لما مات أبي غسله المقريء أبو الحسن بن عطية، فقال لي أبو الحسن: لما كشفت الثوب عن وجهه لأغسله ضحك في وجهي لا أشك في ذلك ولا أرتاب.

وإذا جاز الخبر الأول جاز هذا أيضا فأبو القاسم وأبو الحسن صادقان عدلان من أهل المعرفة والذكاء.

وذكر الوليد بن عثمان وكان من الصالحين قال: قدم علينا في إشبيلية رجل أسود، فأقام في المسجد الذي كنت فيه، ثم انتقل عنه لعلة أصابته، فأقام في فرن يرقد فيه على الحطب ويُتصدق عليه، ثم إنه مات فنقلته إلى داري لأغسله، فكشفت عنه الثوب لأغسله فبينما أنا أغسله إذ رأيت وجهه قد ابيض بياضا شديدا وصار مثل القمر ليلة البدر حسنا، وعم البياض وجهه وعنقه خاصة دون سائر جسده، فراعني ما رأيت وأرعدت وأصابني دهش عظيم، فرددت الرداء على وجهه وخرجت فأنذرت جماعة من أصحابي وجئت بهم معي وأعلمتهم قصته، فلما كشفوا الرداء عن وجهه راعهم حسنه وجماله وابيضاضه،

---

(٦) جزت: مررت.

وسـائـر جسـده أسود كما كان . وتسامع الناس به فما كدنا نبلغ قبره إلى الليل من كثرة الزحام على نعشه وكثرة من حضر جنازته رحمه الله .

ذكر هذه القصة ابن مغيث في كتاب التهجد، وذكرها غيره أيضا .

وذكر عمر بن ذر أنه مات رجل من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتحامى[7] كثير من الناس جنازته فلم يحضرها، وحضرها عمر، فلما دفن وقـف على قبره فقال : يرحمـك الله فلقـد عشت عمـرك بالتـوحيد وعفّرت وجهك بالسجود، وإن قالوا ٣٩/ب مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وذي خطايا

* * *

---

(٧) تحامى : ترك واجتنب.

الباب الخامس
ما يقال عند حضور الميت وما جاء في البكاء عليه

ذكر مسلم بن الحجاج عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون.

قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله إن أبا سلمة قد مات، قال: قولي اللهم اغفر لي وله، واعقبني منه عقبى حسنة، قالت: ففعلت، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمدا ﷺ(1).

وعنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه ثم قال لي: إن الروح إذا قبض تبعه البصر. فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه(2).

وأبو سلمة هذا كان زوج أم سلمة.

وعن أم سلمة قالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غربة، لأبكينه بكاء يتحدث به عنه، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذ أقبلت امرأة من

---

(1) مسلم رقم ٩٢٠ في الجنائز جامع الأصول ١١/٨٥.

(2) مسلم رقم ٩٢٠. وأبو داود رقم ٣١/٥ في الجنائز. جامع الأصول ١١/٨٤.

الصعيد[٣] تريد أن تسعدني[٤] فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال: أتريدين أن يدخل الشيطان بيتا أخرجه الله منه مرتين؟ قال: فكففت عن البكاء فلم أبك.

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: لما طعن عمر أغمي عليه، فصيح عليه، فلما أفاق قال: أما علمتم أن رسول الله ﷺ قال: إن الميت ليعذب ببكاء الحي.

وعن عمر أيضا في هذا الحديث قال: قال رسول الله ﷺ: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: المعولُ عليه يعذب.

وعن ابن عباس قال: لما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة يعني قول عمر عن رسول الله في البكاء على الميت فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ قط أن الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه قال: إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه. وقالت عائشة: حسبك القرآن: «لا تزر وازرة وزر أخرى». قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكي.

وعن عروة بن الزبير قال: ذكر لعائشة أن ابن عمر يرفع إلى النبي ﷺ: ان الميت يعذب في قبره ببكاء أهله».

فقالت: إنما قال رسول الله: إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن[٥].

وعن عمرة بنت عبدالرحمن أنها سمعت عائشة رضي الله عنها وقد ذكر لها أن عبدالله بن عمر يقول: إن الميت ٤٠/أ ليعذب ببكاء الحي، فقالت عائشة: يغفر الله لأبي عبدالرحمن أما انه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله ﷺ بيهودية يبكى عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها[٦].

---

(٣) الصعيد الأرض المرتفعة: والحديث أخرجه مسلم رقم ٩٢٢ في الجنائز.

(٤) تسعدني: تعاونني وتشاركني البكاء.

(٥) أخرجه الروايات السابقة البخاري ٣/١٢٧. ومسلم رقم ٩٢٨ في الجنائز. والنسائي ٤/١٨ في الجنائز. جامع الأصول ١١/٩١.

(٦) أخرجه البخاري ٣/١٢٨ في الجنائز. ومسلم رقم ٩٣١ في الجنائز. ومالك في الموطأ ١/٢٣٤ في الجنائز. والنسائي ٤/١٧ في الجنائز. جامع الأصول ١١/٩٤.

قد صح حديث عمر وابن عمر رضي الله عنهما في تعذيب الميت ببكاء الحي من حديثهما، وصح أيضا من حديث المغيرة بن شعبة.

وذكر مسلم بن الحجاج عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة.

وعائشة رضي الله عنها إنما حدثت بما سمعت، وأنكرت مالم تسمع وقال بعض العلماء أو أكثرهم: إنما يعذب الميت ببكاء الحي عليه إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره، أو يكون قد وصي به.[٧]

وقد روى ما يدل على أن الميت يصيبه عذاب ما ببكاء الحي وإن لم يكن من سنته ولا من اختياره ولا مما أوصى به.

ذكر ابن أبي خيثمة من حديث قيلة بنت مخرمة ـ وذكرت عند رسول الله ﷺ ولدا لها مات ثم بكت فقال رسول الله ﷺ: أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به منه استرجع ثم قال: اللهم أثبني فيما أمضيت، وأعنّي على ما أبقيت، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه، فياعباد الله لا تعذبوا اخوانكم، وإسناده لا بأس به.

ومساق هذا الحديث يدل على أن بكاء هذه لم يكن من اختيار ابنها، لأن ابنها صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا كان هذا البكاء المعروف في الجاهلية الذي كان من اختيار الميت ومما يوصي به.

ذكر البخاري من حديث النعمان بن بشير قال: «أغمي على عبدالله بن رواحة، فجعلت أخته تبكي وتقول: واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئا إلا قيل لي: أأنت كذلك؟ فلما مات لم تبك عليه[٨]» وهذا أيضا لم يكن من سنة عبدالله بن رواحة ولا من اختياره ولا مما أوصى به لأن منصبه في الدين أجل وأرفع من أن كان يأمر بهذا أو يوصي به.[٩]

---

(٧) هذا القول هو الصحيح إذ لا يعقل أن يعذب الميت لأمر لا دخل له فيه وليس من عمله. والله تعالى إنما يعذب الناس بما فعلوا لا بما يفعله غيرهم.

(٨) البخاري ٣٩٧/٧ في المغازي.

(٩) نقل القرطبي هذا الكلام حرفيا في التذكرة ص ١٠٣.

وفي هذا الباب حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «الميت يعـذب ببكاء الحي عليه[10] إذا قالت النائحة: واعضداه واناصراه واكاسباه جذب الميت وقيل له: أأنت عضدها؟ أأنت ناصرها؟ أأنت كاسبها؟ ذكره ابو عمر بن عبدالبر في الاستذكار.

وأيضا فإن البكاء عند العرب يكون البكاء المعروف وتكون النياحة، وقد يكـون معهـا الصيـاح وضـرب الخـدود وشق الجيوب، ولا أعلم خلافا أن ذلك حرام، وقد ورد الوعيد[11] على هذا كله.

ذكـــر مسـلم بن الحجــاج رحمــه الله من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعـري قال: وجـع أبـو موسى وجعـا، فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئا، فلما أفاق قال: أنا بريء ممن بريء منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله بريء من الصالقة والحالقة والشاقة.

وفي لفـظ آخـر عن عبـدالرحمن بن يزيد وأبي بردة قالا: أغمى على أبي موسى فأقبلت امرأته أم عبدالله تصيح برنّةٍ، ثم أفاق، فقال: ألم تعلمي، وكان يحدثها أن رسول الله ﷺ قال: أنا بريء ممن حلق وصلق وخرق[12].

الصــالقـة هي التي ترفع صوتها بالعويل عند المصيبة، والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة التي تشق ثوبها، كل ذلك عند المصيبة.

ذكر مسلم أيضا من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ٤٠/ب ودعا بدعوى الجاهلية.[13]

وعن أبي هريــرة عن النبي ﷺ: قال: اثنتــان في النــاس هما بهم كفـر:

---

(١٠) رواه البخاري ١٢٨/٣ وليس فيه إذا قالت الخ. جامع الأصول ٩٧، ٩٩.

(١١) الوعيد: الوعد بالعذاب والتهديد به.

(١٢) رواه البخـاري ١٣٢/٣ في الجنـائـز. ومسلم رقم ١٠٤ في الايمان. وأبوداود رقم ٣١٣٠ في الجنائز. والنسائي ٢٠/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١٠٤/١١.

(١٣) البخاري ١٣٣/٣ في الجنائز. ومسلم رقم ١٠٣ في الايمان. والترمذي رقم ٩٩٩ في الجنائز. والنسائي رقم ٢٠/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١٠٤/١١

الطعن في النسب، والنياحة على الميت.[14]

وعن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الاحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت[15].

وقال: النائحة على الميت إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب[16].

وأما البكاء من غير نياحة فقد ورد فيه الإباحة، وهو بكاء الرحمة والرأفة التي لا يكاد يخلو منها البشر، ولا يوجد قلب إلا وبه منها أثر.

وقد قال عمر رضى الله عنه: دعهن يبكين على أبي سليمان مالم يكن نقع أو لقلقه. والنقع: ارتفاع الصوت، واللقلقة تتابع ذلك.

وقال أبو عبيدة: قال بعضهم يريد عمر بالنقع وضع التراب على الرأس. قال أبو عبيد: وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، واللقلقة: رفع الصوت.

وأما حديث النبي ﷺ في هذا الباب في إباحة البكاء من غير نياحة ولا صياح فصحيح مشهور.

ذكر مسلم بن الحجاج عن أسامة بن زيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا أو ابنا لها في الموت، فقال للرسول: ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار بأجل المسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب. فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها. قال: فقام الرسول ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها شنٌّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ماهذا يارسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب العباد، وإنما يرحم الله من

---

(١٤) رواه مسلم رقم ٦٧ في الإيمان. جامع الأصول ١١/٧٣٨.

(١٥) رواه مسلم رقم ٦٧ جامع الأصول ١١/٧٣٨.

(١٦) رواه مسلم في الجنائز وهو جزء من الحديث الذي نقدمه. انظر جامع الأصول ١١/١١٠.

عباده الرحماء.[17]

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ولد لي الليلة غلام سميته باسم أبي إبراهيم. وذكر الحديث وفيه: فدعا النبي ﷺ بالصبي فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول: قال أنس: لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله، فقال: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون[18].

قوله يكيد بنفسه: يعني يموت.

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتى رسول الله ﷺ يعوده مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: أوقد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فبكى رسول الله ﷺ. فلما رأى القوم بكاءه بكوا فقال: ٤١/أ ألا تسمعون؟ إن الله عز وجل لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، وإنما يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم[19].

وذكر أبو عبدالرحمن النسائي من حديث أبي هريرة قال: مات رجل من آل رسول الله ﷺ فاجتمع النساء يبكين عليه، فقام عمر ينهاهن، فقال رسول الله ﷺ دعهن ياعمر فإن العين دامعة، والفؤاد مصاب، والعهد قريب.[20]

وعن جابر بن عبدالله قال: قتل أبي يوم أحد فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وجعل الناس ينهونني، ورسول الله لم ينهني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال رسول الله ﷺ تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه.

---

(١٧) مسلم رقم ٩١٣ في الجنائز، والبخاري ٣/١٢٤ و١٢٦ في الجنائز، وفي المرضى، وفي القدر، وفي الأيمان والنذور، وفي التوحيد. والنسائي ٤/٢٢ في الجنائز. جامع الأصول ٩٠/١١.

(١٨) رواه مسلم رقم ٢٣١٥ في الفضائل. جامع الأصول ٢٢٢/١١.

(١٩) رواه البخاري ٣/١٤٠ في الجنائز، ومسلم رقم ٩٢٤ في الجنائز جامع الأصول ١٠٢/١١.

(٢٠) النسائي ٤/١٩ في الجنائز. جامع الأصول ٩٥/١١.

ويروى عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما مات عثمان بن مظعون كشف رسول الله ﷺ الثوب عن وجهه، وقبّل بين عينيه وبكى بكاء طويلا، فلما رفع على السرير قال: طوبى لك يا عثمان، لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها. وبكاء النبي ﷺ على عثمان بن مظعون مشهور، وذكره ابو داود وغيره.

وأما نعي الميت والإعلام بموته إذا قصد بذلك اجتماع الناس للصلاة عليه لما يناله من دعائهم له واستغفارهم ورغبتهم إلى الله تعالى فيه وسؤالهم، ولما ينالون أيضا من ثواب الصلاة عليه، فمنه مفروض ومندوب إليه، ومنه غير جائز.

وقد نعى[21] النبي ﷺ النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وقال: استغفروا لأخيكم، وخرج بالناس إلى المصلى فصف بهم وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات.

وكان موت النجاشي ببلد بعيد عن مدينة النبي ﷺ.

ذكر نعي النجاشي والصلاة عليه مسلم بن الحجاج وغيره من حديث أبي هريرة وغيره.

وقد نعى النبي ﷺ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، نعاهم قبل أن يجيء خبرهم، وعيناه تذرفان.

وقد قال عليه السلام: لا يموت فيكم ميت إلا أعلمتموني به.[22] فأمر بأن يعلم بكل ميت من المسلمين ليصلي عليه، لما في صلاته ﷺ من البركة والرحمة، ولإقامة سنته أيضا في الصلاة على موتى المسلمين، وفي صلاة المسلمين بعضهم على بعض، ودعاء بعضهم لبعض.

وقال ﷺ إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء.

ذكره أبو داود من حديث أبي هريرة.

وقال[23] عليه السلام: من صلى على جنازة ولم يتبعها فله قيراط فإن

---

(٢١) نعاه: أخبر بموته.

(٢٢) رواه النسائي ٤/٨٤ في الجنائز جامع الأصول ٦/٢٤١.

(٢٣) من هنا إلى غيره سقط من ش.

تبعها فله قيراطان. قيل: وما القيراط؟ قال أصغرهما مثل أحد. يريد مثل جبل أحد. (٢٤)

ذكره مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وغيره.

وأما إذا كان نعي الميت والإعلام بموته ليجمع الناس عليه على معنى التعظيم له والمصيبة بفقده، والتفاخر بما يجتمع له من الناس، ويحضره من الاشراف، فهذا لا يجوز.

وعلى هذا يخرج نهي النبي ﷺ عن النعي.

ذكر الترمذي من حديث حذيفة بن اليمان قال: إذا مت فلا تؤذنوا(٢٥) بي أحدا، إني أخاف أن يكون نعيا، فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي. وأما المفروض من هذا الباب فهو أن يدعى للصلاة على الميت من تقوم به سنة الصلاة عليه.

* * *

(٢٤) مسلم رقم ٩٤٦ في الجنائز. جامع الأصول ٩/٤٤٣.

(٢٥) تؤذنوا: تُخْبِروا.

الباب السادس
ما يحذر من سوء الخاتمة
وما سبق من ذلك لأكثر الخلق في السابقة

اعلم رحمك الله أن هذا أمر إذا ذكر حقيقة ذكره انفطرت[1] ٤١/ب له **القلوب،** وتشققت وانصدعت له الأكباد وتقطعت، ولولا أن الآجال محدودة، **والأنفاس** معدودة، فلا يتجاوز ذلك المحدود، ولا يزاد على ذلك المعدود، لزهقت[2] الأنفس عند أول ذكره زهوقا لا تجد لسرعته طعم وفاة، بل تكاد تنعدم معه انعداما لا تعود معه إلى وجود ولا حياة، ولكنها مربوبة[3] مدبرة مقهورة مصرّفة تخرج إذا أذن لها في الخروج، وتلج إذا أذن لها في الولوج، وقد كتب عليها الوجود والبقاء فلا انعدام ولا مطمع لها في ذلك ولا مرام.

وما يمنع القلوب رحمك الله من الانشقاق والانصداع والانفطار والانقطاع، والذي يلقى المختوم له بهذه الخاتمة عذاب لا تقوم السموات والأرض لشدته، ولا آخر لمدته، وما منا أحد إلا ويخاف أن يكون هو، وما الذي أمنه منه؟ وما الذي حاد به عنه، والخاتمة مغيبة والعاقبة مستورة، والأقدار غالبة، والنفس كما تدري، والشيطان منها بحيث تدري، وهي مصغية[4] إليه ملتفتة نحوه، مقبلة عليه.

---

(١) انفطرت: انشقت.
(٢) زهقت: هلكت.
(٣) مربوبة: لها ربٌّ يدبرها.
(٤) مصغية: منصتة مستمعة.

وأنشدوا في هذا المعنى :

هي النفس إن تنظر إلى الحق نظرة فإن لها في غيره نظرات
وإن نهضت يوما إلى الله نهضة فإن لها عنه غدا نهضات
إلى الله أشكوها فبالله حولها وبالله تمضي في الأمور وتأتي

كذا جرت الأقلام وانبرمت الأحكام، فقسم الخلق إلى قسمين وفرّقهم إلى فريقين: شقي وسعيد، غوي ورشيد، قريب وبعيد، ذميم وحميد، ارتفاع واتضاع، واتصال وانقطاع، إجابة وامتناع وانت ياهذا ما تدري بما جرى سهمك، ولا كيف ثبت في هذه الأسماء اسمك :

قد حكم الله بما شاء من وضع لمن شاء وإعلاء
وقدر الأمر على ما يرى من منع أقوام وإعطاء
وأبرمت أحكامه في الورى من قبل بإسعاد وإشقاء
وأنت لا تدري بماذا جرت طيرك في محكم الأجواء
هل بشقاء أو بسعد وهل مرت برشد أو بإغواء
فاقدح زناد الخوف بين الحشا واقنع من النوم بإغفاء
وابك على نفسك حتى ترى ما اسمك في مثبت الأسماء

ورد في الخبر الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم(٥). وروي أيضا من طريق آخر ليس فيه . . فيما يبدو للناس.

وصح عنه ﷺ أنه قال: جف القلم بما أنت لاق(٦).

وقال ﷺ رفعت الأقلام وجفت الصحف(٧).

---

(٥) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي. البخاري ١١/٤٣٦. في القدر، ومسلم رقم ١١٢ في الايمان.

(٦) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٤٤ في الايمان.

(٧) خاتمة حديث عن ابن عباس، أوله يا غلام إني أعلمك كلمات. . وقد رواه الترمذي وقال =

ذكر هذه الأحاديث مسلم والبخاري والترمذي : وعند أحدهم ماليس عند الآخر:

وأنشد بعضهم :

قد جرت الأقلام في ذا الورى[8] ... بالختم من أمر العليم الحكيم
وخطت الشيء على حكمه ... في علمه السابق منه القديم
فمن سعيد وشقيّ ومن ... مثر من المال وعار عديم
ومن عزيز رأسه في السهى[9] ... ومن ذليل وجهه في التخوم[10]
ومن صحيح شدت أركانه ... وآخر واهي المباني سقيم
كل على منهاجه سالكٌ ... ذلك تقدير العزيز العليم

فانظر رحمك الله كيف تقرعين عاقل في هذه الدار وكيف يستقر به فيها قرار مع هذه الحال وتوقّع هذا المآل، واشتغال هذا الخاطر وتقسم هذا البال.

كلا لا حلول له ولا قرار، ولا ريع ولا دار، ولا قلب إلا مستطار، ولا نوم ينامه إلا غرار حتى يدري أين مسقط رأسه، ومحط رجله، وما المورد والمنهل[11]، وفي أي ٤٢/أ المحال يحل، وفي أي المنازل بعد الموت ينزل.

كما قال الأول :

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المنازل تنزل

وقال غيره :

وكيف بالنوم على زأرةٍ ... من أسد تكشر أنيابه
وانت في ذا غير مستعتب ... في منزل قد كسرت أبوابه

= حسن صحيح رقم ٢٥١٨ في صفة القيامة. جامع الأصول ١١/٦٨٦.

(٨) الورى: الناس.

(٩) السهى: نجم عال.

(١٠) التخوم: الحدود في الأرض.

(١١) المورد والمنهل: موضع الشرب.

وثلمت بالروع حيطانه وفرقت بالخوف حجّابه

لكن حجاب الغفلة الذي غطى القلوب كثيف فلا يرى ما وراءه، والوقر الذي في الآذان عظيم فلا يسمع من ناصح دعاءه.

روى في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت. فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده إلى الدنيا[١٢].

وقال البخاري: ﴿وهم في غفلة﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وهم لا يؤمنون.

فانظر رحمك الله إلى عظيم هذه الغفلة وكثافة حِجابها، وكيف منعت من النظر في هذا الحديث، والفكرةفيه والعمل بمقتضاه.

وقد بكى أولو الألباب على هذا فأكثروا، وسهروا من أجله الليالي الطويلة وأسهروا، ورام عاذلوهم كفهم[١٣] عما هم فيه فلم يقدروا وكلموهم في الإقصار فلم يقْصروا، ولم يسمعوا ولم يبصروا، وذلك للعلم الذي لاح لهم، والتأييد الذي شملهم، والتوفيق الذي قطع عنهم ما صدهم عن طريق الله عز وجل وشغلهم، وربما هبت عليهم نفحات الرجاء فاستبشروا وسكنوا من ذلك الهيجان وفتروا، ثم ذكروا ما هم معرّضون له فعادوا لما كانوا عليه من الاجتهاد، وربما زادوا عليه وأكثروا.

ومع هذا فإنهم لشدة خوفهم وكثرة جزعهم يحسبون كل صيحة عليهم ويظنون كل إشارة إنما يشار بها إليهم.

---

(١٢) رواه البخاري ١١/٣٦١ في الرقاق. ومسلم رقم ٢٨٥٠ في الجنة.
وآية: أندرهم يوم الحسرة رقم ٣٩ سورة مريم.

(١٣) كفهم: منعهم.

كما روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع قارئا يقرأ: ﴿والطور * وكتاب مسطور[14]﴾ قال: هذا قسم حق. فلما بلغ القاريء إلى قوله عز وجل: ﴿إن عذاب ربك لواقع[15]﴾ ظن أن العذاب قد وقع به فغشي عليه.

وسمع آخر قارئا يقرأ ﴿خذوه فغلوه﴾ أو آية نحوها فغشي عليه.

ومر آخر على رجل يبيع الخيار وهو يقول: الخيار عشرة بدانق[16]، فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: مم غشي عليك؟ فقال: أوما سمعته يقول: الخيار العشرة بدانق، وإذا كانت قيمة الخيار[17] هذه فكم تكون قيمتي وقيمة أمثالي؟.

فانظر إلى هذا لم يلق باله إلى أنه الخيار المأكول! لشدة خوفه وسوء ظنه بنفسه.

والأخبار في هذا الباب كثيرة: فلتسلك رحمك الله على منهاج هؤلاء العقلاء، ولتمش على آثار هؤلاء الفضلاء، ولتتزين بزينة هؤلاء الحكماء، وأدم حسرتك، وأطل زفرتك، وامزج بدم الفؤاد عَبْرَتك، وابك ثم ابك، وصِلْ البكاء بالبكاء، والأسى بالأسى حتى تنكشف لك هذه الغشاوة، وتنجلي عنك هذه العماية، كما قال الأول: وقد دعي إلى الخلافة وكان قد تعرض له متعرض دونها:

رَويدك حتى تنظري عم تنجلي ... عماية هذا العارض المتألق

وبكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه إنما أبكي خوف الخاتمة.

وبكى سفيان وغير سفيان لأنه الأمر الذي يُبكى عليه ويصرف الاهتمام كله إليه. وقال القائل:

والذي أبكى الجفون دما ... فغدت من ذاك في غَدَر

---

(14) آية 1 و 2 من سورة الطور.

(15) آية 7 الطور.

(16) الدانق: سدس الدرهم. والكلمة فارسة الأصل.

(17) الخيار: ظن الرجل أن المراد خيار الناس أن أفاضلهم.

سابقٌ لم يدر كيف جرى في القضاء الحتم والقدر
وأمور في الورى خفيت عن ذوي الألباب والنظر
فدع الأنفاس صاعدة ودموع العين تنحدر
وابك لا جفت دموعك ما ضاع من أيامك الغرر

وقد قيل: لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك[18]. وقيل: لا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم.

وقيل: لا تبتْ وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور.

وقيل: لا يخصب لك الجناب[20] ولا تأنس بكعاب[21] حتى ترى ما خط لك في أم الكتاب، وتستبين العاقبة والمآب.

وأنشد:

حاسب النفس قبل يوم الحساب وأذقها العذاب قبل العذاب
وأصبها من الأسى بشواظ ينضج اللحم قبل نضج الإهاب
وإذا ما بكيت يوما بدمع فبدمع من الفؤاد مُشاب
وحذار حذار أن تتهنا بطعام تناله أو شراب
أو منام تنام بالليل حتى تستبين المآل يوم المآب

وقيل: يا ابن آدم الأقلام عليك تجري، وأنت في غفلة لا تدري يا ابن آدم دع المغاني والأوطار، والمنازل والديار، والتنافس في هذه الدار حتى ترى ما فعلت في أمرك الأقدار.

وسمع بعض الصالحين منشدا ينشد:

أيا راهبي نجران ما فعلت هند؟

---

(١٨) الغدر: بفتح الدال: الظلام، الوحل، الموضع الصعب كثير الحجارة.
(١٩) الربْع: الدار، المنزلة.
(٢٠) الجناب: الناحية، ما قرب من المحلة.
(٢١) كعاب: فتاة نهد ثديها أي ارتفع.

فبكى ليلته كلها، فلما أصبح قيل له: ما كان شأنك البارحة؟ وما الذي أبكاك؟
فقال: سمعت منشدا ينشد[٢٢]:

أيا راهبي نجران ما فعلت هند

فقلت في نفسي: ما فعلت الأقدار في، وماذا جرت به علي؟

وقد علمت ـ رحمك الله ـ أن الناس صنفان: صنف مقرب مصان، وآخر مبعد مهان. صنف نصبت له الأسرّة والحِجال وجمعت لهم الرغائب والآمال والأرائك والكلال، وآخرون أعدت لهم الأراقم[٢٣] والصلال، والمقامع والأغلال[٢٤] وضروب الأهوال والأنكال[٢٤]. وأنت لا تعلم من أيهما أنت، ولا في أي الفريقين كتبت.

وأنشدوا:

نزلوا بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل
وتقلبوا فرحين تحت ظلالهم ... وطُرِحْت بالصحراء غير مظلل
وسقوا من الصافي المعتق ريهم ... وسُقيتَ دمعة واله متململ
يا قسمة قسمت ولم يعلم بها ... وقضية ثبتت لأمر الأول
هل فيك للملك المهيمن نظرة ... فتزيل من داء البعاد المعضل
فأجاب يسمع نفسه عن نفسه ... والعقل يسمعها إذا لم تعقل
هيهات قد سبق القضاء بما ترى ... فاكفف سؤالك بعد ذا أو فاسأل

البيت الأول قديم ٤٣/أ.

وقيل: من قعد به جَدُّه لم ينهض به جِدُّه[٢٥].

قال أبو القاسم القشيري كان أبو علي الدقاق كثيرا ما ينشد:

ما حيلتي تفعل الأقدار ما أمرت ... والناس ما بين ذي غي وذي رشد

---

(٢٢) من أيا راهبي إلى هنا سقط من ش و ز.

(٢٣) الأراقم: جمع أرقم وهو أخبث الحيات. والصلال: جمع صلّ وهو نوع خبيث من الحيات أيضا.

(٢٤) الأنكال: جمع نكل وهو القيد الشديد. ومثلها الأغلال.

(٢٥) جَده: بفتح الجيم حظه. وجِده بكسر الجيم اجتهاده أي أن الاجتهاد لا ينفع صاحبه مع سوء حظه.

وقال: إذا كان الرضا والغضب صفة أزلية فما تنفع الأذيال المقصرة والأقدام المورمة والوجوه المصفرة؟

وقيل يا ابن آدم أي شيء يمنعك، وأي مكان يعصمك إذا كانت الأقدار تطلبك؟

ومر على بعض الصالحين بيهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس، فقال: أيكابر هؤلاء الأقدار؟ أما علموا أنهم لو دفنوا في الفردوس الأعلى لجاءت لظى بأنكالها حتى تأخذه إليها وتنطلق به معها؟

وقال آخر: من حكم له بالسعادة لا يشقى أبدا، وإن ألح غاويه وكثر معاديه، وأحيط به من جميع نواحيه، ومن حكم له بالشقاوة لا يسعد أبدا، وإن عمر ناديه، وأخصب واديه، وحسنت أواخره ومباديه. كم من عابد ظهرت عليه أنوار العبادة وآثار الارادة وبدت منه مخايل السعادة، وارتفع صيته وانتشر في الآفاق ذكره وعظم في الناس شأنه وقدره جمحت الأقدار به جمحة ردته على عقبيه، وسلبته ما كان في يديه، وأخذت بناءه من قواعده فألقته عليه، فنعوذ بالله من درك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء برحمته.

وأعلم رحمك الله أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الإكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى والإقدام بالمعصية على الله تعالى.

وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية وجانب من الإعراض، ونصيب من الافتراء، فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد ولا علم ما أراد وان أعاد عليه وأعاد.

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت، فجعل ابنه يقول له: قل لا إله إلا الله، فقال الناصر يا مولاي، فأعاد عليه، فأعاد هو ثم أصابته

غشيـة، فلما أفـاق قال النـاصـر أمـولاي، ثم قال لابنـه: يا فلان، النـاصر إنما يعرفك بسيفك فالقتل ثم القتل، ثم مات.

وقيـل لآخـر وقـد نزل به المـوت قل: لا إلـه إلا الله فقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا.

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده، وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث أن رجلا نزل به الموت، فقيل له قل: لا إلـه إلا الله، فجعـل يقـول بالفارسية: ده يازده دوازده، تفسيره عشرة أحد عشر اثنا عشر، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان.

كما روي أن رجـلا نزل به المـوت، فقيـل له: قل لا إلـه إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟.

وهذا الكلام فيه قصة، وذلك أن رجلا كان واقفا على باب داره، وكان بابهـا يشبـه باب حمام، فمـرّت به جاريـة لها منظر وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجـاب؟ فقـال لها: هذا حمام منجاب، وأشار إلى داره، فدخلت الدار، فدخـل وراءهـا، فلما رأت نفسهـا معه في داره وليست بحمام علمت أنه خدعها فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا. فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، وخرج فتركها في الدار ولم يغلقها وتركها مفتوحة على حالها، ومضى فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثـرا، فهـام الـرجـل بها، وأكثـر الذكر لها والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

٤٣/ب

يارب قائـلة يومـا إذا بلغـت   أيـن الطـريـق إلـى حمام منجـاب

وبعد أشهر مرّ في بعض الأزقة وهو ينشد هذا البيت وإذا بجارية تجاوبه من طاق وهي تقول:

هلا جعـلت لها إذ ظفـرت بها   حرزا على الـدار أو قفلا على الباب

فزاد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر. فنعوذ بالله من المحن والفتن[٢٦].

ويروى أن رجلا عشق شخصا، واشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه حتى وقع لما به، ولزم الفراش من أجله، وتمنع ذلك الشخص واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضرب له، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الماشي بينهما وقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، فرغبت إليه وكلمته في إنجاز وعده والوفاء بعهده، فقال: إني أخاف الفضيحة ولا أدخل مداخل السوء والرِّيب، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، وسألته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس هذا سقط في يده وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت علائم الموت وأماراته عليه.

قال الراوي فسمعته يقول وهو في تلك الحال:

سلام يا راحة العليل وبرء داء المدنف[٢٧] النحيل
لقاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

قال: فقلت له: يا فلان اتق الله. فقال: قد كان، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة بكرمه.

واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقلْ وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، ويثب عليه قبل الإنابة، ويأخذه قبل إصلاح الطوية، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله ثم العياذ بالله أن يكون لمن كان مستقيما لم يتغير عن حاله، ويخرج عن سنته، ويأخذ في غير طريقه

---

(٢٦) ذكر هذه القصة حرفيا القرطبي في التذكرة وعزاها إلى المؤلف انظر ص ٣٥ من التذكرة.
(٢٧) المدنف: الذي ثقل عليه المرض. والمراد هنا من شدة الحب.

فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة وشؤم العاقبة، والعياذ بالله «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

وقد سمعت بقصة بلعام بن باعوراء، وما كان آتاه الله من آياته، وأطلعه عليه من بيناته، وما أراه من عجائب ملكوته.

أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فسلبه الله سبحانه جميع ما أعطاه، وتركه مع من استماله وأغواه.

ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدا للأذان والصلاة فيه وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقي يوما المنارة على عادته للأذان، وكان ٤٤/أ تحت المنارة دار لذمي نصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ فقال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي. قالت له: لا أجيبك إلى ريبة.

قال لها: أتزوجك. قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بها اتصل، ولا هو بدينه حصل. فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله.

* * *

الباب السابع
تلقين الميت بعد الدفن، والدعاء له، وقراءة القرآن عنده وذكر محاسنه والسكوت عن مساوئه

يروى عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات أحدكم فسويتم التراب عليه فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة، فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية، فإنه يستوي جالسا، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة فإنه يقول: أَرشِدْنا يرحمك الله، ولكنكم لا تسمعون، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من دار الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، وأنك رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، وبالقرآن إماما.

فإن منكرا ونكيرا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقّن حجته، ويكون الله حجيجهما دونه: فقال رجل: يارسول الله فإن لم تُعرف أمه؟ قال ينسبه إلى أمه حواء.

ويروى عن النبي ﷺ أنه حضر جنازة رجل فلما دفن قال: سلوا الله لأخيكم التثبيت فإنه الآن يُسأل[1].

وعن بعض الصالحين أنه قال: مات أخ لي، فرأيته في النوم فقلت يا أخي ما كان حالك حين وضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالي لهلكت[2].

---

(١) رواه أبو داود رقم ٣٢٢١ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٤٩.

(٢) من: ويروى عن النبي إلى هنا جاء في «ل» بعد خبر شبيب الآتي.

قال شبيب بن أبي شيبة : أوصتني أمي عند موتها فقالت لي يا بني إذا دفنتني فقم عند قبري وقل يا أم شيبة قولي لا إله إلا الله . قال : فلما دفنتها قمت عند قبرها فقلت : يا أم شيبة قولي : لا إله إلا الله ، ثم انصرفت . فلما كان من الليل رأيتها في المنام ، فقالت لي : يابني كدت أن أهلك لولا أن تداركني لا إله إلا الله ، فلقد حفظت وصيتي يابني .

وروى أن رجلا قال : رأيت رجلا ـ وقد ذكر رجلا معروفا ـ قال : رأيته في النوم وكأنه قد مات وحمل إلى قبره ، وكنت ممن شهده ، فرأيته قد وضع في قبره ، فرأيت بابا قد فتح في جانب القبر كأنه باب مغارة ، وهي مملوءة ظلمة ، فخرج من ذلك الباب أسودان مهيبا المنظر ، فأخذا ذلك الميت وجعلا يجذبانه إلى المغارة ، والميت ساكت ، فبينما هما كذلك إذ أقبل رجل كان ٤٤ / ب مشهورا بالعبادة ، وكان ذلك الميت يحسن إليه ، فلما رآه الميت استغاث به يا فلان ، فقال ذلك الرجل : سلام لا بأس ، وأخذ بيده واستنقذه منهما ، فقعد الميت يذكر الله وإذا بثوب قد وقع من السماء ، فألبسه الرجل ذلك الميت ثم صعد به إلى السماء .

قال الراوي فاستيقظت فوجدت ذلك الرجل المجذوب قد مات ، وكنت ممن شهد جنازته .

فأولَ أهلُ العلم بالتأويل ان ذلك الجذب الذي كان الناس يجذبون ذلك الميت دعاؤهم له ورغبتهم إلى الله فيه ، وأَخْذُ ذلك الرجل بيد الميت هو دعاؤه له وثواب الخير الذي كان يعمل معه .

وروى مسلم بن الحجاج من حديث عبدالرحمن بن شماسة المهدي ، قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت ، فبكى طويلا ثم حوّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك بكذا؟ قال فأقبل بوجهه وقال : إن أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . اني كنت على أطباق ثلاثة ، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحب إلي أن أكون قد تمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك أبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي. قال: مالك ياعمرو؟ قلت: أردت أن اشترط. قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، فلو سئلت أن أصفه لم أطق ذلك لأني لم أكن أملأ عيني منه إجلالا له، فلو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء وما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التراب شنّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وانظر ماذا أراجع به رسل ربي(٣).

قوله: حتى استأنس بكم: يريد أن يستأنس بدعائهم له وبذكرهم الله عز وجل عنده.

وروى أبوعبدالرحمن النسائي من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي ﷺ أنه قال: اقرأوا يس على موتاكم(٤).

فيحتمل أن تكون هذه القراءة عند موته، ويحتمل أن تكون عند قبره.

ويروى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة.

وقد روى إباحة القراءة عند القبر العلاء بن عبدالرحمن.

ويروى أيضا أن ٤٥/أ أحمد بن حنبل رجع إلى هذا بعدما كان ينكره.

وذكر أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم(٥).

وعن عائشة أيضا قالت: ذكر عند رسول الله ﷺ هالك بسوء، فقال:

---

(٣) رواه مسلم رقم ١٢١ في الأيمان. جامع الأصول ١٠٥/٩.

(٤) في جامع الأصول ٨٤/١١ أن الذي رواه أبو داود رقم ٣١٢١ في الجنائز. كما رواه أحمد ٢٦/٥.

(٥) أبو داود رقم ٤٩٠٠، والترمذي رقم ١٠١٩ جامع الأصول ٧٦٦/١٠.

ﷺ **لا تذكروا هلكاكم إلا بخير**[٦]

وروى البخـــاري عنهـــا أن النبي ﷺ قال: لا تسبــوا الأمــوات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[٦]



(٦) رواه البخاري ٣/٢٠٦ في الجنائز. والنسائي ٤/٥٢ و٥٣ جامع الأصول ١٠/٧٦٥.

الباب الثامن
ذكر القبور

اعلم رحمك الله أن في القبر وظلمته وضيقه ووحشته، وطرح الميت فيه غير موسّد ولا ممهد، قد باشر الثرى وواجه البلى وترك دنياه للورى، ونبذ منها ما كان في يديه بالعراء، مع حبيب تركه، وقريب أسلمه، ونصير أفرده وترك ما كان عهده، ما يفطم النفوس عن الشهوات، وإن كانت صعبة الفطام، ويقطعها عن اللذات وإن كان قطعها بعيد المرام، إذا بحث عن الحقيقة ونظر بعين البصيرة وسمع النداء من قريب.

بينما المرء في بُلَهْنِيَةٍ[1] مرتكضا في أمنيته، غافلا عن يوم صرعته ومنيته، قد فتح للهو بابه، وأرسل عليه حجابه، ولم يبال بمن لامه في ذلك أو عابه، إذ هجمت عليه المنية فهتكت أستاره وكسفت أنواره، وطمست أعلامه وآثاره، فأخرجته من ذلك القصر المشيد والمنزل المنجد والمتاع المزخرف المنضد إلى حفرة من الأرض سوداء ضيقة الجوانب والأرجاء[2]، مملوءة من الفزع والرعب ما شاء.

فحذار رحمك الله حذار أن تنزع هذا المنزع، وبدار[3] ـ عصمك الله ـ بدار أن تصرع هذا المصرع، فيفت في عضدك ويسقط في يدك، ويرمي بك عن أهلك وولدك في مهواة تزدحم فيها الأهوال، وتنقطع فيها الآمال، قد جمعت فيها جمعا ورصعت فيها رصعا، وتركت للهوام والدود طُعْماً ومرعى.

---

(١) بلهنية: رخاء العيش.

(٢) الأرجاء: النواحي.

(٣) بدار: اسم فعل بمعنى بادِر وسارع.

وأنشدوا:

يا نائما والمنون يقضي ... وغائبا والحمام أوفى[4]
جاءك أمر وأي أمر ... طم على غيره وعفّى
هل بعد هذا المشيب شيء ... غير تراب عليك يُحفى[5]
فليس ذا الأمر بالهويني[6] ... ولا بشيء عليك يخفى
من بعدما المرء في براح[7] ... يهتز تيها به وظرفا
ساكن نفس قرير عين ... يرشف ثغر النعيم رشفا
إذ عصفت في ذراه ريـ ... ـح تقصف كل الظهر قصفا
فبات في أهله حصيدا ... قد جعفته[8] المنون جعفا
فعاد ذاك النعيم بؤسا ... وصار ذاك السكون رجفا
وسيق سوقا إلى ضريح ... يرصف بالرغم فيه، صفا
وبات للدود فيه طعما ... وللهوام العطاش رشفا
وليته لم يكن رهينا ... بكل ما قد هفا وأهفا

ولعلك قد كنت في الدنيا ممن يشكو تبديل المنازل وإن كانت حسانا ويكثر فيه تلونا وافتنانا ولا ترى لربك عز وجل فيها تفضلا ولا امتنانا.

فانظر الآن كم بين المنزلتين، وكم قدر مابين الوحشتين إلا أن يدركك فيض الرحمة، وتغشاك روائح المنة، فتتسع من القبر أقطاره وتمتد أنواره، ويكثر مؤنسوه وزواره.

وأنشدوا في هذا المعنى:

من كان يوحشه تبديل منزله ... وأن يبدل منها منزلا حسنا

---

(٤) أوفى: أدرك.
(٥) يحفى: يوضع بكثره ويبالغ في وضعه.
(٦) الهويني: السهولة.
(٧) براح: متسع.
(٨) جعفته: صرعته، قلعته.

ماذا يقول إذا ضمت جوانبها ... عليه واجتمعت من هاهنا وهنا
ماذا يقول إذا أمسى بحفرته ... فردا وقد فارق الأهلين والسكنا
هناك يعلم قدر الوحشتين وما ... يلقاه من بات باللذات مرتهنا
يا غفلة ورماح الموت شارعة ... والشيب ألقى برأسي نحوه الرسنا
ولم أعد مكانا للنزولا ولا ... أعددت زادا ولكن غرة ومنى
إن لم يجد من توالى جوده أبدا ... ويعف من عفوه من طالبيه دنا
فيا إلهي ومزن[9] الجود واكفة[9] ... سحا فتمطرنا الأفضال والمننا
آنِس هنالك يا رحمن وحشتنا ... والطف بنا وترفّقْ عند ذاك بنا
نحن العصاة وانت الله ملجؤنا ... وأنت مقصدنا الأسني ومطلبنا
فكن لنا عند بأساها وشدتها ... أولى فمن ذا الذي بها يكون لنا

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبربكى حتى يبل لحيته. فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟
فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .
وسمعت رسول الله ﷺ يقول: ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه. ذكره الترمذي[10].

وذكر الترمذي أيضا من حديث أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون، فقال: أما أنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى، أكثروا ذكر هادم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه، فيقول أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود والهوام فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر مرحبا وأهلا، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليّ، فإد وليتك اليوم وصرت إليّ

(٩) المزن الواكفة: السُحب المنهمرة.
(١٠) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٠٩ في الزهد، وإسناده حسن. جامع الأصول ١١/١٦٥.

فسترى صنعي بك، قال فيفسح له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا، أما إن كنت لمن أبغض من يمشي على ظهري إليّ، فإذ وليتك اليوم وصرت إليّ فسترى صنعي بك، قال: فيلتئم عليه حتى يلتقي عليه وتختلف أضلاعه. قال :وقال رسول الله ﷺ بأصابع يديه، فأدخل بعضها في بعض وقال: ويقيض الله له سبعين تنينا[11] لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا، فتنهشه وتخدشه حتى يبعث إلى الحساب قال: وقال رسول الله ﷺ إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار[12].

وروى أبو الحجاج الثمالي قال: قال رسول الله ﷺ يقول القبر للميت إذا وضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرك بي؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فَدّاداً[13]، قال فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول: أرأيت إن كان ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ٤٦ /أ؟ قال: فيقول القبر فإني إذن أعود عليه خضرا، ويعود جسده نورا، ويصعد روحه إلى رب العالمين.

ذكر هذا الحديث أبو أحمد الحاكم في كتاب الكنى، وذكره أيضا قاسم بن أصبغ.

قيل لأبي الحجاج: ما الفَدّاد؟ قال: الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى، يعني الذي يمشي مشية المتبختر.

وقال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم حفرته، تقول أنا بيت الدود، وبيت الوحدة، وبيت الوحشة، وبيت الظلمة، وبيت الغربة، هذا ما أعددت لك يا ابن آدم، فماذا أعددت لي.

وقال بعض الحكماء: أربعة أبحر لأربعة: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر الندامات، وعفو الله بحر الخطيئات.

---

(١١) التنين: بكسر التاء والنون وتشديدهما: الحية العظيمة.

(١٢) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة. وإسناده ضعيف جامع الأصول ١١ / ١٧٠.

(١٣) الفدّاد: المتكبر، شديد الوطء على الأرض.

وقال أبو الدرداء: ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري.

وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول: يا أهل القبور مالكم إذا دعوتكم لا تجيبوني؟ ثم يقول: حيل بينهم والله وبين الجواب، وكأني أكون مثلهم وأدخل في جملتهم، ثم يستقبل القبلة ويصلي حتى يطلع الفجر.

وانشدوا:

يا نائما بالضريح هُبّا ... هاك نسيم الصباح هَبّا
وكل من نامَ قد تشفّى ... وقام مِن نومه وهَبّا
قم تروحه النهار طلقا ... وصدره للأنام رحبا
والناس كل إلى هواه ... حرك طرفا وسَلّ عضبا[14]
قم ويك طال ذا هجوع ... وطال حزني له وأربي[15]
كم ذا أنادي ولا مجيب ... يجيب دامي الفؤاد صبا
ولو أنادي جماد صخر ... لرق لي لوعة ولبّى
فقال لي ينطق اعتبارا ... تفهمه الفتية الأَلِبّا[16]
يمنعني أن أجيب خَطْبٌ ... صير سِلْم الخطوب حربا
أخرس مني ألدَّ[17] خصما ... وقاد مني أشَمَّ صعبا
فَخَلِّ عني وعن جوابي ... فبحر همي يعب عبا
ولتبك إن كنت ذا بكاء ... نفسك ذنبا أتت فذنبا
فيا إلهي ومن إليه ... مددت كفي رهبا ورغبا
بدد لحمي ورض عظمي ... وردني للهوام نهبا
وروعة للنشور عظمى ... قدت فؤادي خوفا ورعبا
رحماك في بائس فقير ... قد طاف شرقا وطاف غربا
فلم يجد حاجة تقضي ... ولا رأى دعوة تلبى

---

(١٤) العضب: السيف القاطع.

(١٥) أربى: زاد.

(١٦) الألبا: جمع لبيب وهو الذكي.

(١٧) الدّ: شديد العداوة.

إلا ومن افقكم حياها تسكب فوق الأنام سكبا
فاغفر إلهي ذنوب عبد تَبَّتْ يداه بهن تبا
إن لم ينل من رضاك حظاً ولم يصب من جداك شربا
فالحمد في ذاكم وفي ذا نال أجاجا أو نال عذبا

قال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: يافلان لقد أرقت البارحة تفكرا في القبر وساكنه انك لو رأيت الميت في قبره بعد ثلاث لاستوحشت منه بعد طول الأنس به، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الريح وتقطع الأكفان، وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ثم شهق شهقة ثم خر مغشيا عليه.

حدثنا(١٨) سليمان بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن زكريا العلائي، قال: أخبرنا معدي بن سابق البهدلي، قال [بلغنا] أن عمر بن عبدالعزيز شيّع جنازة، فلما انصرفوا تأخر عمر عنها وأصحابه، فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين أنت لم تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم ناداني القبر من خلفي، يا عمر بن عبدالعزيز ألم تسألني ما صنعتُ بالأحبة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان ومزقت الأبدان، ومصصت الدم وأكلت اللحم، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت بلى، قال: نزعت الكفين من الكوعين، وكذلك ٤٦/ب الفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين.

ثم بكى عمر وقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شابُّها يهرم، وحيّها يموت، ولا يغركم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها، والمغرور من اغترّ بها، أين سكانها الذين بنوا مرابعها وشققوا أنهارها وغرسوا أشجارها؟ وأقاموا فيها أياما يسيرة وغرتهم بصحبتهم وغروا بنشاطهم فركبوا المعاصي، إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه، محسودين على جمعه، ما صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسامهم والديدان بعظامهم وأوصالهم؟ وإذا مررت فنادهم إن كنت مناديا، وادعهم إن كنت لا بد

(١٨) هاتان الحكايتان عن عمر بن عبدالعزيز من هنا إلى قوله: وفي بعض الخطب المروية سقط من ش و ز وانفردت به نسخة ي.

داعيـا، ومـر بعسكـرهـم وانظر إلى تقارب منازلهم وسل غنيهم ما بقي من غناه، وسـل فقـيرهم ما بقي من فقـره، وأسألهم عن الألسن التي كانـوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون، وسلهم عن الأعضاء الرقيقة والوجوه الحسنة والأجسـاد النـاعمـة ما صنعت بها الـديـدان، محت الألـوات وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه ومحت المحاسن، وكسرت الفقار وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء.

قد حيـل بينهم وبـين العمـل، وفـارقـوا الأحبـة، فكم من ناعم وناعمة أصبحت وجـوههم باليـة، وأجسادهم من أعناقهم بائنة[19] وأوصالهم متمزقة، وقد سالت الحدق على الوجنات[20] وامتلأت الأفواه دما وصديدا ودبت دواب الأرض في أجسـامهم، وتفـرقت أعضـاؤهم، ثم لم يلبثـوا والله إلا يسـيرا حتى عادت العظـام رميـما، قد فارقـوا الحـدائق فصاروا بعد السعة إلى المضايق، قد تزوجت نسـاؤهم وتـرددت في الطـرق أبنـاؤهم، فمنهم والله المـوسـع له في قبره الغض الناعم فيه، المتنعم بلذته، فيا ساكن القبر ما الذي غرك في الدنيا؟ هل تظن أنك تبقى أو تبقى لك؟ أين دارك الفيحـاء ونهـرك المطـرد، وأين ثمـرتـك الحـاضـرينعهـا؟ وأين رقـاق ثيـابـك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ هيهات هيهـات يا مغمِض الـوالـد والأخ وغـاسله، يا مكفن الميت وحامله، يا مدليه في قبره وراحل عنه.

ليت شعـري كيف نمت على خشـونـة الثـرى؟ ياليت شعـري بأي خديك بدأ البلى؟ يامجاور الهلكى صرت في محلة الموتى.

ليت شعـري ما الـذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي. ثم أنشد.

تغـر بما يفـني وتـشـغـل بالـصبـا   لقـد غر بالـلذات في الـنـوم حالم
نهارك يامـغـرور سهـو وغـفـلة   ولـيـلك نوم والـردى لك لازم

(١٩) بائنه: مفترقة، مقطوعة.
(٢٠) الوجنات: جمع وجنة وهي رأس الخد.

وتـعـمـل فيـما سوف تكـره حبـه   كذلـك في الـدنيـا تعيش البهـائم

٤٧/أ ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلا جمعة.

حدثنـا عبـدالله بن محمـد قال: حدثنا محمد بن الحسين الحضرمي قال: أخبرنا أسد بن زيد قال: كنا مع عمر بن عبدالعزيز في جنازة، فلما أن دفن الميت ركب بغلة له صغـيرة ثم جاء إلى قبر فركـز عليـه المقرعة فقال: السلام عليك يا صاحب القـبر، قال عمـر: فنـاداني منـاد من خلفي: عليـك السلام يا عمر بن عبدالعزيز، عم تسأل؟ فقلت: عن ساكنك وجارك، قال: أما البدن فعندي، وأما الروح فعرج به إلى الله عز وجل، وما أدري أي شيء حاله، قلت: أسألك عن ساكنـك وجـارك، قال: أسلت المقلتـين على الخـدين، ومـزقت الأكفان، وأكلت الأبـدان، ثم ذكـر نحـوه وزاد، فلما ذهبت أقفى ناداني: ياعمـر عليـك بكفن لا يبلى، قلت: وما كفن لا يبلى؟ قال: اتقاء الله والعمل الصالح.

وفي بعض الخطب المـرويـة: يا ابن آدم لا يغـرنـك ارتفـاع ذكـرك ونفاذ أمرك، وتشييد قصرك مع ما جمعت فيه من الظباء الشرد والأوانس النهد، والمتاع المـزخـرف المنجـد، فإنـك تخرج منـه بالـرغم والأمـر الجـزم إلى بيت الحجـارة والرضم، فتغتسل فيه بصديدك، وتأنس فيه بحشراتك ودودك، إلى أن تبلغك الـرجفـة لهلاك هذا المعمـور، ثم الصيحـة ليـوم النشور وبعثرة القبور، فتخرج بالأمر الكُبّار إلى دارك دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وأنشد بعضهم:

من كان مسـكـنـه قصـرا يشـيـده   فإن مسكنـه من بعـد ذا جَدَثُ[٢١]

ومـن تكـن فرشـه فيـهـا مرقـشـة   ففـرشـه في ضريـح بعدها الرثت[٢٢]

ومـن تكـن آنـسـوه خرّدا[٢٣] لعبـا   فآنـسـوه هنـاك الـدود والـعـثث[٢٤]

ومـن غدا وسـط نادٍ شعـره جزل   فإن آخـره الـتـمـزيق والشعث[٢٥]

---

(٢١) الجدث: القبر.

(٢٢) الرِّثث: جمع رثة وهي الخلقان.

(٢٣) الخُرَّد: الفتيات الأبكار ذوات الحياء.

(٢٤) العُثَث: جمع عُثَّة وهي السوسة أو الأرضة.

(٢٥) الشعث: التفرقة والانتثار.

ولـيـتـه مع هذا لو أقـام غدا لكـنـه لمهـول بعـد ينـبـعـث
ولـيس ذا الأمـر مما يسـتطـاع له وصف ولكنهـا الأمثـال تعـترث[٢٦]
فالبحـر مضـربـه لذي النـدى مثـل والنـار تذكـرهـا إذ يذكـر الغـرث[٢٧]

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ فقال: النظر إلى محلة الأموات.

يروى[٢٨] أن الاسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك، وبادوا، فقال: هل بقي من نسـل هؤلاء الملوك أحـد؟ فقيـل له: ما بقي منهم إلا رجـل واحـد يكـون في هذا المقـابـر، فدعـا به، فلما حضر قال له: ما الذي حملك على لزوم المقـابـر؟ قال: أردت أن أميـز عظـام الملوك من عظـام عبيدهم، فوجدت الكل سواء، فقال له الاسكندر: هل لك أن تتبعني فأحيي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ فقـال: إن لي همة عظيمـة، فإن كان بغيتي عنـدك تبعتـك، قال: ما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب ليس معه هرم، وغنى ليس معه فقر، وسرور ليس معه مكروه، قال: ليس ذلك عندي، فقال: وأي خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هذه الأشياء فامض لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن يملكه وممن هو عنده، ثم عاد إلى مكانه.

ومر رجل مسافر بغلام في صحراء، فقال له: يا غلام أين العمران؟ فقال له: اصعـد الـرابيـة تشـرف على العمران، فصعد، فأشرف على قبور، فرجع إليـه، فقـال: سألتك عن العمران فدللتني على القبور؟! فقال: إني رأيت أهل هذه الـدنيـا ينقلون إلى تلك، ولم أر أحـدا من تلك ينقل إلى هذه، وإنما ينتقل من الخراب إلى العمران، ولو سألتني عما يواريك ويواري دابتك لدللتك عليه.

وكـان يزيـد الـرقـاشي رحمه الله يقول: أيها المقبور في حفرته المستخلي في القـبر بوحـدتـه، المستأنس في بطن الأرض بعمله، ليت شعـري بأي أعـمالـك استبشـرت؟ وبأي أحـوالـك اغتبطت، ثم يبكى حتى يبـل عباءته، ثم يقول:

---

(٢٦) تعترث: فعله عرث بمعنى انتزع.
(٢٧) الغرَث: الجوع.
(٢٨) من هنا إلى قوله: لدللتك عليه انفردت به نسخة «ل».

استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط بإخوانه المعاونين له على طاعة الله عز وجل.

وكان إذا رأى القبور يخور كما يخور الثور.

ومر داود الطائي رحمه الله بامرأة تبكي على قبر، وهي تقول:

عدمت الحياة فلا نلتها إذا أنت في القبر قد وسدوكا
وكيف ألذ بطعم الكرى وها أنت في القبر قد أفردوكا

ثم قالت: يا أبناه بأي خديك بدأ الدود أولا؟ قال: فخر داود مغشيا عليه.

وقال حاتم الأصم: من مر بفناء القبور ولم يتفكر في نفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم.

وعن صلة بن أشيم أنه دفن أخا له، ثم وقف على قبره وقال:

فإن تنج منه تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك[29] ناجيا

وكان بكر العابد يقول لأمه: يا أماه ليتك كنت بي عقيما، وإن لابنك في القبر حبسا طويلا، وإن له من بعد ذلك رحيلا.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام، فانظر من أين تجيبه، إن أجبته من دنياك دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها.

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القبور قال: ما أحسن ظواهرك، إنما الدواهي في بواطنك.

وكان عطاء السلمي إذا جن[30] الليل يخرج إلى القبور، فيقول: يا أهل القبور، متم فواماتاه، وعاينتم أعمالكم فواعملاه، ثم يقول: غدا يكون عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبه إلى الصبح.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة،

---

(٢٩) لا أخالك: لا أراك ولا أظنك.

(٣٠) جنّ الليل الناس: سترهم وأظلم عليهم.

ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار.

وقال أحمد بن حرب رحمه الله : تتعجب الأرض ممن يمهد مضجعه، ويسوي فراشه للنوم، تقول: يا ابن آدم ألا تذكر طول رقادك في جوفي وما بيني وبينك شيء؟!.

وأنشد بعضهم :

يا ليتني والأماني غير طائلة ... إلا تعلل مشغوف بها شغلا
علمت أي بلاد الله مضطجعي ... إذا تباين عني الروح وانفصلا
لعلني أن أشوب[31] أدمعي بدمي ... فيه واشرح من حزني به جُملا
وأن أسوي من تربائه بيدي ... حتى يكون وثير[32] المس معتدلا
هيهات هيهات ما للقبر تسوية ... إلا اليقين وإلا القول والعملا

ومر[33] علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمقابر، فوقف عليها، فقال السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله تعالى.

ثم قال: يا أهل القبور، أما الزوجات فقد نكحت وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خير ما عندنا، فما خير ما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا وجدنا خير الزاد التقوى.

ويروى أن رجلا دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فرآه قد تغير لونه من كثرة العبادة، واستحالت صفته، فجعل يتعجب من تغير لونه، فقال له عمر: يا ابن أخي وما تعجبك مني؟ فكيف لو رأيتني بعد دخول قبري بثلاث، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان عن

---

(٣١) اشوب: أمزج وأخلط.
(٣٢) وثير: لين، ناعم.
(٣٣) من هنا إلى: خير الزاد التقوى، انفردت به نسخة «ل».

الأسنان، وخرج الصديد والدود من المناخر والفم، وانتفخ البطن فعلا على الصدر، وخرج الصلب عن الدبر؟! لرأيت إذ ذاك مني أعجب مما رأيت الآن.

واعلم رحمك الله أنه من أقام هذا الخيال نصب عينيه، وتفكر في الميت وما يؤول إليه، ثم نظر فيما يقدم بعد ذلك عليه، وعلم أن جسمه الغض(٣٤) وبدنه اللين سيطرح في حفرة تقطع أوصاله وتغير أحواله، ثم يتبين بعد ذلك مآله، ويُطلب بكل ما عمله ووفاه، لم يشغل بميت باله، ولم يبك إلا لنفسه، لا له.

وأنشدوا:

لمن جدث أبصرته فشجاني ... وأرسل في شجو الهموم عناني

سفكتُ عليه أدمعي فسقيتُه ... كما هو من كأس الشجون سقاني

وقفت به حيران وقفة هائم ... أعالج قلبا دائم الخفقان

وما بي من في القبر لكن رأيته ... على حالة فيها وشيك أراني

وأنشدوا أيضا:

لمن الأقبر في تلك الربى ... ملأت صدري شجوا وأسى

لمن الأوجه فيها كسفت ... بعد حسن وجمال وضيا

لمن الأجسام فيها بليت ... بعد زهو وشباب وانتشا(٣٥)

ومن الفرسان فيها قد نسوا ... روعة الحرب بروعات الثرى

ورموا إذ هتف الموت بهم ... بسيوف الهند رعبا والقنا(٣٦)

ومن الخُرَّد فيها شدَّ ما ... فتكتْ قبل بآساد الشرى

نظر الموت إليها فغدت ... تنفر الأنفس منها إذ ترى

لمن الأقبر في تلك الربى ... ألبست جسمي أثواب الضنا

ياجفونا أرسلت أدمعها ... ما بذا بأس نو ارسلت الدما

صاح يا صاح ونيران الجوى(٣٧) ... علقت مني بأثناء الحشا

---

(٣٤) الغض: الطري.

(٣٥) الانتشاء: السكر والمراد فرحة الشباب.

(٣٦) القنا: جمع قناة وهي الرمح.

(٣٧) الجوى: شدة الوجد من حزن أو عشق، داء في الصدر.

لا تظنن بكائي لهم ... ليس والله لهم هذا البكا
إنما أبكي لنفسي لا لهم ... فكأني اليوم فيهم أو غدا
هامد الجمرة موهون القوى ... دائم الحسرة مقطوع العرى
رب يارب يارب الورى ... ما ترى في عبد سوء ما ترى
كفر الإحسان قدما وبغى ... وطغى ثم طغى ثم طغى
ما ترى في أمره يا من ترى ... كل شيء وهو رب لا يرى
ليس إلا عفوك المرجو أو ... دفعة تنزله قعر لظى
وعياذا بك يا مولاي أن ... يلتوي في يده حبل الرجا
وإذا اسلمته رب فمن ... يقصد اليوم له أو يرتجى

ولعلك يا هذا الباكي على ميته لا تفرغ من بكائك عليه حتى ينزل بك ما نزل به، فتكون قد ضيعت وقتك بسببه، ولم تشف صدرك من وصبه، ولا قضيت ببكائك جميع أربه، كما روى عن عبدالملك بن قريب الأصمعي قال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة تطوف حول قبر تبكي وتنشد وتقول:

يا من بمقلته[38] ازها الدهر ... قد كان منك تطاوَل الأمرُ
زعموا قُتِلْت وما لهم خبر ... كذبوا وقبرك مالهم عذر
ياقبر سيدنا المجن[39] سماحة ... صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر لحدا أنت ساكنه ... ألا يمر بأرضه القطر[40]
فلينبعن سماح جودك في الثرى ... وليورقن بقبرك الصخر
وإذا غضِبْتَ تصدّعت فَرَقاً[41] ... منك الجبال وخافَك الذعر
وإذا رقدْت فأنت منتبه ... وإذا انتبهت فوجهك البدر
والله لو بك لم أدعْ أحدا ... إلا قتلت لفاتني الوتر[42]

---

(٣٨) المقلة: العين.
(٣٩) المجن: الحامي، الواقي.
(٤٠) القطر: المطر.
(٤١) الفرق: الخوف.
(٤٢) الوتر: الانتقام.

قال الأصمعي: فأعجبني شعرها، فدنوت منها لأكلمها وأسألها عن أمرها، فإذا هي قد سقطت ميتة.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقابر، فلما نظر إليها بكى، ثم قال وأقبل علي: ياميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأن لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وطيب عيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات[٤٣]، واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام في أجسامهم مقيلا؟! ثم بكى وقال: والله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله عز وجل.

وقال ثابت البناني: دخلت المقابر، فلما أردت الخروج منها إذا بصوت يقول: يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها، فكم من نفس معذبة فيها.

ويروى أن فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم نظرت إلى جنازة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقالت:

وكانوا رجاءً ثم عادوا رزية   لقد عظمت تلك الرزايا وجلت[٤٤]

ثم ضربت على قبره فسطاطا[٤٥] وأقامت عليه سنة، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ليدخلو المدينة، فسمعوا صوتا من جانب البقيع[٤٦]، ـ يعني المقابر ـ يقول: هل وجدوا ما طلبوا؟ فسمعوا صوتا من الجانب الآخر يجاوبه: بل يئسوا فانقلبوا.

ويروى أن بعض المتعبدين أتى قبرا كان يألف صاحبه، فأنشأ يقول:

مالي مررت على القبور مسلّما   قبر الحبيب فلا يرد جوابي
فأجبت مالك لا تجيب مناديا   أَمَلَلْتَ بعدي خلة الأصحاب
أكل التراب محاسني فنسيتكم   وحُجِبْت عن أهلي وعن أحبابي

قال: فهتف بي هاتف يقول:

---

(٤٣) المثلات: العبر، العقوبات.
(٤٤) جلت: عظمت.
(٤٥) الفسطاط: الخيمة.
(٤٦) البقيع: مقبرة المدينة المنورة.

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم ... وأنا رهين جنادل وتراب
فعليكم مني السلام تقطعت ... مني ومنكم عقدة الأسباب

وقال أبو موسى التيمي: توفيت النوار امرأة الفرزدق، فخرج في جنازتها وجوه أهل البصرة وقراؤها، وفيهم الحسن بن أبي الحسين البصري، فقال الحسن للفرزدق: يا أبا فراس ما أعددت لهذا اليوم؟

فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يدركن - يعني الصلوات الخمس - فلما دفنت النوار قام الفرزدق على قبرها وقال:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني ... أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا قادني يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا ... سرابيل قطران لبوسا محرقا
إذا شربوا فيها الحميم رأيتهم ... يذوبون من حر الجحيم تمزقا

وقال مالك بن دينار: أتيت القبور يوما، فقلت فيها بيتين:

أتيت القبور فناديتها ... وأين المعظم والمحتقر
وأين المدل[47] بسلطانه ... واين العزيز إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتا ولا أرى شخصا، وهو يقول:

تفانوا جميعا فلا مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
وصاروا إلى مالك قاهر ... عزيز مطاع إذا ما أمر
تروح وتغدو بنات الثرى ... وتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أمالك فيما ترى معتبر
لقد. قلد القوم ما قدموا ... فإما نعيم وإما سقر

قال مالك: فرجعت وأنا أبكي.

وأنشد بعضهم:

قف بالقبور بأكباد مصدعة ... ودمعة من سواد القلب تنبعث

---

(٤٧) المدل بسلطانه: المفتخر به، الواثق، الشجاع.

وسل بها عن أناس طالما رشفوا ... ثغر النعيم وما في ظله مكثوا
ماذا لقوا في خباياها وما قدموا ... عليه فيها وما من أجله ارتبثوا[٤٨]
وعن محاسنهم إن كان غيّرها ... طول المقام ببطن الأرض واللبث
وما لهم حشرات الأرض تنهشهم ... نهشا تزول له الأعضاء والنجث[٤٩]
وتلكم الفتيات إذ طرحن بها ... هل كان فيهن ذا التغيير والشعث
فإن يجبك على لأي مجيبهم ... ولن يجيب وأنّى ينطق الجدث
فانظر مكانك في أفناء ساحتهم ... فإنه الجد لا هزل ولا عبث
واعمل لمصرع يوم هال أوله ... ومن أمامك فيه الروع والجأث[٥٠]

ولعلك[٥١] أيضا ممن يرفع قبروليه ويزخرفه ويشيده، ويشتغل بظاهره ويغفل عن باطنه، ولا يدري هل أبيضّ على من فيه أو أسودّ، وهل انفرج له أو انسد؟ وما ساكنه؟ اشقي أم سعيد، غوي أو رشيد؟ وأحسن عنده أن يتصدق بتلك النفقة عنه، ليزداد بها حسنة، أو يحط عنه بها سيئة.

وأنشدوا:

ليت شعري ساكن القبر المشيد ... هل وجدت اليوم فيه من مزيد
وهل الباطن فيه مثل ما ... هو في الظاهر تزويقا وشيد
وهل الأركان منه بالتقى ... نيرات أو بأعمالك سود
وهل المضجع فيه لين ... أو سعير مالها فيه خمود
ليت شعري ساكن القبر المشيد ... أشقي أنت فيه أم سعيد
اقريب أنت من رحمة من ... وسع العالم إحسانا وجود
أم بعيد أنت منها فلقد ... طرقت دارك بالويل البعيد

---

(٤٨) ارتبثوا: تفرقوا واختلفوا.

(٤٩) النُجث: غلاف القلب، ونجث على وزن ثلث وربع.

(٥٠) الجأث: الفزع. وفي الحديث أنه عليه السلام رأى جبريل، قال: فجئثت منه فرقا حين رأيته، اي ذعرت.

(٥١) من هنا إلى: واعلم رحمك الله انفردت به نسخة «ل».

ولقد حل بأرجائك ما ضاق عنه كل ما في ذا الوجود
أيها الغافل مثلي وإلى كم تعامى وتَلوّى وتحيد
ادن فاقرأ فوق رأسي أحرفا خرجت ويحك من قلب عميد
صرعته فكرة صادقة وهموم كلما تمضي تعود
وندامات لأيام مضت هو منها في قيام وقعود
وغدا ترجع مثلي فاتعظ بي وإلا فامض واعمل ما تريد
قد نصحناك فإن لم تره سيراه بصر منك حديد

واعلم رحمك الله أن الشيء الممكن وجوده لا يعرف مقداره على الحقيقة إلا إذا عدم وفقد، وطلب فلم يوجد، كما قال القائل:

مر الشباب ولم أقدر أراجعه ولم أحييه إلا بعدما انصرفا
والمرء يجهل قدر الشيء يمكنه حتى إذا فاته إمكانه عرفا

ألا ترى رحمك الله أن الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلا المرضى، والعافية لا يعرف مقدارها إلا المبتلى، فكذلك الحياة لا يعرف مقدارها إلا الموتى، لأنهم قد ظهرت لهم الأمور، وانكشفت لهم الحقائق، وتبدت لهم المنازل وعلموا مقدار الأعمال الصالحة، إذ ليس ينفق هناك إلا عمل صالح زكي، ولا يرتفع هناك إلا عبد تقي وكلما ازداد هنا عملا صالحا كان هناك أرفع درجة واشرف رتبة، وأكثر وجاهة، وكلما ازداد في الدنيا فضيلة كان أقرب إلى الله وسيلة.

فلما استبان لهم ذلك، وعلموا مقدار ما ضيعوا، وقيمة ما فيه فرطوا ندموا وأسفوا، وودوا لو أنهم إلى الدنيا رجعوا، وإلى حالتهم الأولى ردوا، وكل على حاله، فالذي عمل صالحا يود أن لو رجع إلى الدنيا فازداد من عمله الصالح، وأكثر من متجره الرابح.

والمقصر يود لو رُدّ فاستدرك ما فات، ونظر فيما فرط فيه.

فالمفرط المهمل بالجملة يكون تمنيه الرجوع أكثر وحرصه على الإقالة أشد، كل يتكلم عن حاله، ويخبر عما هو فيه، حتى قال الشهيد الذي قتل في

سبيـل الله لما قيـل له: ما تشتهي؟ قال: أريـد أن أرجع إلى الدنيا فأقاتل فأقتل مرة أخرى، وذلك لما يرى من فضل الشهادة وازدحام الحور العين عليه حال قتله.

وقال غيره: «رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت» وقالوا: ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل».

وقال: ﷺ ما من أحد يموت إلا ندم، قالوا: وما ندامته يارسول الله؟ قال: إن كا ن محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع. أخرجه الترمذي[٥٢].

ويروى أن رجلا جاء إلى القبور وصلى ركعتين، ثم اضطجع على شقه فنام، فرأى صاحب القبر في المنام، فقال له: ياهذا إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا نعمل، ولأن تكون ركعتاك في صحيفتي أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

وقال بعض الصالحين: مات أخ لي في الله، فرأيته في النوم فقلت له: يا فلان ما فعل الله بك عشت الحمد لله رب العالمين قال لي: لأن أقدر ـ يعني علي أن أقـول الحمـد لله رب العـالمـين ـ أحب إليّ من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر حيث كانـوا يدفنـونني فإن فلانـا جاء فصلى ركعتـين، لأن أكـون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها.

ألا ترى ـ رحمـك الله إلـى ندمـهـم على تفـريطـهـم، وتأسـفـهـم عل تضييعهم، ندمـوا والله حيث لا ينفـع النـدم، وطلبـوا ما لا يمكن، وسألـوا فيما ٤٩/أ لا يجوز فتركوا على حالهم، ولم يسعفوا في سؤالهم، وبقي كل واحد منهم فيما هو فيه.

ولمـا أشـرف بعضهم على الآخرة، وأخذ في الانحدار إلى أوديتها والتدلي في مهـاويهـا، وأراد التمسـك فلم يمكنـه ذلـك، وأراد التثبيت فلم يقدر عليه، والرجوع فلم يجد إليه سبيلا، أمر أن يكتب على قبره كذا، ويرسم عليه كذا، ليكون تذكرة لمن رآه، وموعظة لمن مر به، كما قال القائل.

---

(٥٢) الترمذي رقم ٢٤٠٥ في الزهد. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١١/ ١٨٠.

أيها الماشي بين القبور   غافلا عن حقيقة المقبور
أنا ميت كما تراني طريح   بين أطباق رضمة(٥٣) وصخور
ادن مني أنبيك عني   ولا ينبيك عني مثل خبير
أنا في بيت غربة وانفراد   مع قربي من جيرتي وعشيري
ليس لي فيه مؤنس غير سعي   من صلاح سعيته أو فجور
وكذا أنت فاتعظ بي وإلا   فعذيري منك الغداة عذير

فمن رأى قبرا فإنما رأى واعظا يعظه، ومذكرا يذكره، فإن كان القبر ساكتا فإنه ناطق بلسان الحال، ومفصح بما يكون منك في المآل، فكأنه إنما يخاطبك إنسان ويبين لك عاقبتك، ويقول لك: يا هذا كنت حيا مثلك وقد مت، وكذلك أنت تموت، فضيعت أمر ربي وندمت، وكذلك إن ضيعت أمر ربك ستندم، كما قال القائل:

ألا قل لماش على قبرنا   غفول عن أشياء حلت بنا
سيندم يوما لتفريطه   كما قد ندمنا لتفريطنا
فويحك كفّ خطام الهوى   وَقَدِّمْ جميلا تفزْ بالمنى

والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، وإنما هي ساعة واحدة وإن طال المدى وامتد العمر واتصلت الأيام، كما قال القائل:

وإنما عمرك المرجى   هذا الذي نلته كساعة

وقال الأصمعي: أصيب حصير حول الحيرة أدرج فيه رجل عليه خلقان، وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا عبد المسيح بن حيان بنْ نفيلة:

حلبت(٥٤) الدهر أشطره حياتي   ونلت من المنى فوق المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني   فلم أخضع لمعضلة كؤود
وكدت أنال بالشرف الثريا   ولكن لا سبيل إلى الخلود

---

(٥٣) الرضمة: مكان مرتفع من الأرض دون الهضبة، وفي الحديث: لما نزل وانذر عشيرتك الأقربين أتى رضمة جبل فعلا أعلاها. اللسان ـ رضم.

(٥٤) حلبت الدهر أشطره: أي جربت أموره خيرها وشرها. الأشطر: اخلاف الناقة.

وحدثني أبو الطاهر السلفي نزيل الاسكندرية فيما أذن لي أن أحدث به عنه بإسناده إلى وهب بن منبه قال: أصيب على قبر إبراهيم الخليل مكتوبا خلفه على حجر:

أْلهى جهولا أمله يموت من جاء أجله
وكيف يبقى آخر قد مات عنه أوله
ومن دنا من حتفه[55] لم تغن عنه حيله

ووقع في كتاب المجالسة لأبي بكر أحمد بن مروان المالكي الدينوري ووجد على قبره مكتوبا:

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث تروا كل إلى مثله سينتقل

وعلى آخر مكتوبا:

تناجيك أجداث وهن سكوت وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وانت تموت

ووجد على آخر مكتوب:

وقفت على الأحبة حين صُفَّتْ قبورهمُ كأفراسِ الرهانِ
فلما أن بكيت وفاض دمعي رأت عيناي بينهم مكانِ

ومما يذكر أنه وجد شعر قديم بالشام مكتوبا على قبر، وقيل إنه على قصر من قصور اليمن:

ماتوا على قلل[56] الأجبال تحرسهم غلب[57] الرجال فلم تمنعهم القلل
واستُنزِلوا بعد عز من معاقلهم وأنزِلوا حفرة يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دُفِنوا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل

---

(٥٥) حتفه: هلاكه، موته.

(٥٦) قلل الأجبال: أعالي رؤوسها.

(٥٧) غلب الرجال: جمع أغلب وهو غليظ العنق، والمراد العظماء.

فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
لطال ما أكلوا دهرا وما نعموا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

قال أبو القاسم محمد بن سعد: رأيت قبرا في بستان كثير النخل والرمان وأصناف الشجر، وعليه مكتوب:

كم ساكن في حفرة يبلى جديد جماله
ترك الأحبة بعده يتلذذون بماله

وقال جعفر بن محمد المستملي عن أبيه: قرأت على قبر:

ما حال من سكن الثرى ما حاله أمسى وقد صرمت(٥٨) هناك حباله
أمسى ولا روح(٥٩) الحياة يصيبه يوما ولا لطف الحبيب يناله
أضحى وحيدا موحشا متفردا متشتتا بعد الجميع عياله
أمسى وقد درست محاسن وجهه وتفرقت في قبره أوصاله
واستبدلت منه المجالس غيره وتقسمت من بعده أمواله
هل من قبيل(٦٠) تعلمون مكانه سلمت على حدث الزمان رجاله

قال: وقرأت على قبر أيضا:

يا باكي الميت على قبره امض ودعه سوف تسلاه
من عاين الموت فذاك الذي لم تر مثل الموت عيناه
كم من شقيق لم يجد غير أن أغمض من يهوى وسجّاه(٦١)
وكم محب لحبيب إذا سوى عليه اللحد خلّاه

ووجد على قبر مكتوبا:

الموت أخرجني من بيت مملكتي والترب مضطجعي من بعد تشريف
لله عبد رأى قبري فأعبره(٦٢) وخاف من دهره ريب(٦٣) التصاريف

---

(٥٨) صرمت: قطعت.
(٥٩) روح: راحة.
(٦٠) قبيل: جماعة.
(٦١) سجّاه: مد علوه الثوب وغطاه.
(٦٢) أعبره: اعطاه العبرة والعظة، أو جعله يبكي بعبره أي بدمعه.
(٦٣) ريب التصاريف: أحداث الدهر.

هذا مصير بني الدنيا وإن نعموا فيها وغرهم طول التساويف(٦٤)
استغفر الله من جرمي ومن زللي وأسأل الله فوزا يوم توقيف

ووجد على آخر مكتوبا:

قف واعتبر فكأن قد حللت هذا المحلّا
هذا مكان يساوي فيه الأعز الأذلّا
ما كان لي من صديق إلا جفاني وملّا
وما جفاني ولكن طال المدى فتسلّى

وعلى قبر أبي عامر بن شهيد مكتوب، وهو مدفون بإزاء صاحبه أبي مروان الرجال، وكأنه إنما يخاطبه، وقد دفنا في بستان كانا كثيرا ما يجتمعان فيه:

يا صاحبي قم فقد أطَلْنا أنحن طولَ المدى هجودُ
فقال لي لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيدُ(٦٥)
تذكر كم ليلة نعمنا في ظلها إذ الزمان عيد
وكم سرور همى(٦٦) علينا سحابه ثرة(٦٧) يجود
كل كأن لم يكن تقضّى وشؤمه حاضر عتيد
حصّله كاتب حفيظ وضمّه صادق شهيد
يا حسرتا إن نكبتنا(٦٨) رحمة مَن بطشُه شديد
يارب عفوا فأنت مولى قصّرَ في حقه العبيد

ورأيت على قبر أحدبني حبيب بإشبيلية مكتوبا في لوح رخام:

عمّرت خمسين واثنتين في حالة لم تقرّ عيني
أطيع دنيا دُفِعْت عنها إلى التي آذنت بحيْني(٦٩)

---

(٦٤) التساويف: جمع تسويف وهو التأجيل بأن يقول سوف أفعل.
(٦٥) الصعيد التراب.
(٦٦) همى: نزل.
(٦٧) ثرة: السحاب الثر: غزير المطر.
(٦٨) نكبتنا: عدلت عنا، تجنبتنا واعتزلتنا.
(٦٩) الحيْن: بسكون الياء: الهلاك، المحنة.

تركت في الحي أصفيائي ... وحيل ما بينهم وبيني
قد بنت عنهم أخرى الليالي ... ليس كبين الحياة بيني
وسوف ينسونني وشيكا ... من بعد خمسين واثنتين
إن كان دين الحياة ديني ... فسرني أن قضيت ديني

ومما وجد على قبر مكتوبا:

إن الحبيب من الأحباب مختلس(70) ... لا يمنع الموت حجّاب ولا حرس
وكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من عليه يعدّ اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا ... وانت دهرك في اللذات تنغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت من قبر وقفت به ... عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

وأمر أبو العلاء بن زهير، وكان طبيب عصره أن يكتب على قبره:

ترحّم بفضلك يا واقفا ... وأبصر مكانا دفعنا إليه
تراب الضريح(71) على صفحتي ... كأني لم أمش يوما عليه
أداوي الأنام(72) حذار المنون ... فها أنا قد صرت رهنا لديه

ووجد على قبر مكتوبا:

أنا مشغول بذنبي ... عن ذنوب العالمينا
وخطايا موبقات(73) ... تركت قلبي حزينا
ولقد كنت جليلا ... في عيون الناظرينا
صرت في ظلمة قبري ... خاليا فيه رهينا
في ثرى الأرض وحيدا ... في جوار الهالكينا
وتركت الأهل والما ... ل لعمري والبنينا

---

(70) مختلس: مأخوذ.
(71) الضريح: القبر.
(72) الأنام: الناس.
(73) موبقات: مهلكات.

ولقد عمّرت دهرا بعد أحقاب سنينا
في نعيم وسرور فوق وصف الواصفينا
وملكت الشرق والغرب وكان الملك فينا
وفتحت المدن قهرا وغلبت الغالبينا
فأتى الموت علينا بعد هذا ففنينا
أيها المغرور بادِرْ لثواب الصالحينا
كل حي سوف يفنى غير محيي الميتينا

ووجد على قبر مكتوبا:

هذي منازل أقوام عهدتهم في ظل عيش عجيب ما له خطر
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا إلى القبور فلا عين ولا أثر

ومما يذكر أنه وجد على قبر بطليطلة إذ كانت للمسلمين مكتوبا:

كأنك قد رحلت عن المباني ووارتك الجنادل[74] والصعيدُ
وناداك الحبيب فلم تجبه وقُرْبك منه في الدنيا بعيدُ
وأصبح مالُكَ المجموعُ نهبا وعطل بعدك القصر المشيدُ
وصار بنوك أيتاما صغارا وعانق عِرسَكَ[75] البعل[76] الجديدُ
وأكبر منه أنك لست تدري شقي أنت ويحك أم سعيدُ

ووجد على باب مقبرة مكتوبا:

سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالسِ
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يطعموا من كل رطب يابسِ
ولم يك منهم في الحياة منافس طويل المنى فيها كثير الوساوسِ
ألا ليت شعري أين قبر خليلكم وقبر العزيز الشامخ المتشارسِ[77]

---

(74) الجنادل: الصخور.
(75) عرسك: زوجتك.
(76) البعل: الزوج.
(77) المتشارس: الذي به شراسة أو يدعيها ويتظاهر بها.

لقــد صِرْتِ في غايـة الـترب واحـدا　　فهــاهــم بها مابــين راج ويــائسِ
ولــو عقــل المـرء المنـافس في الـذي　　تركـتـم من الــدنـيــا له لم ينـافسِ



الباب التاسع

في زيارة القبور والبكاء عندها، وما جاء أن الميت يعرف من زاره، ويبلغه دعاء من دعا له وسلام من سلّم عليه، وفي إباحة زيارة قبر الوالدين المشركين، وما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أحوالهم وأعمالهم.

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى الناس من حوله وقال ﷺ: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت(1)

وذكر أبو داود من حديث بريدة بن حصيب قال: قال رسول الله ﷺ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة(2).

وذكر النسائي عن بريدة أيضا عن النبي ﷺ قال: من أراد أن يزور قبرا فليزره ولا تقولوا هجرا.

وذكر أبو عمر بن عبدالبر من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ما من رجل يزور قبر أخيه المؤمن كان يعرفه ويسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام.

ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم.

---

(1) مسلم رقم ٩٧٦ في الجنائز. وأبو داود رقم ٣٢٣٤ في الجنائز. والنسائي ٤/ ٩٠ في الجنائز. جامع الأصول ١١/ ١٥٣.

(2) أبو داود رقم ٣٢٣٥ في الجنائز. ١١/ ١٥٢ جامع الأصول.

وذكر النسائي عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله ملائكة سياحين يبلغونني من أمتي السلام[٣].

وذكر أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام[٤].

وقال سليمان بن نعيم: رأيت النبي ﷺ ٤٩/ب في النوم، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه منهم؟ قال نعم وأرد عليهم.

وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المقابر قال: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ، ونحن لكم تبع، أسأل الله لنا ولكم العافية[٥]. وكان عليه السلام يعلمهم مثل هذا أن يقولوه إذا دخلوا المقابر، وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه، ودعاء من دعا له.

ويروى أن الفضل بن موفق قال: كنت آتي قبر أبي المرة بعد المرة وأكثر من ذلك، فشهدت يوما جنازة في المقبرة التي دفن فيها فتعجلت بحاجتي ولم آته، فلما كان من الليل رأيته في المنام، فقال لي: يابني لم لا تأتيني؟ فقلت له: يا أبت وإنك لتعلم بي إذا أتيتك؟ قال: أي والله يا بني، وإنك لتأتيني فما أزال أنظر إليك حتى تطلع من القنطرة، حتى تصل إليّ وتقعد عندي ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز[٦] القنطرة.

وكذلك أبيحت زيارة القبور للنساء كما أبيحت للرجال، وأبيح لهن البكاء عند القبور كما أبيح للرجال.

مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر صبي لها، فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك[٧] عني فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فلما ذهب

---

(٣) النسائي ٣/٤٣ في السهو، باب السلام على النبي ﷺ، ورواه أحمد والدارمي وابن حبان. جامع الأصول ٤/٤٠٦.

(٤) أبو داود رقم ٢٠٤١ في المناسك، باب زيارة القبور، جامع الأصول ٨/٥٤٥.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٩٧٥ في الجنائز. والنسائي ٤/٩٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٥٧ وليس فيه أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع. ومعنى فرط: سابق متقدم.

(٦) تجوز: تعبر، تجتاز.

(٧) إليك عني: ابتعد.

قيل لها: إنه النبي ﷺ فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت: يارسول الله لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.

والحديث صحيح مشهور ذكره مسلم والبخاري وغيرهما.

ولو كان بكاء النساء عند القبور وزيارتهن لها حراما لنهاها ﷺ ولزجرها زجرا يزجر بمثله من أتى محرما وارتكب منهيا.

وما روي من النهي عن زيارة القبور للنساء فغير صحيح، والصحيح ما ذكرت لك من الإباحة، إلا أن عمل النساء في خروجهن ما لايجوز لهن من تبرج أو كلام أو غيره فذلك هو المنهي عنه. وقد أبيح لك أن تبكي على قبر ميتك حزنا عليه أو رحمة له مما بين يديه، فإن وجدت لك بكاء فإبك، ومع بكائك على ميتك فلا تغفل عن بكائك على نفسك، وعن الفكرة فيما عملته في يومك وأمسك، وفي مآلك عند حلول رمسك.

بل لو أمكنك أن تجعل بكاءك كله عليك كان الأولى بك والأحمد لك.

وأنشدوا:

لمن جدث لدى باب البنود ... صدعت عليه أكباد العميد
نظرت إليه منتبذا بعيدا ... فذكرني بمنتبذ بعيد
مررت به فحادثني حديثا ... أعاد عليّ أحزاني وعيد
وأبكاني وأبكى ... ومثلي من بكى عند اللحود
وما بي من ثوى[8] فيها ولكن ... غداة غد سأدخل في العديد

وفي هذا المعنى:

ولما حللنا من بجاية جانبا ... تصان به هذي الجسوم وتكرم
وجدت لها طيبا وروحا وراحة ... كأني لأنفاس الصبا اتنسم
فقلت لصحبي ما الذي أمرجت[9] له ... مقابر منها لاطيء[10] ومسنم

---

(٨) ثوى: نزول وإقامة، ومنه المثوى.

(٩) أمرجت: وسعت وصارت كالمرج.

(١٠) لاطيء: لاصق، قريب من الأرض. ومسنّم: غير مسطح كأنه السنام.

فأوهمتهم أني جهلت وانني ... لأدري بذاك الأمر منهم وأفهم

فقالوا طلبنا علم ذاك فلم نجد ... سوى رمم ممن تحب وتعظم

تضوّع[11] بطن الأرض منها كأنما ... تفتق من دارين مسك مختم

ففاضت دموعي عند ذاك وربما ... تُشَهِّرُ بالدمع السرار المكتم

خليلي ما بالي وبال نوائب[12] ... يراع لذكراها فؤادي ويكلم[13]

ومما شجاني وهو أعظم أنني ... قذقت به مسودة الجوف تلطم

ولم أدر ما كانت تحية خصمه ... له هل ببُشْرى أم بشنعاء تقصم

وأعظم منها موقعا وأشده ... وما خَصّني أدهى علي وأعظم

بأني في تلك المسالك سالك ... أساق إليها أن أبيْت وأرغم

وما أنا أدري ما ألاقي وما الذي ... عليه إذا ما كان ذلك أُقدِم

فهل من دم أبكيه صرفا فإنما ... يُبكى على هذا من المقلة الدم

وقد تقدم أن الميت يتأذى ببكاء أهله عليه، وفيه حديث ابن أبي شيبة يقول النبي ﷺ يا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم.

وربما يتأذى كذلك أو أكثر من ذلك ببكاء غير أهله، ويعتبر ذلك بالحي إذا بكى عنده من ليس له غرض في بكائه، ولا ارادة في عويله.

يروى عن أبي بكر بن اللباد قال: حدثتني عائشة الأندلسية - وكانت عائشة هذه من الصالحات - قالت توفي لي ولد بمصر فقدمت القيروان، فكنت أخرج إلى المقابر في باب سلم، فأجلس عند قبر وأبكي، فرأيت ذات ليلة كأني خرجت إلى باب سلم على عادتي وإذا أهل القبور قعود على أفنية قبورهم ٥٠/أ، الرجال والنساء والصبيان، فلما أقبلت إلى الموضع الذي كنت أبكي عنده، سمعت أهل القبور يقولون: قد جاءت هذه المرأة، ألها عندنا قبر تبكي عليه؟ قالوا: لا. قالوا: فلم تؤذينا ببكائها؟ قالت: ثم لطمني منهم ميت في خدي الأيمن، قالت: فقلت لهم: أتلطمون خدي وقد مسست به الركن

---

(١١) تضوّع: انتشرت رائحته.
(١٢) نوائب: جمع نائبة وهي المصيبة.
(١٣) يكلم: يجرح.

والحجر الأسود؟ فقالوا لي: قبرك بمصر وتؤذينا أنت هاهنا؟ قالت: فانتبهت وأثر اللطمة في خدي. قال أبو بكر: وكشفت لي عن وجهها فرأيت أثر اللطمة سوادا أقام نحوا من أربعين يوما ثم تقشر وذهب.

فينبغي لمن زار القبور أن يسلم على أهلها، وأن يدعو لهم ويسأل الله عز وجل فيهم، ويترك الكلام عندهم بما لا يحل، والحديث على رؤوسهم بما لا يُحَبّ، فإن كان المتكلم لا يدري مقدار ما يقول فإن الميت يدري مقداره ويتحقق موقعه ويتبين ضرره، فواجب عليك ألا تؤذيه بسماع ما لا يريد سماعه، وألا تدخل عليه ما لا يريد إدخاله، وإلا فربما لم يف لك خير زيارتك إياه بشر ما تنقلب به من عنده.

كان بقرطبة رجل من الزهاد المحتسبين يكنى بأبي مروان وكان ديّنا فاضلا، طلب العلم وروى الحديث وسمع من محمد بن وضاح، وسكن عنده إلى أن مات، وصلى عليه ابن وضاح ودفنه بمقبرة تعرف بمقبرة خلال، وتعرف أيضا بمقبرة المساكين، وكان ابن وضاح بعد ذلك متى حضر جنازة في تلك المقبرة مشى إلى قبر أبي مروان هذا فوقف به وسلم عليه ودعا له. فحضر جنازة في بعض الأيام في تلك المقبرة، وأعجله أمر عن المشي إليه على عادته للسلام عليه والدعاء له، قال ابن وضاح فلما كانت الليلة المقبله رأيت أبا مروان في نومي وكأنه يقول لي يا أبا عبدالله كن إذا دخلت هذه المقبرة وقفت بي وسلمت علي ودعوت لي فأنست بك وفرحت بدعائك، ودخلت اليوم فلم تفعل شيئا من ذلك فقلت: له يا أبا مروان وإنكم لتعرفون من يقف بكم ويسلم عليكم؟ فقال: نعم، ولقد قعد ابنك محمد على قبري اليوم مع رجل ما هو إلا يهودي، وتكلم بكلام ما هو إلا كفر، ولقد تأذيت بقعودهما وكلامهما. قال ابن وضاح: فلما أصبحت دعوت ابني محمدا فقلت له: اين قعدت أمس إذ حضرنا جنازة فلان؟ قال: عند قبر أبي مروان الزاهد، فقلت: مع من قعدت؟ فكتمني، فقلت له مع من قعدت وعزمت عليه، فقال لي: مع فلان وأعلمني بالقاعد معه، فعرفته، وكان ذلك الرجل مولعا ببعض الكلام، وقلت له: فيم تكلمتم وفيم خضتم؟ فقال: تكلمنا في الباري تبارك وتعالى وفي القرآن وغير ذلك: فقلت

له: إيـاك أن تقـاعـده أو تتكلم معه أو مع غيره في شيء من هذا، فإن أبا مروان أتاني البارحة في نومي فأعلمني بكذا وكذا.

وهـذه حكـايـة صحيحة عن ابن وضاح. وفي بعض طرقها ان ابنه قال: سبحان الذي جعل أبا مروان وكيلا علينا في حياته وبعد مماته.

٥٠/ب وكـما يتأذى الميت ـ رحمـك الله ـ بما يسمع من الكفر، فكذلك يتأذى بما يسمـــع من الفحش والهجـر، ولكنـه أذى دون أذى، فواجب عليـك ألا تؤذيـه بقليل ولا كثير، وإن لم تنفعه فلا تضره.

واعلم أن الميت كالحي فيما يعطاه ويهدي إليه، بل الميت أكثر وأكثر، لأن الحي قد يستقل بما يهدى إليه ويستحقر ما يتحف به، والميت لا يستحقر شيئا من ذلـك ولـو كان مقـدار جناح بعوضة، أو وزن مثقال ذرة لأنه يعلم قيمته وقد كان يقدر عليه فضيعه.

ومما يدلك على صحة وصول ما يهدي الحي إلى الميت قوله ﷺ إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له(١٤).

فدعـاء الـولـد يصـل إلى والده، وينتفع به، وكذلك أمْره عليه السلام بالسلام على أهـل القبـور والـدعـاء لهم، ما ذاك إلا لكـون الدعاء لهم والسلام عليهم يصل إليهم ويأتيهم. والله أعلم.

ويـروى أن النبي ﷺ قال: الميت كالغـريق في قبره ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها.والأخبار في هذا كثيرة.

قال بشر بن منصور: كان رجـل زمن الطـاعون يختلف إلى المقابر، ثم يستقبل القبور فيقول: أمن الله روعتكم، آنس الله وحشتكم، رحم الله غربتكم، تقبل الله حسنـــاتكم، تجاوز الله عن سيئـــاتكم، لا يزيـد على هؤلاء الكلمات. قال الرجل: فانصرفت ذات يوم ولم أدع، فلما كان الليل رأيت فيما يرى النائم خلقا

---

(١٤) رواه مسلم رقم ١٦٣١ في الوصية. وأبو داود رقم ٢٨٨٠ في الوصايا والترمذي رقم ١٣٧٦ في الأحكام. والنسائي ٦/٢٥١ في الوصايا. جامع الأصول ١١/١٨٠.

كثيرا قد جاءوني فقلت لهم: من أنتم؟ قالوا: أهل المقابر. قلت: وما حاجتكم؟ قالوا إنك قد عودتنا منك هدية تهديها إلينا عند انصرافك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها لنا، قلت: فإني أعود لما كنت أدعو به، قال: فما تركت ذلك بعد.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعة العدوية - يعني العابدة - في المنام، وكنت كثير الدعاء لها، فقالت: يا بشار هديتك تأتينا في أطباق من نور عليها مناديل حرير، وهكذا يا بشار دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا لأخوانهم الموتى فاستجيب لهم يقال هذه هدية فلان إليك.

ورأيت لبعض من يوثق به قال: ماتت لي امرأة فقرأت في بعض الليالي آيات من القرآن فأهديتها لها، ودعوت الله عز وجل واستغفرت وسألت، فلما كان في اليوم الثاني حدثتني امرأة تعرفني وتعرفها، قالت لي: رأيت البارحة فلانة في النوم - تعني الميتة المذكورة - في مجلس حسن في دار حسنة، وقد أخرجت لي أطباقا من تحت سرير كان في البيت، والأطباق مملوءة قوارير فقالت لي يا فلانة هذا أهداه لي صاحب بيتي. قال: وما كنت أعلمت بها أهديت من ذلك أحدا.

وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة، فمررت على مقابر ٥١/أ فنزلت الخندق فتوضأت وصليت ركعتين، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت، فإذا بصاحب القبر في المنام قد وقف بي ثم قال: يا هذا لقد آذيتني منذ الليلة، يعني بوضع رأسه على قبره، ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيرا، فإنهم لا يزال يدخل علينا من دعائهم أمثال الجبال، فأقرئهم مني السلام.

وحدثني من أثق به قال: رأى فلان - وسمى رجلا موثوقا به - في النوم فلانة، وكانت ميتة، قال: فقالت لي: يا هذا إمض إلى ابنتي فلانة الفاعلة الصانعة - تسبها - وقل لها: أهذا من الصواب أو من البر أن أقعد مع النساء فتأتيهن الطرف والهدايا من عند بناتهن وإخوانهن وأهليهن، وأتطلع وأنا أنظر يمينا وشمالا رجاء أن يأتيني منها شيء فلا يأتي فأبقى خجلة عند النساء خزيانة بينهن، وقل لها أو لفلانة تمضي إلى موضع كذا وكذا فإن فيه دنانير مدفونة فتفعل بها كذا وكذا، قال فوجدت الدنانير كما قالت.

والأخبار في هذا الباب كثيرة قديما وحديثا. فينبغي لمن دخل المقابر أن يتخيل أنه ميت وأنــه قد لحق بهم ودخــل في معسكــرهم، وأنــه محتــاج إلى ما هم إليـه محتاجون، وراغب فيما هم فيه راغبون، فليأت إليهم بما يحب أن يؤتي به إليه، وليتحفهم بما يحب أن يتحف به، وليتفكـر في تغيـير أحـوالهم وألـوانهم، وتقطـع أبـدانهم، وتنكّـر أحوالهم، وكيف صاروا بعد الأنس بهم والتسلي بحديثهم إلى النفـار من رؤيتهم والـوحشـة من مشاهدتــهم ويتفكر أيضا في انشقاق الأرض وبعثـرة القبـور وخـروج الموتى وقيامهم بمرة واحدة حفاة عراة غرلا مهطعين إلى الداعي مسرعين إلى المنادي.

قال مطـرف بن أبي بكـر الهذلي: كانت عجوز متعبدة في بني عبد قيس، وكـانت إذا جاء الليـل قامت في محرابهـا، فإذا جاء النهـار خرجت إلى القبـور، فعـوتبت في كثـرة إتيـانها إلى القبور، فقالت: إن القلب إذا قسا وعتا لم يلينه إلا زيـارة المـوتى والـوقـوف على رسـوم البلى، فإني لآتي القبور فأقف عليها وأنظر إليهـا، وأعتـبر بها وأتفكـر فيهـا، فكأني أنظـر إليهم وقـد خرجوا من بين أطباقها وانبعثوا من تحت أحجارها، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أشد نهكتها في الأجسام، وأعظم مرارتها في الأنفس.

وأعلم أن قبـور الصـالحـين لا تخلو من بركـة، وأن زائـرها والمسلّم عليها والقـاريء عنـدهـا والداعي لمن فيها لا ينقلب إلا بخير ولا يرجع إلا بأجر، وقد يوجد لذلك أمارة ويبدو منها بشارة.

روى أن رسـول الله ﷺ لما نزل بالمأزمـين قال له أصحـابه يا رسول الله إنا نجد هاهنا ريح مسك، فقال: وما يمنعكم وهاهنا قبر أبي معاوية، وأبو معاوية هو عبـادة بن الحـارث بن عبـدالمطلب ابن عم النبي ﷺ قتـل يوم بدر شهيـدا، وكان خرج ذلك اليوم ومات هناك شهيدا، رضي الله عنه.

وروى يحيى بن سعيد عن شعبة بن الحجاج قال:

٥١/ب فتن الناس بقبر عبدالله بن غالب، كان يوجد ريح المسك منه.

قال مالك بن دينار رحمه الله: ذهبت إلى قبر عبدالله بن غالب رضي الله عنه فأخذت من ترابه فإذا هو مسك أو كأنه مسك.

وقال حماد بن زيد حدثني سعيد بن زيد قال: أدخلت يدي في قبر عبدالله بن غالب إلى المرفق، فأخرجت منه ترابا فإذا ريحه ريح مسك.

وقصة هذا القبر صحيحة مشهورة، ولما خيف على الناس منه الفتنة سُوِّيَ.

حدثنا أبو الوليد اسماعيل بن أحمد المعروف بابن افرند، وكان هو وأبوه صالحين معروفين، قال: قال أبو الوليد مات أبي رحمة الله عليه، فحدثني بعض إخوانه ممن يوثق به وبحديثه - نسيت أنا اسمه - قال لي زرت قبر أبيك فقرأت عليه حزبا من القرآن، ثم قلت له يا فلان هذا أهديته لك فماذا لي؟ قال: فهبت عليَّ نفحة مسك غشيتني وأقامت معي ساعة، ثم انصرفت وهي معي، فما فارقتني إلا وقد مشيت نصف الطريق.

وروى أبو محمد عبدالله البكري ويعرف بالمغاور، وكان من الصالحين والله أعلم مشهورا بالصدق والخير، قال: زرت قبر الزبير بن العوام صاحب النبي ﷺ وقرابته، وهو أحد العشرة، وقبره بأرض البصرة قال: فبينما أنا على قبره إذ رأيتني قد صب عليّ ماء ورد من الجو فبلني حتى بل مرقعتي، رأيت ذلك وأنا حاضر الذهن مفتوح العين.

وغير بعيد أن يخلق الله على رأسه ماء ورد يبله بل يبل الأرض كلها إذا شاء، كرامة لصاحب نبيه ﷺ وبشرى لهذا بزيارته إياه، ولا يلزم أن يكون هذا لكل زائر ولا عند كل مزور، بل يكون الزائر أفضل من هذا، والمزور أفضل من ذلك، ولا يكون شيء من هذا.

وللكلام على هذا موضع آخر.

وذكر ابن اسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور.

ويستحب لك رحمك الله أن تقصد بميتك قبور الصالحين ومدافن أهل الخير فتدفنه معهم وتنزله بإزائهم، وتسكنه في جوارهم تبركا بهم وتوسلا إلى الله تعالى بقربهم، وأن تجتنب به قبور من سواهم ممن يخاف التأذي بمجاورته والتألم بمشاهدته فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: إن الميت يتأذى بالجار السوء كما

يتأذى به الحي .

يروى[15] أنــه دفنت امــرأة بقــرطبــة ، فأتت أهلهــا في النــوم ، فجعلت تعــاتبهم وتشكــوهم ، وتقــول : ما وجـدتم أن تدفنــوني إلا إلى بيت فرن جير، فبحثـوا وسألـوا عمن كان مدفـونا بإزائها ، فوجدوه رجلا سيافا كان لابن عامر، وقـبره إلى قبرهــا ، فأخرجوها من جواره ، والله تعالى أعلم بحقيقة حال المقبور، وإنما لنا ما ظهر خاصة ، ولله عز وجل ما ظهر وما بطن .



(١٥) من هنا إلى : من جواره انفردت به نسخة «ل» .

الباب العاشر

٥١/ ب ذكر منامات رئيت لبعض الصالحين تدل على ما هم فيه من الخير وحسن العاقبة

قال ﷺ إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ، قال : فشق ذلك على الناس، فقال : لكن المبشرات ، قالوا يارسول الله وما المبشرات؟ قال : رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة[١]

وقد فسر قوله تبارك وتعالى : ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ أنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له[٢].

ذكر الحديثين الترمذي .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : الرؤيا الصالحة بشرى من الله .

ومن حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة[٣]. ذكر هذا الحديث مسلم وغيره .

وقال ﷺ رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[٤]. وإذا ثبت صلاح العبد صدقت رؤياه، وإلا فهي تسر ولا تضر والله أعلم بمن يثبت صلاحه وبمن يصدق كل ما يراه، وليس هذا موضع الكلام وسأذكر لك جملا من هذه الأخبار.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٣ في الرؤيا . وقال صحيح غريب . جامع الأصول ٢ / ٥٢٦ .

(٢) رواه مالك في الموطأ ٢ / ٩٥٨ في الرؤيا . وإسناده صحيح جامع الأصول ٢ / ٥٢٦ .

(٣) مسلم رقم ٢٢٦٥ في الرؤيا جامع الأصول ٢ / ٥٢٥ .

(٤) رواه البخاري ١٢ / ٣٣١ في التعبير . جامع الأصول ٢ / ٥٢٥ .

وذكر البخاري من حديث أم العلاء وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ
٥٢/أ قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين أقرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى فمرضناه حتى توفي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري والله، قال: أما هو فقد جاءه اليقين إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده.

قالت وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان بن مظعون في النوم عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذلك عمله يجري له.

ويروى عن عبدالرحمن بن غنم أنه قال: رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق، وخلفه كرجال أهل منى، رجال بيض وعليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول: ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين، ثم التفت يمينه وشماله يقول: يا ابن رواحة، يا ابن مظعون الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين، قال: ثم صافحني وسلم عليّ.

معاذ بن جبل وعثمان بن مظعون وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم تشهد لهم صحبة رسول الله ﷺ بما هم فيه من الخير، وبما صاروا إليه من الكرامة، ولا يحتاج لهم إلى رؤيا، ولكن أردت ألا أخلي هذا الباب من ذكر بعض الصحابة رضي الله عنهم.

قال صالح بن بشير المري: رأيت عطاء السلمي في النوم بعد موته، فقلت له: يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، فقال: أما والله لقد أعقبني ذلك فرحا طويلا وسرورا دائما، فقلت: في أي الدرجات أنت: قال: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أول قدم على الصراط، والثاني في الجنة، وقال إبراهيم بن إياس، رأيت سفيان الثوري في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا مع السفرة

قلت: وما السفرة؟ قال: الكرام البررة.

وقال عبدالله بن المبارك: رأيت الثوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت محمدا وحزبه.

وقال صخر بن راشد: رأيت عبدالله بن المبارك في النوم بعد موته، فقلت له: أليس قد متّ؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ(٥) بخ ذلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وعن قبيصة بن سفيان قال: رأيت سفيان الثوري في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عيانا فقال لي	هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما إذا الليل قد دجا(٦)	بعبرة(٧) محزون وقلب عميد
فدونك(٨) فاختر أي قصر تريده	وزرني فإني منك غير بعيد

٥٢/ب وعن سفيان بن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم وقد مات كأنه يطير في الجنة من شجرة إلى نخلة، ومن نخلة إلى شجرة وهو يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون، فقيل له: بم دخلت الجنة؟ قال: بالورع، فقيل له: فما فعل علي بن عاصم؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب.

وكان شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام رحمهما الله رجلين فاضلين جليلين، وكانا من ثقات المحدثين وحفاظهم، وكان شعبة أكبر وأجل، فماتا، قال أبو أحمد اليزيدي: فرأيتهما في النوم وكنت إلى شعبة أميل مني إلى مسعر، فقلت له: يا أبا بسطام ما فعل الله بك؟ قال: وفقك الله يا بني لحفظ ما أقول. ثم أنشد:

---

(٥) بخٍ: اسم فعل وتقال هذه الكلمة للرضى بالشيء أو المدح، وقد تكرر للمبالغة.

(٦) دجا: أظلم.

(٧) عبرة: بفتح العين وتسكين الباء: دمعة.

(٨) دونك: خذ.

حبـاني[9] إلهـي في الجنـان بقبـة | لها ألـف باب من لجين[10] مجوهـرا
وقـال لي الجبـار يا شعبـة الـذي | تبـحـر في جمع الـعـلوم فأكثـرا
تنـعم بقـربي إنني عنـك ذو رضـا | وعن عبـدي القـوام في الليـل مسعرا
كفـى مسـعـرا عزا بأ ن سيـزورني | وأكشف عن وجهي ويـدنـو لينظـرا
فهـذي فعـالي بالـذين تنسكـوا[11] | ولم يألفـوا في سالف الـدهـر منكـرا

وذكر أبو الحسن بن جهضم عن أبي بكر أحمد بن محمد بن الحجاج قال: حدثني رجل من أهل طرسوس، قال: دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور، حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين فيما يرى النائم كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام وقالوا: يا هذا كم تدعو الله أن يريك إيانا؟

تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحفه[12] الملائكة تحت شجرة طوبى؟.

وهـذا الكـلام من أهـل القبور إنما هو عبارة عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفـاع مكـانته وعظم منزلته، فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعما هو فيه إلا بهذا أو بما هو في معناه.

وقال محمد بن أحمد الكندي: رأيت أحمد بن حنبل في النوم، فقلت له: يا أبا عبدالله ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ثم قال لي: يا أحمد ضُرِبْت فيَّ ستين سوطا؟ قلت: نعم يارب، قال: هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه.

ويـروى عن عبـدة العـابدة قالت: لما حضرت الوفاة رابعة العدوية قالت لي: يا عبـدة لا تؤذني بمـوتي أحـدا، وكفنيني في جبتي هذه وهي جبـة من شعـر كانت تصلي بالليل فيها، قالت: فكفناها في تلك الجبة وفي خمار[13] من صوف

(٩) حباني: خصني.
(١٠) لجين: فضة.
(١١) تنسكوا: تعبدوا وتزهدوا.
(١٢) تحفّه: تحيط به.
(١٣) غطاء الرأس.

كانت تلبسه، قالت: عبدة: فرأيتها في منامي بعد دفنها وعليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر قط شيئا أحسن منهما، قالت: فقلت لها: يارابعة ما فعلت تلك الجبة التي كنا كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنما والله نزعا مني واستبدلت بهما هذا الذي ترين علي، وطويا وختم عليهما ورفعا في عليين ليكمل ثوابهما إلى يوم القيامة. قلت لها: فما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب؟ قالت: هيهات هيهات سبقتنا والله ٥٣/أ إلى الدرجات العلى، قلت لها وبم وقد كنت انت عند الناس أكبر منها؟ قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا ولا أمست، قلت: فما فعل ضيغم بن مالك؟ قالت: يزور الله عز وجل متى شاء، قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: بخٍ بخٍ أعطي والله فوق ما كان يأمل.

قالت: فقلت لها: فيم تأمرينني أن أتقرب إلى الله عز وجل؟ فقالت: عليك بذكر الله فيوشك أن تغتبطي(١٤) بذلك في قبرك.

وقال بعض الصالحين: رأيت بشر بن منصور في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فأعرض عني، فقلت له: فضيغم بن مالك؟ قال: ركب إلى الله الساعة.

وقال ابن ثعلبة العابد: رأيت ضيغم بن مالك في النوم بعد وفاته، فقال لي: يا ابن ثعلبة أما صليت علي؟ فذكرت له شيئا منعني، فقال: أما أنك لو صليت عليّ لربحت رأسك، يقول لنجوت وغفر لك.

وقال أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث: رأيت بشر بن الحارث ومعروفا الكرخي رحمة الله عليهما وهما جائيان وكأنهما في قبة أو كما قال: فقلت: من أين؟ قالا: من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى عليه السلام.

ولما احتضر حجاج الزاهد قيل له: ما تشتهي؟ قال: الله، ثم خرجت نفسه، فرآه بعض إخوانه في النوم يمشي على حائط، قال: فرفعت رأسي إليه وأنا أمشي بالأرض، فقلت له: أبا يوسف كيف حالك؟ وكيف أنت؟ وعلام

---

(١٤) تغتبطي: تفرحي.

قدمت؟ قال: فضحك وقال: ما الأمر إلا سهل ما رأيت شيئا مما كنت أخافه والحمد لله رب العالمين.

وعن سعيد بن أسد أن رجلا كان من دعائه: اللهم سهل عليّ الموت ويَسِّرْ عليّ الحساب، وبارك لي في اللقاء، وأعذني من جهد البلاء، فمات، فرئي في النوم، فقيل له: ما فعلت؟ فقال: لقيت خيرا، وكل شيء سألت الله أن يعطينيه أعطانيه.

وقال بعض الصالحين: رأيت بشر بن الحارث في النوم، وما كنت رأيته في اليقظة ولا كلمته قط، فرأيت كأني واقف بين يدي الله عز وجل أسمع كلاما ولا أرى أحدا وهو يقول: يا بشر قد قبلْناك وقبلنا ما كان منك، فسمعت بشرا يقول: ومن تبعني يارب، قال: قد غفرت لهم.

وقال عاصم الجزري: رأيت في النوم كأني لقيت بشر بن الحارث فقلت: من أين يا أبا نصر؟ فقال: من عليين. قال: فقلت له: ما فعل أحمد بن حنبل؟ قال: تركته الساعة مع عبدالوهاب الوراق بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت له: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه.

وقال أبو جعفر السقاء: رأيت بشر بن الحارث في النوم بعد موته، فقلت له: يا أبا نصر ما فعل الله بك؟ فقال: ألطفني ورحمني وقال لي: يا بشر لو سجدت لي في الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادي منك، وأباح لي نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت، ووعدني أن يغفر لمن تبع جنازتي فقلت له: ما فعل أبو نصر التمار؟ قال: ذاك فوق الناس لصبره على بلائه وفقره.

لعله أراد بقوله: أباح لي نصف الجنة نصف نعيم الجنة، لأن نعيم الجنة نصفان: نصف روحاني ٥٣/ب ونصف جسماني، فيتنعمون أولا بالروحاني ثم إذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسماني إلى النعيم الروحاني والله أعلم بما أراد.

وذكر بعض الصاحلين قال: رئي بشر بن الحارث في النوم وهو يهرول[١٥] ويقول الساعة انطلقنا من السجن.

وقال أبو الحسن المالكي: صحبت خيرا النساج سنين كثيرة، فقال لي قبل موته بثمانية أيام: أنا أموت يوم الخميس قبل المغرب، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة، وستنسى هذا فلا تنس، قال: فنسيته إلى يوم الجمعة، فلقيت من أخبرني بموته فخرجت لأحضر جنازته، فوجدت الناس قد أخرجوا جنازته قبل الصلاة كما قال، فسألت من حضر وفاته، فقال: إنه غشي عليه ثم أفاق فالتفت إلى ناحية البيت وقال: قف عافاك الله فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور والذي أمرت به أنت لا يفوتك، والذي أمرت به أنا يفوتني، ثم دعا بماء فجدد الوضوء ثم صلى، ثم تمدد وغمض عينيه ومات رحمه الله، فرئي في المنام فقيل له: كيف حالك؟ فقال: لا تسأل ولكني تخلصت من دنياكم الوضرة[١٦].

وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم يا سيدي حبست من شئت عن خدمتك، وأطلقت لها من أحببت من خلقك، غير ظالم ولا مسئول عن فعلك، وقد تقدمت لي فيك آمال، فلا تجمع عليّ المنع من الطاعة وخيبة الأمل فيك يا كريم، فكان هذا خاتمة دعائه، فلما مات رئي في المنام في الجنة، فقيل له: بم نلت هذا؟ قال: بذلك التضرع، والاستغاثة في الأسحار، قيل: ورئي عليه حلة قال الرائي: فما رأيت شبها لها، وعليها مكتوب بالذهب انعم فقد نلت الأمل، فقلت له: ما هذا الكتاب على ثيابك؟ قال: هذا خاتمة تضرعي وأملي الذي كنت أؤمله من سيدي.

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلي رحمه الله في المنام وكأني قاعد في مجلس الرصافة بالموضع الذي كان يقعد فيه، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان، قال: فقمت إليه وسلمت عليه، وجلست بين يديه، فقلت له: يا سيدي من أقرب أصحابك إليك؟ فقال مسرعا: ألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله.

---

(١٥) يهرول: يجري جريا خفيفا.

(١٦) الوضرة: الوسخة.

وقال أبو عبدالرحمن الساحلي: رأيت ميسرة بن سلم في المنام بعد موته، فقلت له: أصلحك الله طالت غيبتك، فقال: السفر طويل، قلت: فما الذي قدمت عليه؟ فقال: رخص لنا لأننا كنا نفتي بالرخص، فقلت له: فما تأمرني به؟ فقال: اتباع الآثار، وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار.

وروي عن شعيب بن حرب قال: كانت بمكة امرأة من الصالحات من أهل القرآن، فرأت فيما يرى النائم حول الكعبة وصائف بأيديهن الرياحين وعليهن المعصفرات، فقالت: سبحان الله أحول الكعبة يكون هذا؟! فقيل لها: أما علمت أن عبدالعزيز بن أبي رواد تزوج الليلة؟ ٥٤/أ قالت: فاستيقظت فإذا عبدالعزيز بن أبي رواد قد مات في تلك الليلة.

وقال بعض الصالحين: رأيت في النوم كأني في السماء، ولأهل السماء ضجيج وحركة، وهم يقولون: جاء المحسن جعفر بن الزبير، فانتبهت فمشيت إلى منزله، فوجدته قد مات.

ويروى عن أبي جعفر الضرير أنه قال: رأيت عيسى بن زادان في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

لو رأيت الحسان في الخلد حولي ... وأكاويبها(١٧) بصافي الشراب

يترنمن(١٨) بالقرآن جميعا ... يتمشين مسبلات(١٩) الثياب

وقال عبود المعلم، وكان يعرف بوجه الجنة: رأيت أبا عبدالله الفزاري المعلم في النوم بعد موته، فقلت له: كيف وجدت الأمر؟ قال: أسهل مما تذكرون، وأصعب مما تصفون، فقلت له: صاحبك سهل الوراق أمعك هو؟ قال: يدي في يده، ويده في يدي ـ يعني في الجنة ـ ولكنه أطول مني قامة.

وقوله: أطول مني قامة: يريد أرفع مني مرتبة، وكان قد رآه بعد موته.

ويروى عن معوذ بن داود الباكرتي وكان من الصالحين أنه قال: رأيت أبا حفص عمر بن عبادل الرعيني الزاهد بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟

---

(١٧) أكاويب: أكواب.

(١٨) يترنمن: يغنين.

(١٩) مسبلات: مطيلات.

فقال: لو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير، وهذا يدل على أنه فعل معه خير فأراد الزيادة منه.

وعن يعلي بن عبيد قال: جاء رجل إلى سفيان الثوري فقال له: يا أبا عبدالله رأيت في المنام كأن ملكا نزل من السماء إلى الشام، فاقتلع ريحانة ثم صعد بها إلى السماء، فقال له سفيان: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي، فحفظ ذلك اليوم فجاء نعيه أنه مات فيه.

ويروى عن حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن حفصة قالت: كان مروان المحلمي لنا جارا، وكان عابدا مجتهدا، فمات، فحزنت عليه حزنا شديدا، فرأيته في النوم، فقلت له: يا أبا عبدالله ما صنع بك ربك؟ قال: أدخلني الجنة، قلت: ثم ماذا؟ قال: رفعت إلى أصحاب اليمين، قلت ثم ماذا؟ قال: ثم رفعت إلى المقربين، قلت: فمن رأيت ثَم من أصحابك؟ قال: رأيت الحسن البصري ومحمد بن سيرين وميمون بن سياه، قال حماد: قال هشام: فحدثتني أم عبدالله وكانت من خيار نسلوأهل البصرة قالت: رأيت فيما يرى النائم كأني دخلت بستانا، فذكرتْ من حسنه ما شاء الله أن تذكر، فإذا أنا برجل متكيء على سرير من ذهب، وحوله الوصائف بأيديهن الأكاويب، قالت: فأنا متعجبة من حسن ما أرى إذ أتى ذلك الرجل فقيل له هذا مروان المحلمي قد أقبل، فوثب فاستوى جالسا على سريره، قالت: فاستيقظت من منامي فإذا بجنازة مروان المحلمي قد مر بها على بابي تلك الساعة.

ويروى عن عبدالواحد[٢٠] بن زيد ـ وكان من الصالحين، قال: رأيت في المنام ليلة مات الحسن البصري كأن أبواب السماء قد فتحت وكأن الملائكة صفوف، فقلت: ما هذا إلا لأمر عظيم، فسمعت مناديا ينادي ألا إن الحسن بن أبي الحسن قدم على الله وهو عنه راض.

٥٤/ب ويروى أن امرأة قالت لابن سيرين وهو يأكل: رأيت كأن شجرة ياسمين قلعت من الأرض ورفعت إلى السماء، وكأن الثريا سقطت من السماء

(٢٠) عبدالواحد: في ز عبدالرحمن.

في دارك، قال: فرفع ابن سيرين يده من الطعام وقال: أعظم الله أجري في نفسي، وإن كثر البقاء فإلى سبع. فكان كذلك.

ويروى عن عمرو بن عمر بن صفوان عن بعض مشيخته قال: رأيت في النوم كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقات ورأيت منها قبرا عليه سرادق وفسطاط وسدرة، فجئت حتى دخلت وإذا مسلم بن خالد الزنجي، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟ فقال: اني كنت كثير الصيام، فقلت له يا أبا خالد أين قبر ابن جريج؟ دلني عليه فقد كنت أجالسه، وأنا أحب أن أسلم عليه، فقال هكذا بيده هيهات وأدار أصبعه السبابة وقال: وأين قبر ابن جريج؟ رفعت صحيفته في عليين.

ويروى عن بعض الصالحين قال: رأيت بعض جيراني في النوم فقلت له: ما حالك؟ فذكر شيئا، قلت: فما حال عبدالله بن المبارك؟ قال: ذلك مشهور في الجنة.

ورئي حماد بن سلمة في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه وقال لي: طال ما كددت[21] نفسك في الدنيا فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وعن أسلم بن زرعة العباداني قال: كان عندنا بالساحل رجل له فضل بارع، كان يعذب له الماء المالح، قال: قال لي يوما: رأيت البارحة فيما يرى النائم كأن رجلا يقول لي: قد فرغنا من بناء دارك، ولو رأيتها لقرت عيناك، وقد أمرنا أن ننجزها لك والفراغ منها إلى سبعة أيام، واسمها السرور، فابشر بخير، قال: فلما كان في اليوم السابع بكر للوضوء ونزل للنهر وقد هدأ، فزلق فغرق فمات، فأخرجناه فدفناه، قال فأريته بعد ثالثة وهو يكبر وعليه حلل خضر، فقال لي: يا أبا الرضى أنزلني الكريم دار السرور وماذا أعد لي فيها؟ فقلت: صف لي هذا، فقال: هيهات يعجز الواصفون ان تنطق ألسنتهم بما فيها، فياليت عيالي

---

(٢١) كددت نفسك: أتعبتها.

يعلمون أنه قد هيء لهم منازل معي فيها كل ما اشتهت أنفسهم ولذت أعينهم. نعم وإخواني وأنت معهم إن شاء الله. قال: ثم انتبهت.

وقال أبو محمد اللباد الفقيه رحمه الله: رأيت ربيعا العطار في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: في الجنة، فقلت: وكيف حالكم فيها؟ قال: تارة تزخرف لنا الجنان، وتارة تشرف علينا الحور العين، وتارة تصطك لنا الحجب، قال: فقلت له: فمن أعلى منزلة أنت أم فلان؟ - وسمي له رجلا معروفا عندهم - قال: فتبسم وقال: كلنا جمعنا في حديقة واحدة - يعني في جنة واحدة.

ورأى بعض من يوثق به رجلا كان يعرف بالخير والعفاف، بعد موته، وعليه عمامة خز[٢٢]، فأنكرها عليه، وكأنه قال له: أتلبسها ولباس الخز مكروه؟ فقال له: هو عندنا في هذه الدار مباح.

ورئي غيره شابا وكان في الدنيا أشيب، فقيل له: نراك دون شيب؟ فقال: لا يشيب أحد في هذه الدار[٢٣].

وقال بعض الصالحين: كان لي ولد فاستشهد، فرأيته في النوم ليلة مات عمر بن عبدالعزيز، فقلت له: يا بني ألست ميتا؟ قال: لا ولكني حي أرزق، فقلت: فما جاء بك؟ قال: نودي في أهل السماء لا يبقى نبي ولا صديق ولا شهيد إلا ويحضر الصلاة على عمر بن عبدالعزيز، فحضرت ثم جئت لأسلم عليكم وأراكم.

والأخبار في هذا الباب لا تحصى.

* * *

---

(٢٢) الخز: ما عمل من الحرير والصوف.

(٢٣) هذه الفقرة من: ورئي إلى هنا سقطت من «ز» ومن «ل».

الباب الحادي عشر
ذكر منامات رئيت لرجال تدل على ما هم فيه من سوء الحال

روى عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: كنت مؤاخيا لأبي لهب، فلما مات أخبر الله عنه بما أخبر، وحزنت عليه، وأهمني أمره، فسألت الله حولا كاملا أن يرينيه في المنام، قال: فرأيته - يلتهب نارا، فسألته عن حاله، فقال: صرت إلى النار، والعذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الليالي والأيام، قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺ، فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة أمه إياه، ففرحت واعتقت وليدة فرحا به، فأثابني الله بذلك أن يرفع عني العذاب في كل ليلة اثنين.

ويروى أيضا أن أبا لهب كان قد أعتق أمة له يقال لها ثويبة، وكانت ثويبة قد أرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أريَه بعض أهله في منامه بشر خيبة أي بشر حال، فقال له: ماذا لقيت؟ فقال: لم ألق بعدكم خيرا غير أني سقيت في هذه لعتاقتي ثويبة.

ومعنى سقيت في هذه يريد النقرة التي بين الابهام والسبابة ذكر هذه الحكاية البخاري.

أبو لهب كان عم النبي ﷺ وكان كثير الإذاية للرسول بعدما جاءته النبوة، شديد العداوة له.

ويروى عن طارق بن عبدالله المحاربي قال: رأيت بسوق عكاظ رجلا شابا جميل الوجه يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ووراءه رجل أعور قبيح يقول: أيها الناس لا تصدقوه فإنه كذاب، وقد رمى كعبيه[1]

(١) الكعبان: عظيمان ناتئان على جانبي القدم.

وعرقوبيه بالحجارة حتى أدماه، فقلت: من هذا الشاب؟ قالوا هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب يزعم أن الله أرسله، قلت ومن هذا الآخر وراءه؟ قالوا عمه أبو لهب.

وسوء حال أبي لهب أوضح من أن يحتاج فيه إلى شاهد، ولكني أردت إلا أخلي هذا الباب من ذكره أو ذكر مثله.

وليعلم أيضا أن الكافر لا يغني عنه من الله شيء، وأنه ليس له من دون الله ولي ولا نصير، وهذا التخفيف الذي ذكر إن كان فإنما هو في البرزخ، وأما في الآخرة فلا تخفيف ولا تفتير ولا راحة، نعوذ بالله من عذابه.

يروى عن بعض الصالحين من أهل القيروان قال: كان لي جار يذكر أنه ليس بمسلم، فمات، فرأيت في النوم حجرا ململما[٢] يتدحرج حتى وصل إلى باب ذلك الرجل، فدنوت منه فإذا بالحجر قد انفرج، فخرج منه رجل هو ذلك الرجل، فقلت له: ماهذا؟ فقال: هكذا نحن نعذب، وذكر سوء حاله، فقلت: لعل الله أن يغفر لك، قال: وكيف يغفر لي وأنا قد متّ على غير الاسلام؟.

ويروى عن هشام بن حسان قال: ٥٥/ب مات ابن لي شاب فرأيته في النوم وهو أشيب، فقلت له: يابني ما هذا الشيب؟ قال: قدم فلان فزفرت جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب.

ويروى أن رجلا رئي في المنام شاحب اللون متغير الوجه، وقد غُلّتْ يداه إلى عنقه، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

تولى زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعب

ويروى أن دلف بن أبي دلف العجلي رأى أباه في النوم وكأنه في بيت مظلم حيطانه وسقفه مسودة من الدخان، وهو جالس في صدر البيت، فقال له: يا أبت كيف حالك؟ فقال: يابني الأمر صعب، والحساب دقيق، ثم أنشأ يقول:

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي

---

(٢) ململما: على شكل كرة.

ولـكـنـا إلـذا متـنـا بعـثـنـا ونـسأل بعـده عن كل شي[٣]

وفي رؤيـا عمـر بن عبدالعزيز فذكر القيامة والبعث، وجمع الناس لفصل القضاء وكيف نودي الخلفاء واحدا بعد واحد، وحسابهم وكل واحد منهم على منزلته، ثم نادى المنـادي أين عمـر بن عبـدالعـزيـز؟ قال: فتصببت عرقـا، ثم أخذت الملائكـة بيـدي، فأوقفتني بين يدي الله تعـالى، فسألني عن الفتيـل والنقـير[٤] والقطمير، وعن كل قضية قضيتها، حتى ظننت أني لست بناج، ثم إنه تفضل علي برحمـة منـه فغفـر لي وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة، فمررت بجيفة ملقاة، فقلت للملائكة من هذا؟ قالوا كلمه يكلمك، فوكزته برجلي، فرفع رأسه وفتح عينيـه، فإذا برجـل أفطس أثرم شديد الأدمة وحش المنظر، فقال لي: من أنت؟ فقلت: عمـر بن عبـدالعزيز فقال: ما فعل الله بك؟ فقلت: تفضل علي برحمته فغفر لي وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة، قال: فما فعل أصحابك الخلفاء الذين معـك؟ قلت: أمـا الأربعـة فغفـر الله لهم وأمر بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأما الباقون فلا أدري ما فعل الله بهم، قال: وأخذني البكاء، ثم قال: هنأك الله بما صرت إليـه. قلت: من تكـون؟ قال: أنـا الحجاج بن يوسف قدمت على ربي فوجـدتـه شديـد العقاب، قتلني بكل قتيل قتلته قتلة، وها أنذا موقوف بين يديه أنتظر ما ينتظر الموجودون.

والأخبار في هذا الباب كثيرة أيضا.

* * *

(٣) من ويروى أن دلف إلى هنا سقط من ش و ز.

(٤) الفتيل: ما فتلته بين أصابعك من الوسخ، والمراد أصغر الأشياء وأحقرها. النقير: النكته في ظهر النواة. القطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة.

الباب الثاني عشر
٥٥/ب ذكر الأرواح أين يذهب بها
وما جاء في عذاب القبر والسؤال فيه

ذكر أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر[١] ريحان، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويقال أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية مرضيا عنك، إلى روْح الله وكرامته، فإذا خرج روحه وضع على ذلك المسك والريحان، وطويت عليه الحريرة وذهب به إلى عليين.

وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح[٢] فيه جمرة، فتنزع روحه انتزاعا شديدا، ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا خرج روحه وضع على تلك الجمرة، ويطوى عليه المسح ويذهب بها الى سجين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح ٥٦/أ الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى انه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فكلما أتوا سماء قالوا لهم مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدينا، فإذا أصبح واستراح قال لهم: أما أتاكم فإنه قد مات؟ فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية.

---

(١) ضبائر: حُزم.

(٢) مسح: كساء من شَعر.

وأما الكافر فإن ملائكة العذاب تأتيه بمسح من شعر، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وسخطه، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون به إلى باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح! كلما أتوا على أرض قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح الكفار(٣).

ذكره قاسم بن أصبغ وغيره من حديث أبي هريرة أيضا.

وذكر مالك في الموطأ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه. (٤).

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخابني كعب وهو يجر قصبه في النار(٥).

القصب: الأمعاء.

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت، قال: قال أبو سعيد ولم أشهده من رسول الله ﷺ ولكن حدثنيه زيد بن ثابت قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة، ونحن معه، إذحادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه.

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال(٦).

---

(٣) أخرجه النسائي ٤/٨ و ٩ في الجنائز، ورواه أحمد وغيره. وإسناده حسن جامع الأصول ١١/٨٦.

(٤) موطأ مالك ١/٢٤٠ في الجنائز. والنسائي ٤/١٠٨ في الجنائز. وإسناده صحيح. جامع الأصول ١٠/٤٢٢.

(٥) مسلم رقم ٢٨٥٦ في الجنة، والبخاري ٦/٣٩٩ و ٤٠٠ في الأنبياء.

(٦) مسلم ٨/١٦١. مختصر صحيح مسلم رقم ٤٩٣.

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس فسمع صوتا، فقال: يهود تعذب في قبورها(٧).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: إنما تفتن يهود، قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: هل شعرتِ أنه أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور؟ قالت عائشة: فسمعته بعد يستعيذ بالله من عذاب القبر(٨).

٥٦/ب وعن عائشة أيضا قالت: دخلت عليّ عجوزان(٨) من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت له: يارسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: صدقتا، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم، ثم ما رأيته بعد في صلاته إلا يتعوذ بالله من عذاب القبر.

وفي هذا الحديث زيادة كثيرة تجيء بعد إن إشاء الله.

وذكر أبو داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل(٩).

وقد تقدم.

وذكر مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت، قال: نزلت في عذاب القبر، يقال له من ربك؟ فيقول ربي الله ونبيي محمد، فذلك قوله عز وجل: يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.(١٠)

---

(٧) البخاري ٣/١٩٢ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٩ في صفة الجنة، والنسائي ٤/١٠٢ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٧٢.

(٨) مسلم رقم ٥٨٤، والبخاري ٣/١٨٦ و١٨٧ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٦٦.

(٩) أبو داود رقم ٣٢٢١ في الجنائز.

(١٠) رواه البخاري ٣/١٨٤ في الجنائز. ومسلم رقم ٢٨٧١ في الجنة، وأبوداود رقم ٤٧٥٠ في السنة، والترمذي رقم ٣١١٩ في التفسير. جامع الأصول ١١/١٧٧.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: قد أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور قريبا، أو مثل فتنة المسيح الدجال - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيؤتى أحدكم فيقال له: ما عِلْمُك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن - الموقن - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول هو محمد هو رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وأطعنا، ثلاث مرات، فيقال له: نم قد كنا نعلم أنك لمؤمن به، فنم صالحا.

وأما المنافق - أو المرتاب - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلت.[11]

وذكر النسائي عن أنس أن النبي ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولي عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا [من الجنة]، قال رسول الله ﷺ فيراهما جميعا، وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين[12].

ذكره البخاري وقال: ويضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح، وذكر باقي الحديث.

وذكر الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ٥٧ / أ ما كان يقول هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله،

---

(١١) رواه البخاري ٣/١٨٧ في الجنائز، والنسائي ٤/١٠٣ و ١٠٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٧٠.

(١٢) رواه البخاري ٣/١٨٨ و ١٨٩ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٧٠ في الجنة وأبوداود رقم ٣٢٣١ في الجنائز، والنسائي ٤/٩٧ و ٩٨ في الجنائز.

فيقـولان: قد كنـا نعلم أنـك تقـول هذا، ثم يفسـح له في قبره سبعون ذراعا في سبعـين، ثم ينـور له فيـه، ثم يقـال له: نم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون شيئا فقلت مثله لا أدري، فيقـولان: قد كنـا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمي عليـه، فتلتئم عليـه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله عز وجل من مضجعه ذلك.[١٣]

وذكر عبد بن حميد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت يهودية فاستطعمت على بابي، فقـالت: أطعمـوني أعـاذكم الله من فتنـة عذاب القبر ومن فتنـة الـدجال، فلم أزل أحبسها حتى جاء الرسول ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما تقول هذه اليهودية؟ فقال: وما تقول؟ قلت: تقول: أعاذكم الله من فتنة عذاب القبر ومن فتنة الدجال، قالت عائشة: فقام رسول الله ﷺ فرفع يده مدا يستعيـذ بالله من فتنـة الـدجال ومن فتنة عذاب القبر، قالت: ثم قال: أما فتنة الـدجـال فإنـه لم يكن نبي إلا وقـد حذر أمتـه وسأحـذركموه تحذيرا لم يحذره نبي أمتـه، إنـه أعـور وإن الله ليس بأعور، بين عينيه مكتوب . . كافر . . يقرؤه كل مؤمن، وأمـا فتنـة القـبر ففيّ تفتنـون وعني تسألـون، فإذا كان الـرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف، فيقال له: فيم كنت؟ فيقول في الإسلام، فيقـال له: ما هذا الـرجـل الـذي كان فيكم؟ فيقـول محمـد رسـول الله جاءنـا بالبينـات من عنـد الله ربنـا، فآمنـا به وصدقناه قال: فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقـول: ما ينبغي لأحـد أن يرى الله، فيفـرج له فرجـة قِبَـلَ النـار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يفرج له فرجة أخرى قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: له: على اليقـين كنت وعليـه مت وعليـه تبعث إن شاء الله، وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعا مشعوفا[١٤]، فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال

---

(١٣) أخرجه الترمذي رقم ١٠٧١ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٧٦.

(١٤) مشعوفا: مغلوبا على قلبه.

له: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولا فقلت كما قالوا: فيفرج له فرجة قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضا، فيقال له: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يعذب.

وقال عبد بن حميد أيضا عن ابن أبي ذئب: قال محمد بن عمرو: فحدثني سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري ٥٧/ب بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ويعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها عليون.

وإذا كان الرجل السوء قيل: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ويعرج بها إلى السماء، فيقال: من هذا، فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنك لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح، فيقال له، فيرد بما في حديث عائشة سواء، وقد تقدم، ويجلس الرجل السوء، فيقال له، فيرد بما في حديث عائشة سواء.

قال عبد وأخبرني عمرو بن عون، أخبرنا أبو عوانة عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو عن زادان أبي عمر عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير[١٥]، قال: فجعل النبي ﷺ يرفع

---

(١٥) كناية عن السكوت التام.

بصرّه إلى السماء، وينكت[16] في الأرض ويحدث نفسه، ثم قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، ثلاثا، ثم قال: إن الرجل إذا كان في قبل[17] من الآخرة وانقطاع من الدنيا، أتاه ملك الموت، فجلس عند رأسه، فإن كان مسلما قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج نفسه تسيل كما تسيل قطرة السقاء، وتنزل الملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط[18] من حنوط الجنة، فيجلسون منه مد البصر، فإذا أخذها قاموا إليه فلم يتركوها في يده طرفة عين، فذلك قوله عز وجل.. ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾، قال: فتخرج منه مثل أطيب ريح وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون به فلا يمرون على جند من الملائكة فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة، فيقولون هذا فلان بأحسن أسمائه، قال, فتفتح له أبواب السماء، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة، قال: فيقال: اكتبوا كتابه في عليين، ﴿وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون[19]﴾ وأرجعوه إلى الأرض فإني وعدتهم منها خلقناهم وفيها نعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرجع روحه إلى جسده، قال: ويبعث اليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه وينتهرانه ٥٨/أ ويقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: رسول الله، فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت به، فذلك قوله عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدينا وفي الآخرة[20]﴾ وينادي مناد من السماء: أن قد صدق فألبسوه من الجنة، وافرشوا له من الجنة، وأروه منزله من الجنة، قال: فيلبس من الجنة، ويفرش له من

---

(١٦) نكت الأرض بعود: ضربها حتى أثر فيها.

(١٧) قبل: إقبال وقدوم.

(١٨) الحنوط: ما يوضع على الميت لتطبيب رائحته أو منع فساده.

(١٩) الآيات ١٩ - ٢١ المطففين.

(٢٠) آية ٢٧ سورة إبراهيم.

الجنة، ويرى منزله من الجنة، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، قال: فيقول له أبشر بما أعد الله لك من الكرامة، هذا يومك الذي كنت توعد، قال: فيقول له: من أنت رحمك الله؟ فوالله لوجهك الوجه الذي جاءنا بالخير، قال: فيقول: أنا عملك الصالح، والله ما علمت أن كنت حريصا على طاعة الله، بطيئا عن معصية الله، فجزاك الله عني خيرا، قال: فيقول: رب أقم الساعة لكي أرجع إلى أهلي ومالي.

وقال الأعمش ـ وهو سليمان بن مهران ـ وحدثني أبو صالح قال: حدثني بعض أصحاب النبي ﷺ أنه قال يقال له: نم، فينام ألذ نومة نامها نائم قط حتى، توقظه الساعة.

ثم رجع إلى حديث البراء بن عازب، قال: وإن كان فاجرا إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى غضب وسخط من الله، قال: فيتفرق روحه في جسده، قال: فيستخرجها يقطع معها العروق، كما يستخرج الصوف المبلول بالسفّود، قال: وينزل ملائكة من السماء سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، فإذا وقعت في يد ملك الموت قامت إليه الملائكة فلم يتركوها في يده طرفة عين، قال: ويخرج منه مثل أنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون به فلا يمرون على جند من الملائكة فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسمائه، قال: فإذا انتهي به إلى السماء الدنيا أغلقت دونه ولم يفتح له، وينادي مناد أن اكتبوا كتابه في سجين وأرجعوه إلى الأرض فإني وعدتهم أن منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرمى به من السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[21].

(٢١) آية ٣١ الحج.

قال: فيعـاد روحـه في جسـده ويأتيـه ملكان شديدا الانتهار. فيجلسانه وينتهرانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: ما هذا النبي الـذي بعث فيكم؟ فيقـول: لا أدري سمعت النـاس يقولون ذلك، لا أدري، قال: فيقـولان له: لا دريت، قال: فذلـك قولـه تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[22] قال: وينادي مناد من السماء ان قد كذب فالبسوه من النار ٥٨/ب وافرشوا له من النار، وأروه منزله من النار، قال: فيكسى من النار ويفـرش له من النـار ويـرى منهـا منـزلـه، قال: ويضيق عليـه قبره حتى تختلف أضـلاعـه، قال: ويمثـل له رجـل قبيـح الوجه قبيح المنظر، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، أبشر بغضب من الله وسخط، هذا يومك الـذي كنت توعـد، هذا يومـك الذي كنت تكذب به، قال: فيقول له: ويلك فمن أنت؟ فوالله لوجهك وجهٌ جاء بالشر، قال: فيقول: أنا عملك الخبيث، والله ما علمت أن كنت لبطيئا عن طاعة الله حريصا على معصية الله، فجزاك الله عني شر الجزاء، فيقول: يارب لا تقم الساعة مما يرى مما أعد الله له.[23]

وذكـر أبـو بكـر البـزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس إن هذه الأمة تسأل في قبـورهـا، فإذا الانسـان دفن وتفـرق عنـه أصحـابـه، جاءه ملك بيده مطراق، فأقعـده فقـال: ما تقـول في هذا الرجل؟ يعني محمداً ﷺ، فإن كان مؤمنا قال: أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، قال: فيقول: صدقت، ويفتح له باب إلى النـار، فيقـول: هذا كان منـزلـك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت به فهـذا منـزلـك، فيفتـح له باب إلى الجنـة، فيريـد أن ينهض إليـه، فيقول له: اسكن، ويفسح له في قبره.

وإن كان كافـرا أو منـافقـا يقـول له ما تقـول في هذا الـرجل، فيقول: لا أدري

---

(٢٢) آية ٢٧ سورة إبراهيم.

(٢٣) رواه أبـو داود رقـم ٣٢١٢ في الجنـائـز، ورقم ٤٧٥٣ و٤٧٥٤ في السنـة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، وإسناده حسن. جامع الأصول ١١/١٧٧.

سمعت الناس يقولون شيئا، فقلت، فيقول له الملك: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله قد أبدلك به هذا ويفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه قمعة بالمطراق، يسمعها خلق الله كلهم إلا الثقلين[٢٤]، فقال رجل من القوم: يارسول الله ما من أحد يقوم عليه ملك في يده مطرقة إلا تهبل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة، ولو أن تنينا منها نفخ في الأرض لما أنبتت خضرا.

وذكر البخاري عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنتر من بوله[٢٥]، قال: فدعا بعسيب رطب، فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا.

وذكر النسائي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه[٢٦]. وهذا الذي ٥٩/أ تحرك له العرش هو سعد بن معاذ الأنصاري رمي بسهم في غزوة الخندق ثم مات منه بعد ذلك، ويعني بالضم ضمة القبر.

ومن حديث شعبة بن الحجاج بإسناده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله

---

(٢٤) الثقلين: الانس والجن.

(٢٥) في رواية: لا يستبرىء من بوله. والعسيب: جريدة نخل، والحديث ليس حجة لأولئك الذين يغرزون على القبر أغصانا خضراء، لأن ما فعله عليه السلام خصوصية له. والحديث رواه الخمسة إلا ابن ماجه. انظر جامع الأصول ١١/١٦٧.

(٢٦) النسائي ٤/١٠١ في الجنائز، وإسناده صحيح. جامع الأصول ١١/١٧٢.

عنها قالت: قال رسول الله ﷺ إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ.

وذكر مسلم من حديث عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة(٢٧).

ويروى: عرض على مقعده.

وهذا ضرب من العذاب كبير، وعندنا المثال في الدنيا بمن يعرض عليه السيف للقتل أو غيره من آلات العذاب، أو بما يهدد به من غير أن يرى الآلة، ونعوذ بالله من عذابه وعقابه، بكرمه ورحمته.

وقد صحت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر على الجملة، ولا مطعن فيها ولا معارض لها، وإنما اختلف الناس هل تعذب الروح في القبر قبل أن ترد إلى الجسد، أو تعذب فيه بعدما ترد إليه، لأن الرواية في رد الروح إلى الجسد في القبر لم تصح صحة عذاب القبر من غير ذكر رد الروح. وحديث رد الروح إلى الجسد في القبر ذكره أبو داود أيضا، وكيفما كان فالعذاب محسوس، والألم موجود، والأمر شديد.

وقد ضرب بعض العلماء لتعذيب الروح مثلا بالنائم فإن روحه تتنعم أو تتعذب، والجسد لا يحس بشيء من ذلك، فتفكر أيها الانسان في نفسك، وتخيل حالك عند حلول رمسك، وهل يكون أول سعدك، أو يكون أول نحسك.

وقد جاء في الخبر أن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه(٢٨).

---

(٢٧) أخرجه الجماعة إلا أبا داود. البخاري ٣/١٩٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ في الجنة، ومالك في الموطأ ١/٢٣٩ في الجنائز، والترمذي رقم ١٠٧٢ في الجنائز، والنسائي ٤/١٠٧ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٦٨.

(٢٨) أخرجه الترمذي: رقم ٢٣٠٩ في الزهد. وإسناده حسن. جامع الأصول ١١/١٦٥.

وفي الخبر أيضا أن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار[٢٩]. وقد تقدم الحديثان.

وأنت أعلم بحالك، وبما قدمت من أعمالك، فتخيل بين عينيك وثوب منكر ونكير عليك، وفي اسميهما ما يدل على وصفيهما وقولهما وفعلهما، وقد بدا لك بعض ما يعذبان به ذلك الممتحن، وما يسومان به ذلك البائس المرتهن.

واعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين، ولا موقوفا على المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه بخطيئته وزلله، وإن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر والمنافق، ومن أين لك بالأمان من تلك الصفة المذمومة والأعمال المشئومة، وإنما الأعمال بالخواتيم، وما ختم لك به فهو الواجب عليك واللازم، والطوق في عنقك المقيم الدائم، وعذاب المؤمن لا يكون كعذاب الكافر والحمد لله.

قد يكون عذاب المؤمن في ضمة القبر أو ضيقه أو صعوبة منظره أو بما يصيبه من الروعات عند مشاهدة تلك الزلات، وبالحسرات على ما سلف له من الجهالات، ٥٩/ب وبالندامات على ما مضى من الساعات، أو بما شاء الله تعالى، فيكون من ذلك ما شاء الله أن يكون، ويدوم ذلك ما شاء الله أن يدوم، فإن أمنت ذلك العذاب الأكبر، فما الذي أمنك من هذا الذي هو بالإضافة إليه عذاب أصغر، فتفكر ما دام ينفعك التفكر، وتخيل ما دمت ترجو ثمرة هذا التخيل إذا طرحت في حفرة من الأرض قصيرة الطول، ضيقة العرض، فاشتدت بها وحشتك، واستبانت غربتك، وانضمت عليك ضمة كسرت أنفك وشدخت رأسك، ورضت عظامك، وسدت وراءك وأمامك وتحتك وفوقك، وملأت ظلمة أرضك وأفقك، فيالك من قلب قد نكس، وبدن قد هرس، ونَفَس قد قصر وحبس، فأردت أن تفر فلم تترك، وأردت أن تستغيث فلم تملك، ولا تدري ما يدوم، ولا متى تدرك أن تقعد أو تقوم.

---

(٢٩) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة. جامع الأصول ١١/ ١٧٠.

أتـراك كنت مفتـديـا من هذا المقام بما كنت جمعت من حطام بل بما جمعه جميـع الأنـام من حلال وحـرام ، بل بما لا يحصـر من أضعـاف ذلـك ولا يحد ولا يجمع ولا يعد .

ولعلك يا هذا قد كنت في الـدنيـا لا ترضى بمنزلك المتسع ، ولا بشملك المجتمع ، ولا تقنع برزق ربك المتدفق عليك المندفع ، فانظر رحمك الله لنفسك فادفع عنك جوانب هذه الحفرة ، ونفِّسْ عنك من هذه الضمة ، وآنس من هذه الـوحشـة ، واعمـل ما وجـدت سبيلا للعمل ، وما دمت في فسحة ومهل ، ومَهِّد المضجـع ، ووطيء لذلـك المصرع ، وارغب وتوسل واضرع وتذلل ، فلعل الاله المعبـود الـذي عم جوده الـوجـود ، وكرمه لا محصور ولا معدود ، وفيض نعمه لا مقطـوع ولا محدود سيرسـل منه قطرة تغمر العرش والذرة فيصيبك منه بنصيب ، ويبلك منـه بذنـوب[٣٠] ، ويعمـك منـه بشؤبوب[٣١] وقـد انقطـع الرجاء إلا منه ، وسدت الأبواب إلا عنه جل وعلا وتبارك وتعالى .

حدثني الفقيـه أبـو الحكم بن برجـان ، وكان من أهل العلم والعمل رحمه الله أنهم دفنـوا ميتـا بقـريتهم من شرق إشبيلية ، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحـدثـون ودابـة ترعى قريبـا منهم ، وإذا بالـدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر، فجعلت أذنهـا عليـه كأنهـا تسمـع ، ثم ولت فارة ، ثم عادت إلى القبر فجعلت أذنيها عليه كأنها تسمع ، ثم ولت كذلك ثم أعادت ذلك مرة بعد أخرى ، قال أبـو الحكم رحمـه الله : فذكـرت عذاب القبر وقول النبي ﷺ إنهم ليعذبون عذابا تسمعـه البهـائم ، والله عز وجـل أعلم بما كان من أمـر ذلـك الميت ، ذكـر هذه الحكاية لما قرأ القاريء هذا الحديث في عذاب القبر، ونحن إذ ذاك نسمع عليه كَتاب مسلم بن الحجاج رضي الله عنه .

وروي أن بعض النباشين نبش ذات ليلة قبرا ، فلما كشف عن الميت إذا بنار تحرق الميت ، فأهوت إليه منها شرارة ، فهرب وتاب إلى الله عز وجل .

---

(٣٠) ذنوب : بفتح الذال : دلو.
(٣١) شؤبوب : دفعة من المطر.

وروى عن أبي بكر بن أبي الدنيا عن بعض أصحابه أنه قال لنباش بعد توبته: ما سبب توبتك ورجوعك إلى الله؟ قال: نبشت إنسانا فوجدته قد سمر بمسامير في جميع جسده، ومسمار كبير في رأسه، وآخر في رجليه.

وقيل لآخر: ما سبب توبتك؟ قال: رأيت جمجمة إنسان قد صب فيها الرصاص، وقد روي في ٦٠/أ الحديث: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون - أو يسرونه عنه - صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، ذكره البخاري[٣٢]. ولعل هذا كان ممن يفعل ذلك، والله أعلم بما كان عليه.

* * *

(٣٢) البخاري ١٢/٣٧٤ و٣٧٥ في التعبير، وأبو داود رقم ٥٠٢٤ في الأدب والآنك: الرصاص المذاب. جامع الأصول ١١/٧١٩.

الباب الثالث عشر
ذكر يوم القيامة وأهواله

يضحــك المــرء والبكــاء أمــامــه ويــروم(1) البـقــاء والمــوت رامــه
ويــمــشـي الحـديـث في كل لغـو ويخـلي حديـث يوم الـقـيـامـة
ولأمــر بكــاه كل لبـيــب ونــفـي في الظـلام عنـه منـامـه
صاح حدث حديـثــه واخـتـصـره فمــحــال بأن تطـيــق تمامــه
عجــز الــواصفــون عنــه وقــالـوا لم نجـيء من بحــاره بكظــامــه(2)
فلتــحــدثــه جملة وشـتــاتــا(3) ودع الآن شرحــه ونظــامــه

واعلم رحمــك الله أن هذا اليــوم ليس عظمــه مما يوصف، ولا هولـه مما يكيف، ولا يجري على مقـدار مما يعلم في الـدنيـا ويعـرف، بل لا يعلم مقـدار عظمه ولا هوله إلا الله تعالى، وما ظنك بيوم عبر الله تبارك وتعالى عن بعض ما يكون فيه بشيء عظيم، قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد(4)﴾.
ومــاذا عسى أن يقـول القـائـل فيـه، ومـاذا عسى أن يصفه الواصف به، الأمر أعظم، والخطب أكبر، والهول أشنع، كما قال القائل:

ومــا عســى أن أقــول أو أقــوم به الأمــر أعظــم مما قيــل أو وصــفــا

---

(1) يروم: يريد، يطلب.
(2) كظامة: قناة للماء في باطن الأرض.
(3) شتاتا: متفرقا.
(4) الآيات 1، 2 من سورة الحج.

والأمـر مهـما [قـد] نظـرت له ألـفـيتـه[٥] الأعظـم الألـفّـا[٦]

يوم القيـامـة، ومـا أدراك ما يوم القيامة، ثم ما أدراك ما يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، يوم يجد كل عامل عمله أمامه، يوم الدمدمة[٧]، يوم الزلزلة، يوم الصـاعقـة، يوم الـواقعـة، يوم الـراجفـة، يوم الـرادفـة، يوم الغاشية، يوم الداهية، يوم الآزفة[٨]، يوم الحاقة، يوم الطامة، يوم الصاخة،[٩] يوم التلاق، يوم الفـراق، يوم المسـاق، يوم الإشفـاق، يوم القصـاص، يوم لات حين[١٠] منـاص، يوم التنـاد، يوم الإشهاد، يوم الميعاد، يوم المرصاد، يوم المساءلة، يوم الحساب، يوم المناقشة، يوم المآب[١١]، يوم العذاب يوم القرار إما في الجنة وإما في النـار، يوم القضـاء، يوم الجـزاء، يوم البكـاء، يوم البـلاء، يوم تمور السـماء مورا، وتسير الجبال سيرا، يوم الحشر، يوم النشر، يوم الجمع، يوم البعث، يوم العرض، يوم الوزر[١٢]، يوم الحق، يوم الحكم، يوم الفصل، يوم الجزاء، يوم عظيم، يوم عقيم، يوم عسير، يوم قمطرير،[١٣]، يوم النشور، يوم المصير، يوم الـدين، يوم اليقـين، يوم النفخـة، يوم الصيحة، يوم الرجفة، يوم الرجة، يوم الزجرة، يوم السكرة، يوم الفزع، يوم الجزع، يوم القلق، يوم الفرق[١٤]، يوم العـرق، يوم الميقـات، يوم يخرج الأمـوات وتظهر المخبآت، يوم الانشقاق، يوم الانكـدار، يوم الانتشـار، يوم الانفطـار، يوم الافتقـار، يوم الـوقـوف، يوم الخروج، يوم الانصداع، يوم الانقطاع، يوم معلوم، يوم موعود، يوم مشهود،

---

(٥) هذا الشطر غير موزون ويستقيم الوزن إذا وضعنا كلمة مثل الفادح بعد ألفيتة.
(٦) الألفّ: الشديد، المختلط.
(٧) الدمدمة: الهلاك.
(٨) الآزفة: القريبة.
(٩) الصاخة: القريبة.
(١٠) لآت حينَ مناص: ليس حين مهرب.
(١١) المآب: المرجع.
(١٢) الوزر: الحمل والمراد الذنب.
(١٣) قمطرير: الشديد من الأيام أو من الشر.
(١٤) الفرق: الخوف.

يوم تبلى السرائر، يوم تخرج الضمائر، يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا، ٦٠/ب، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، يوم يدعى فيه إلى النار، يوم يسجن فيه في النار، يوم تقلب الوجوه فيه في النار، يوم البروز إلى الله، يوم الصدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة، يوم لا يرتجى إلا من الله المغفرة، وأهول أسمائه، وأشنع ألقابه يوم الخلود، وما أدراك ما يوم الخلود؟ يوم لا انقطاع لعذابه، ولا آخر لعقابه، ولا يكشف فيه عن كافر ما به، ونعوذ بالله ثم نعوذ بالله من بلائه وسوء قضائه بكرمه ورحمته.

واعلم أن العرب قد تسمى الشيء بأسماء كثيرة، وتجعل له ألقابا عديدة، تعظيما لشأنه وإكثارا لأمره، وقد سمي الله تعالى يوم القيامة بأسماء كثيره، ولعله من هذا، وهو تبارك وتعالى أعلم.

* * *

الباب الرابع عشر
ذكر النفخ في الصور
النفخة الأولى والثانية

قد تقدم الكلام في ذكر الموت وغصته وكربه وشدته، وعذاب القبر وفتنته وضيقه وظلمته، ومنكر ونكير ورؤيتهما وسماع كلامهما على فظاظتهما وغلظتهما وبشاعة منظرهما، وتكلف جوابهما، والتوقي من مقامعهما بالإقرار بالربوبية، والشهادة بالرسالة لمن ثبته الله تعالى بالقول الثابت، وأمده بنور الإيمان وألهمه حجته، وإن في ذكر هذا لتنبيها من الغفلة، وتنشيطا من الكسل، وحلا من عقال البطالة وصرفا عن اللذات وردعا عن نيل الشهوات، بل فيه ما يذهل النفوس، ويميت القلوب أن تنال من الدنيا حظها الذي يكون به حياتها ويكون به قوامها، ويقيم به رمقها، فكيف أن ينال منها غير ذلك، فكيف بما وراء هذا من جمع العباد ليوم التناد، ويوم يقوم الاشهاد، وحشر الأمم لذلك اليوم الأعظم.

واعلم أن الانسان لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من إحدى الدارين، وصحبه من أحد الفريقين، وأنه لا تزال نفسه معذبة أو منعمة إلى يوم الجزاء والاجتماع لفصل القضاء، وبعد ذلك يتجدد النعيم أو العذاب على وجه آخر وصفة أخرى مما سيأتي مما أمكن ذكره منه بعد هذا إن شاء الله عز وجل.

واعلم أن الله تبارك وتعالى خلق للجنة أهلا، وخلق للنار خلقاً، وهم مع الساعات راحلون، ومع الأنفاس ظاعنون[1] إلى دار البلى ومعسكر الموتى،

---

(١) ظاعنون: راحلون.

ومستقـر الأرواح، وكـل مطلع على مكانه الذي يصير إليه، ومشرف على منزله الـذي ينـزل به، وبـذلـك يكـون نعيمهم وعذابهم، وبغير ذلك مما شاء الله عز وجل، فلا يزالون هكذا يرحلون وينتقلون ويظعنون إلى أن يفرغ العدد السعيد والفريق المنعم، ويبقى من العدد الشقي والفريق المقصى بقية، وخروجهم من الـدنيـا في دفعـة واحدة لا يحصيها إلا الله تعالى خالقها، لكنهم قليل بالإضافة إلى ما رحل منهم يكون ارتحال البقية إلى الدار الآخرة بمرة واحدة، وخروجهم من الـدنيـا في دفعـة واحدة، وهـم الذين تبعثهم الصيحة وتقوم عليهم الساعة، قال الله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾[٢]

يروى عن الشعبي قال: لقي جبريـل عيسى عليـه السـلام، فقـال له عيسى: متى الساعة؟ فنفض جبريل أجنحته وقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ثقلت في السموات والأرض ٦١/أ لا تأتيكم إلا بغتة.

وأمـا تقـريب وقتهـا فكـل آت قريب، قال تعـالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمـح البصـر أو هو أقـرب إن الله على كل شيء قديـر﴾[٣] وقـال عز وجـل: ﴿اقـترب للنـاس حسـابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لا هية قلوبهم﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿اقتربت السـاعـة وانشق القمـر * وإن يروا آيـةً يعـرضـوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعـوا أهـواءهم وكـل أمـر مستقـر * ولقـد جاءهـم من الأنبـاء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر.﴾[٥].

وقال الله عز وجل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[٦]

---

(٢) آية ١٨٧ الأعراف.
(٣) آية ٧٧ النحل.
(٤) الآيات من ١ ـ ٣ من سورة الأنبياء.
(٥) آية ١ ـ ٥ القمر.
(٦) آية ١ النحل.

ويروى أن النبي ﷺ لما نزل عليه: ﴿أتى أمر الله﴾ وثب قائما، فلما نزل قوله ﴿فلا تستعجلوه﴾ جلس. قال بعض العلماء إنما وثب ﷺ خوفا منه أن تكون الساعة قد قامت، وقال ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ذكره مسلم بن الحجاج في كتابه(٧)

وذكر أيضا عن النواس بن سمعان الكلابي عن النبي ﷺ وذكر خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال، ثم خروج يأجوج ومأجوج عليه، ثم هلاكهم، ثم ذكر ما يكون من بعد ذلك من البركات والخيرات، قال: فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج(٨) الحمر، فعليهم تقوم الساعة(٩).

واعلم أن كل ميت مات فقد قامت قيامته، لكنها قيامة صغرى، وقيامة كبرى، فالقيامة الصغرى هي ما يقوم على كل إنسان في خاصته من خروج روحه وفراق أهله وانقطاع سعيه وحصوله على عمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والقيامة الكبرى هى التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة، والدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته قول النبي ﷺ لقوم من الأعراب وقد سألوه، متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم ذكره مسلم بن الحجاج في كتابه(١٠)

والقيامة التي تعم الأرض إنما تأتيهم بغتة، وتأخذهم على غفلة لما تقدم، ولكنها تقوم في يوم الجمعة في غير شهر معروف ولا سنة معروفة.

والملك الذي وكل بهذه النفخة، وجعل على يديه هذه الصعقة قد استعد لها، وتهيأ لإمضائها.

---

(٧) مسلم رقم **٢٩٥١** في الفتن.

(٨) هذا الحديث طويل يقع في نحو ثلاث صفحات أخرجه مسلم رقم **٢٩٣٧** في الفتن وأبو داود رقم **٤٣٢١** و**٤٣٢٢** في الملاحم، والترمذي رقم **٢٢٤١** في الفتن.

(٩) ومعنى تهارج الحمر: اقتتالها ووثوب بعضها على بعض، والحمر: الحمير.

(١٠) مسلم رقم **٢٩٥٢** في الفتن، والبخاري **٣١٢/١١** و**٣١٣** في الرقاق جامع الأصول **٣٨٩/١٠**.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده بإسناده إلى عبدالله بن مسعود قال: لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا الساعة متى هي، فبدأوا بإبراهيم عليه السلام، فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، فسألوا موسى عليه السلام، فلم يكن عنده منها علم، فردوا الحديث إلى عيسى عليه السلام، فقال: عَهِدَ الله تعالى إليّ فيما دون وجبتها، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله.

ويعني بوجبتها: وقعتها.

قال: فذكر من خروج الدجال، فأهبط فأقتله، فيرجع الناس إلى بلادهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، لا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون[11] إليّ فأدعو الله فيميتهم [فيملأ الأرض ريحهم] فيجأرون إليّ فأدعو الله فيرسل من السماء ماء فيحمل أجسامهم ٦١/ب فيلقيهم في البحر، ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم، فعهد الله إليّ أنه إذا كان ذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم التي لايدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها، ليلا أو نهارا.

قال النواس: فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل وقرأ: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق﴾[12].

وذكر أبو داود من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا الجن والإنس، وفيها ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه[13].

---

(١١) يجاورون: يرفعون أصواتهم بالدعاء، يتضرعون.

(١٢) آية ٩٦ ـ ٩٧ الأنبياء.

(١٣) رواه أبو داود ١٠٤٦ في الصلاة، والنسائي ٣/١١٤ و١١٥ في الجمعة، والترمذي رقم ٤٩١ في الصلاة. ومالك في الموطأ ١/١٠٨ ـ ١١٠ في الجمعة جامع الأصول ٩/٢٧١.

وذكـــر النســائي عن أبي هريـرة قال : قال رسـول الله ﷺ كيف أنعم وصـاحب الصـور قد التقم القـرن وحنى جبهتـه وأصغى سمعـه ، ينتظـر أن يؤمـر بالنفخ فينفـخ؟ قالـوا : يارسـول الله وكيف نقول؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا[١٤].

وذكـر الـترمـذي عن أبي سعيـد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ما زال صاحب الصـور مذ وكـل به مستعـدا ينظـر نحو العرش ، أن يؤمر فينفخ قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان.

ومن مسنـد البـزار عن أبي سعيـد الخـدري قال : ذكـر رسـول الله ﷺ صاحب الصور، فقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل[١٥].

وذكر الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصور؟ قال : قرن ينفخ فيه[١٦].

وذكـر أبـو بشـر الـدولابي من حديث عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿نفخ في الصور﴾ فقال : الصور كهيئة القرن.

وقال بعض العلماء : الصور أيضا جمع صورة.

وذكـر البخـاري عن أبي هريـرة أن النبي ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تقتتـل فئتـان عظيمتـان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجـالـون كذابـون قريب من ثلاثـين ، كل يزعم أنـه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثـر الـزلازل ، ويتقـارب الـزمـان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتـل ، وحتى يكثـر فيكم المـال فيفيض حتى يهم رب المـال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرض عليه : لا أرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيـان ، وحتى يمـر الـرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتني مكانه ، وحتى تطلع

---

(١٤) أخـرجـه الـترمذي عن أبي سعيد الخدري رقم ٢٤٣٣ في القيامة. هكذا في جامع الأصول ١٠/ ٤٢٠ وليس فيه النسائي ولا أبو هريرة.

(١٥) رواه أبو داود رقم ٣٩٩٩ في الحروف والقراءات ، وأحمد في المسند ٣/ ١٠ وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/ ٤٢٣.

(١٦) الترمذي رقم ٢٤٣٢ في صفة القيامة ، وأبو داود رقم ٤٧٤٢ في السنة.

الشمس من مغربها، فإذا طلعت وراها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، ولتقومن ٦٢/أ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.(١٧).

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي، - يريد عوافي السباع والطير - ثم يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما، فيجدانها ملئت وحوشا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما.(١٨)

وسمعت في تفسيره أن هذين الراعيين إنما يخران على وجوههما من صيحة يوم القيامة، فعند هذه الصيحة تخمد الأصوات وتسكن الحركات وتخلى من أهلها الأرضون والسماوات إلى يوم الخروج والميقات، والجزاء بالحسنات والسيئات، إلا أن الله تعالى ذكر عند هذه الصيحة استثناء سيأتي ما قيل فيه بعد إن شاء الله.

ثم ينزل الله مطراً فتنبت منه الأجسام، ويحيا به الرفات من العظام ويستعد لقبول الأرواح عند النفخة الثانية، قال الله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾.

وذكر مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوما، أو أربعين شهرا، أو أربعين عاما - الشك من الراوي - قال: فيبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى

---

(١٧) البخاري ١٣/٧٢ - ٧٨ في الفتن جامع الأصول ١٠/٤٠٥.
(١٨) مسلم رقم ١٣٨٩ في الحج، والبخاري ٤/٧٧ في فضائل المدينة، ومالك في الموطأ ٢/٨٨٨ في باب ما جاء في سكنى المدينة. جامع الأصول ٩/٣٣٢.

لو أن أحـدكم دخـل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه. قال: سمعتها من رسـول الله ﷺ. قال: فيبقى شرار النـاس في خفـة الطـير وأحـلام السبـاع، لا يعـرفـون معـروفـا، ولا ينكـرون منكـرا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول لهم: أما تستجيبـون؟ فيقـولـون: فما تأمـرنـا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفـخ في الصـور، فلا يسمعـه أحد إلا أصغى ليتا ورفـع ليتـا[١٩]، قال: وأول من يسمعــه رجــل يلوط[٢٠] حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق[٢١] الناس، ثم يرسل ـ أو قال ينزل ـ الله مطرا كأنه الطل[٢٢] ـ أو الظـل ـ الشـك من الـراوي، فتنبت منـه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى ﴿فـإذا هم قيـام ينظـرون﴾[٢٣] ثم يقـال: أيهـا النـاس هلمـوا إلى ربكم: ﴿وقفـوهـم إنهم مسئـولون[٢٤]﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقـال, من كل ألف تسعـمائـة وتسعـة وتسعين، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيبا، وذلك ﴿يوم يكشف عن ساق[٢٥]﴾.

ويروى أن هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد أنه كمني الرجال، وقد أخبر الله أن إنشاء الأجسام مثل إخراج النبات من الأرض، قال الله سبحانه: ﴿والله الـذي أرسـل الـريـاح فتثـير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتهـــا، كذلــك النشـور[٢٦]﴾ أي كما ينبت نبـات الأرض بالمـاء كذلـك تنبت الأجساد بهذا الماء.

فبينما روحك في البرزخ مع الأرواح، وكل على عمله من فساد أو صلاح، إذ أمر الله عز وجـل بها أن تجمـع، فتقبـل أرواح المؤمنين تتلألأ نورا، وأرواح الكافرين

---

(١٩) الليت: صفة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(٢٠) يلوط الحوض: يصلحه حتى لا يجف.

(٢١) يصعق: يغشى عليه ويموت.

(٢٢) الطل: الندى الذي ينزل من السماء في الصحو.

(٢٣) آية ٦٨ الزمر.

(٢٤) آية ٢٤ الصافات.

(٢٥) انتهى الحديث هنا وقد رواه مسلم عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود رقم ٢٩٤٠ في الفتن. جامع الأصول ١٠/٤١٧.

(٢٦) آية ٩ فاطر.

تسود ظلمة، فيقبضها جميعا فيجعلها في الصور، ثم ينفخ اسرافيل فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد فتدخل الخياشيم، حتى تمشي مشي السم في اللديغ.

وذكر مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: مابين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة أربعون عاما؟ قال: أبيت؟ قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت[٢٧]، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس شيء من الانسان إلا ويبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب[٢٧]، ومنه يركب الخلق يوم القيامة[٢٧].

وذكر أبو بكر بن أبي داود في كتاب البعث بإسناده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: يأكل التراب كل شيء من الانسان إلا عجب الذنب، قيل: وما هو يارسول الله؟ قال: مثل حبة خردل منه تنشأون. [٢٧]

وذكر أبو بكر بن أبي خيثمة بإسناده إلى لقيط بن عامر عن النبي ﷺ في حديث طويل قال فيه: ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تبعث الصيحة فلعمرو إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء بهضب[٢٨] من عند العرش، فلعمرو إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يخلقه من قبل رأسه.

وذكر الحديث، وسيأتي بكماله إن شاء الله تعالى.

قوله: فأصبح ربك يطوف[٢٩] في الأرض وقد خلت عليه البلاد: إنما هو تفهيم وتقريب إلى أن جميع من في الأرض يموت، وأن الأرض تبقى خالية،

---

(٢٧) مسلم رقم ٢٩٥٥ في الفتن، والبخاري ٨/٤٢٤ في تفسير سورة الزمر وقوله أبيت: أي امتنعت عن الاجابة، لأنه لا يعرف. وعجب الذنب: أصله عند رأس العصعص.

(٢٨) هضب: مطر شديد.

(٢٩) يطوف: ليس كطواف البشر ولكنه طواف يليق بجلاله.

ليس يبقى إلا الله وحـده، كما قال تعـالى: ﴿كـل من عليهـا فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾(٣٠).
وقوله: والملائكة الذين مع ربك، فإنه قد جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ هو جبريـل وميكـائيـل وإسرافيل وملك الموت، ثم يؤمر ملك الموت أن يقبض روح جبريـل ثم روح ميكـائيـل ثم روح إسـرافيـل، ثم يؤمر ملك الموت أن يموت، فيمـوت، ولا يبقى إلا الـذي له البقـاء والعـزة والكبرياء والملك الذي ٦٣/أ لا يزول ولا يفنى تبـارك وتعـالى، فينـادي جل جلاله: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه مجيب، ومن ذا يجيبـه ولم يبق موجـود إلا الـواحـد المعبود، فيجيب نفسه، فيقول سبحانه: لله الواحد القهار، ثم يمكث الناس في البرزخ أربعين عاما، ثم يحيى الله عز وجـل إسـرافيـل، فيأمـره أن ينفخ النفخة الثانية، فذلك قوله عز وجل: ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾(٣١) قيام على أرجلهم ينظرون إلى ذلك الأمر العظيم والهول الجسيم.

واعلم رحمـك الله أنـك إن كنت ممن لا يشـاهـد هذه الصعقة العامة التي هي قيـام السـاعـة، فلا بد لك من أن تشاهد صعقة نفسك التي تخصك، وهي صعقـة موتـك وخـروج روحـك، ولا بد من إنشائك وتسويتك ورد روحك إلى جســدك، وإخـراجـك من الأرض التي خلقت منهـا، كما قال تعـالى: ﴿منهـا خلقنـاكم وفيهـا نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾(٣٢). وقال عز من قال: ﴿أولم ير الانســان أنـا خلقنـاه من نطفـة فإذا هو خصيم مبـين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾(٣٣)
قال سبحانه: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في

(٣٠) الأيتان ٢٦ و٢٧ من سورةت الرحمن.
(٣١) آية ٦٨ من سورة الزمر.
(٣٢) آية ٥٥ طه.
(٣٣) آية ٧٧ ـ ٧٩ يس

السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .[٣٤]

وقوله عز وجل : وهو أهون عليه : أي هو هين عليه ، لأنه ليس عند الله شيء أهون من شيء ، بل كل عليه هين .

وقال تبارك وتعالى : ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾[٣٥] .

وقال سبحانه : ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ .

وذكر النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله تبارك وتعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقوله أني لا أعيده كما بدأته ، وليس آخر الخلق بأعز عليّ من أوله ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الله أحد صمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوا أحد .[٣٦]

وقد أخرجه البخاري بمعناه .

والاعتبار الصحيح يشهد بصحة النشأة الآخرة ، والقدرة متسعة لها ولكل ما شاءه الحكيم القدير تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه : وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا

خلق سبحانه الماء من لا شيء ، وأخرجه من غير شيء ، أخرجه من عدم إلى الوجود ، فكونه بعد أن لم يكن شيئا ، ثم خلق منه الإنسان فجعله آية عجبا ، وعبرة ظاهرة في شكله وتخطيطه وحركاته وسكناته ، وما فيه من الحكمة ، وما أودعه من عجائب الصنعة مما يطول وصفه ، ويتسع شرحه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأنشدوا :

أيا ابن آدم والآلاء[٣٧] سابغة ومزنة[٣٨] الجود لا تنفك عن ديم[٣٩]

---

(٣٤) آية ٢٧ الروم .

(٣٥) آية ١٠٧ الأنبياء .

(٣٦) النسائي ٤/١١٢ في الجنائز ، والبخاري ٨/٥٦٨ . جامع الأصول ٢/٤٤٢ .

(٣٧) الآلاء سابغة : النعم شاملة .

(٣٨) مزنة : سحابة .

(٣٩) ديم : جمع ديمة وهي المطر في سكون بلا رعد ولا برق .

هل أنت ذاكر ما أوليت من حسن   وشاكر كل ما خولت[٤٠] من نعم

براك[٤١] باريء هذا الخلق من عدم   بحتٍ ولولاه لم تخرج من العدم

أنشاك من حمأ[٤٢] ولا حراك به   فجئت منتصبا تمشي على قدم

مكمل الأدوات آية عجبا   موفر العقل من حظ ومن فهم

ترى وتسمع كلا قد حبيت به   فضلا وتنطق بالتبيين والحكم

هداك بالعلم سبل الصالحين له   وكنت من غمرات الجهل في ظلم

ماذا عليك له من نعمة غمرت   كل الجهات ولم تبرح ولم ترم

غراء كالشمس قد ألقت أشعتها   حتى ليبصرها عليك كل عمي

فاشكر ولست مطيقا شكرها أبدا   ولو جهدت فسدد ويك والتزم

رزق وأمن وإيمان وعافية   متى تقوم بشكر هذه النعم

﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه[٤٣] * إن ربك هو الخلاق العليم[٤٤]﴾.

فمن آمن بهذا لم يضق صدره عن الإيمان بالنشأة الثانية، وكان منتظرا لها، مشتغلا بالفكرة فيها، وإنها لموضع الانتظار وموضع الاشتغال آناء الليل وأطراف النهار لكن حب العاجل والاشتغال بالحاضر، والنظر إلى هذا الخيال القائم صرف وجه القلب عن استعمال الحقيقة في هذا الأمر، وطمس عينه عن النظر إليها، وسد مجاري فكره عن التصرف فيها، فلو اشتغل ونظر وتفكر لأذهله ذلك عن الأهل والمال، وشغله عن قيل وقال، وصرفه عن لذة الحال [إلى] المآل، لكنه إن لم ينظر الآن، فسينظر في وقت لا ينفعه فيه النظر، ولا ينقضي له به وطر[٤٥] وسيقدم فيعلم.

* * *

---

(٤٠) خوّلت: اعطيت.

(٤١) براك: خلقك.

(٤٢) حمأ: طين أسود.

(٤٣) آية ١١ لقمان.

(٤٤) آية ٨٦ الحجر.

(٤٥) وطر: حاجة، مطلب.

الباب الخامس عشر

٦٣/ ب في انبعاث الناس من قبورهم، وصفة الأرض التي يحشرون عليها، وكيف يحشرون وذكر أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة وما جاء أنهم يبعثون على نياتهم وما كانوا عليه

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث الله بعثا، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسفت بهم. قلت: يا رسول الله فكيف بمن كان كارها؟ قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته. (١)

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم.

وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يبعث كل عبد على مامات عليه. (٢)

وأما أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة فنبينا محمد ﷺ كما ذكر مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع. (٣)

---

(١) مسلم رقم ٢٨٨٢ في الفتن، والترمذي رقم ١٢٧٢ في الفتن أيضا.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨٧٨ في الجنة. جامع الأصول ١٠/ ٤٣٠.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٢٧٨ في الفضائل وأود داود رقم ٤٧٦٣ في المناق جامع الأصول ٨/ ٥٢٨.

وذكر البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إني أول من يرفع رأسه بعـد النفخـة الآخـرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة الآخرة، ويروى: فأكون أول من يفيق، وهو الأكثر.

وقال البخاري أيضا في بعض ألفاظ هذا الحديث: «فاذا أنا بموسى اخذ بقـائمـة من قوائم العرش، فلا أدري أقام قبلي أم جوزي بصعقة الطور»[4]، لم يكن عنـده ﷺ علم حتى يعلمـه الله عزوجـل، فقد أخبر ﷺ أنه أول من ينشق عنه القبر وهو حديث صحيح مشهور.

واعلم رحمـك الله انـه إن لم تشق سمعـك النفخة الأولى في الصور لهلاك هذا المعمور، فلابد أن تشق سمعك النفخة الثانية، لبعثرة القبور وقيام الخلائق ليوم النشور ١/٦٤ وتحصيل ما في الصدور.

﴿إذا زلـزلت الأرض زلـزالهـا * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الانسان مالها* يومئـذ تحدث أخبـارهـا * بأن ربـك أوحى لها * يومئذٍ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[5]

﴿إذا وقعت الـواقعـة * ليس لوقعتهـا كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا﴾[6]

﴿فـإذا نفـخ في الصـور نفخة واحدة* وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحـدة * فيـومئـذ وقعت الـواقعـة* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجـائهـا ويحمـل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾[7]

﴿إذا الشمس كورت * وإذا النجـوم انكـدرت * وإذا الجبـال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت﴾[8]

---

(٤) البخاري ٥٢/٥ في الأنبياء ونفخ الصور، جامع الأصول ٥١٤/٨.
(٥) سورة الزلزلة كاملة.
(٦) آية ١ ـ ٦ الواقعة.
(٧) آية ١٣ ـ ١٨ الحاقة.
(٨) آية ١ ـ ٦ التكوير.

فناهيك من صيحة يقوم لها الأموات، وتحيا بها العظام الرفات، وحسبك من هدة تنهد لها الجبال، وتعود كالكثيب المهيل من الرمال كما قال عز وجل: يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا. (٩)

﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾. (١٠)

﴿فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾. (١١)

وهذه أهوال لابد لك من مكابدتها، وأحوال لابد لك من مشاهدتها، يخرج سهمك فيها بما خرج، ويلج بك سعيك منها فيما يلج، فإما بنزول في درك، وإما بارتقاء في درج.

وقد صح هذا عندك فماذا أعددت له؟ وثبت في نفسك فبماذا تستقبله؟ وماذا تقوله؟ وماذا تفعله؟ لطال ما دعاك الداعي فتصاممت، ونصحك النصيح فتعاميت، وذكرك المذكر فتناسيت، فقد وقفت على العيان مما كان عرضه عليك بالأمس البرهان، وجاءك به الرسول وخاطبك به القرآن، فهل من رجعة أو سبيل اليوم إلى استعمالك تلك الدعوة؟ هيهات طمعت في غير مطمع، وسمعت مالا يسمع، إن كنت تريد أن تعود الى الدنيا أو ترجع، فتفكر الآن في نفسك، وكونك في قبرك، إذا سمعت انشقاق الأرض من فوقك، ووقع ذلك الصوت الهائل في سمعك، صوت تتصدع له الأكباد لو أذن لها في الانصداع، وتتقطع له القلوب لو أذن لها في الانقطاع. قال الله تعالى: ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. (١٢)

وفي الحديث أن هذا الاجتماع يكون بالشام.

روى أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: الشام أرض المحشر والمنشر.

---

(٩) آية ١٤ المزمل.
(١٠) آية ٤ ـ ٥ القارعة.
(١١) آية ٣٧ الرحمن.
(١٢) آية ٤١ ـ ٤٢ ق.

ويـــروى أن المنــادي ينــادي على صخــرة بيت المقــدس: أيتهــا العظــام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

وهذا النداء خلاف الصيحة العظمى، فتفكر وأطلْ فكرك في عظيم تلك الصيحــة، وشــدة تلك النفخــة، وتخيــل قيــام الناس وثورانهم من قبورهم دفعة واحدة، وانبعاثهم بمرة واحدة، وأنت بينهم وفي جملتهم منكسفا وجهك، متغيرا لونــك، متعثــرا قدمــك، قد ملأ قلبــك الفــزع، وقصم ظهــرك ذلــك ٦٤/ب المستمــع، وانت حيران عطشــان سكــران شاخص البصــر نحو النداء، مستمعا الى ذلك الدعاء، ولو وجدت مطارا لطرت، ومفرا لفررت. ﴿كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر﴾. (١٣)

﴿يــا معشــر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفــذوا من أقطــار السمــوات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان * فبأي الاء ربكما تكذبان﴾. (١٤)

ويــروى عن الأوزاعي عن بلال بن سعــد أنــه قال: إن للنــاس جولة يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿يقول الانسان يومئذ أين المفر﴾. (١٥)

وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾. (١٦)

وقــال سبحــانــه: ﴿إني أخــاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾. (١٧)

وأنشدوا:

نادِ في الــقــوم بيــوم الــتــنــاد ... وأعِــدْ فيــهــم حديــث المــعــاد
فالحــديــث الــيــوم في غير هذا ... محدث في القــلب صدع(١٨) الـفؤاد
وخــلو الــقــلب عن ذكــر يوم ... ذكــره أذهــب طيــب الــرقــاد

---

(١٣) آية ١١ - ١٣ القيامة.
(١٤) آية ٣٣ - ٣٤ الرحمن.
(١٥) آية ١٠ القيامة.
(١٦) آية ٥١ سبأ.
(١٧) آية ٣٢ - ٣٣ غافر.
(١٨) صدع: شق.

غبن[19] في الرأي للعقل بادٍ ... ومن الغبن خفي وباد

ولأمر ما بكاه رجال ... في الدياجي كبكاء العهاد

اي يوم ضاق عن حالتيه ... وصف وصاف بليغ وشاد

مشهد تَبْيَضّ فيه وجوه ... ووجوه قد طليت بالحداد

يجعل الولدان شيبا ويرمي ... بالجبال الشم[20] وسط الوهاد[21]

وترى الناس سكارى وما هم ... بسكارى غير سكر التناد

فدع الدار ومادار فيها ... من تليد كان او من تلاد

واقطع الأرض على ظهر طودٍ ... نازلا منه الى بطن واد

طالبا كهف نجاة لتنجو ... رائحا في نيل ذاكم وغاد

واقدح النار بجفن مروع ... جانب الأمن ولين المهاد

رام أمرا فشتته امور ... وعدته[22] عن هواه عواد

فطوى كشحا[23] على محرقات ... نشرت شعلاتها في البلاد

وأفِضْ دمعة باكٍ حزين ... مزجت دمعته بالجساد[24]

وإذا ما أراد ذكرى لذنب ... بات من كربته في ازدياد

وقليل كل هذا قليل ... لأمورٍ بين أيدي العباد

وكروب عند ما أنت فيه ... كالبحار السبع عند الثماد[25]

فاجهد النفس وجاهد هواها ... فمراد الحق ترك المراد

وقيل في قوله تعالى : ﴿يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ .[26]

---

(١٩) الدياجي : الظلمات.
(٢٠) الشم : العالية.
(٢١) الوهاد: جمع وهدة وهي المنخفضات.
(٢٢) عدته عواد: صرفته شواغل.
(٢٣) طوى كشحا: ضمّ واستمر.
(٢٤) الجساد: الدم اليابس.
(٢٥) الثماد: الحفر يجتمع فيها المطر.
(٢٦) آيه ٣٧ النور.

اما تقلب القلوب فانتزاعها من أماكنها، فتغص بها الحناجر، فلا هي تخرج، ولا هي ترجع إلى مواضعها، قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيع يطاع﴾. (٢٧)

وأما تقلب الأبصار فمن الكَحَلِ الى الزرق، ومن البصر الى العمى قال الله تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾(٢٨)

وقال سبحانه: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾. (٢٩)

فتفكر في بهتك وحيرتك وانكسارك وذلتك وافتقارك وقلتك يوم لا تجد الا عملك الذي عملت، وسعيك الذي سعيت، قال الله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه﴾. (٣٠)

وأنشد بعضهم من قصيدة:

واذكر رقادك في الثرى	في قعر مظلمة بهيم
قد نحيت تلك الحلى	واستبدلت تلك الرسوم
واعتضت من حلل الغنى	وحلاه خلقان العديم
وتُركت ويحك مفردا	لا أهل فيه ولا حميم
حيران تفزع للبكا	لهفان تأنس بالغموم
حتى ينادي بالورى	فتقوم أُسرع ما تقوم
عريان مصطفق الحشا	هيمان مجتمع الهموم
والناس قد رجفت بهم	حرب هنالكم عقيم
في مأزق تهفو به	لفحات نيران السموم

---

(٢٧) آية ١٨ غافر.

(٢٨) آية ١٠٢ طه.

(٢٩) آية ٩٧ الاسراء.

(٣٠) آية ٣٠ آل عمران.

وبــدت هنــاك سرائـر قد كنـت قبـل لها كتــوم
ورأيــت في محصــولهــا ما شئــت من خسْــرٍ وشــوم[٣١]
ان لم يجد بالــعــفــو من يعــفــوعن الــذنــب الــعظــيـم

واعلم انـه كلما عظم قدر رجـل في الـدنيا صغر هناك، وكلما كثر جاهه في الدنيا قل هناك، إلا من كان شعاره التقوى في الدنيا، وطريقته المثلى، وكل ما تراه او تسمـع به من ملك جبـار او عزيـز قهار قد قاد الأجناد وأكثر الأمداد ودوخ البـلاد وأذل العبـاد، فهو في ذلك اليوم كالذرة في الرغام تطؤه الأقدام، ويمحقه ذلك الزحام، كما قال القائل:

ألم تســمــع عن الــنــبأ الــعظــيـم وعــن خطــب خلقــت له جسـيـم
وزلــزال يهد الأرض هدا ويــرمي في الحضيضـة[٣٢] بالنجــوم
وأهــوال كأطــواد[٣٣] رواس تلاطــم في ضلوع كالهــشــيـم
فمــن رأس يشــيــب ومــن فؤاد يذوب ومــن هموم في هموم
وســكــران ولم يشــرب حميــا وهــيــمان ولم يعــلق بريـم
ومــرضــعــة قد اذهلهــا أســاهــا فما تدري الــرضــيــع من الــفطـيـم
ومؤتمــة تولــت عن بنــيــهــا وألــقــت بالــيــتــيـمــة والــيـتـيـم
وحبــلى اسقطت ذعــرا وخــوفــا فيــا لله لليــوم الــعــقــيـم
وهــذا مشــهــد لابــد منــه وجمــع للحــديــث ولــلقــديـم
ومــا كســرى وقيصــر والنجــاشي وتُبَّــعُ والــقُــروم[٣٥] بنــو القــروم
بذاك الــيــوم الا في مقــام أذل من الــتراب لذى الــســليــم
ومــا للمــرء الا ما سعــاه لدار الــبؤس او دار الــنــعــيــم
وأنــت كما علمــت ورب أمــر يكــون أذاه أوقــع بالــعــليـم
فدع عيــنــيــك تسبــح في معــين وقــلبــك ذَرْه يقــلب في جحــيــم

(٣١) شوم: شؤم.
(٣٢) الحضيضة: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.
(٣٣) أطواد: جمع طود وهو الجبل العظيم.
(٣٤) ريم: غزال.
(٣٥) القروم: جمع قرم بفتح القاف وسكون الراء وهو الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل. والمراد السيد في قومه.

وشـــق جيـــوب صبرك شق ثكـــلي تعـلقـت ابـنهـا رجـلا سهــوم[٣٦]
ومـــاذا الأمـــر ذلـــكـــم ولـــكـــن تُشـبّـه بالــبحـــار يد الـكـــريـم

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينـا رسـول الله ﷺ بمـوعظـة، فقـال: أيهـا النـاس، إنكم محشورون الى الله عزوجـل حفـاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين، ألا وإن أول الخـلائق يُكسىٰ يوم القيـامـة ابـراهيم عليه السلام ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحـدثـوا بعـدك، فأقـول كما قال العبـد الصـالح: ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * ان تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فيقال لي: انهم لم يزالوا مدبرين على أعقابهم منذ فارقتهم[٣٧]

٦٥/ب وروى شهـــر بن حوشب عن ابن عبـــاس قال: إذا كان يوم القيـــامـة مدت الأرض مد الأديم،[٣٨] ثم ينقـاض اهـل السـماء الـدنيـا على الأرض، فأهل السماء الدنيا وحدهم اكثر من جميع أهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، فيفزعون اليهم ويقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهـو آت، ثم ينقـاض أهـل السـماء الثانية فينتشرون على وجه الأرض، فأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض من جنهم وإنسهم بالضعف فيفزعون إليهم، فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهو آت، ثم ينقاض أهل السموات سماء سماء، كلما انقاضت سماء انتشر أهلها على وجـه الأرض، فيكـونـون أكثر من أهل السموات التي تحتهم وأهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، ويفـزع إليهم أهـل الارض فيقـولـون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهو آتٍ، ثم ينقاض أهل السماء السابعة، فينتشر

---

(٣٦) سهوم: السهام: تغير اللون مع الهزال، داء يصيب الابل.

(٣٧) مسلم رقم ٢٨٦٠ في الجنة، والبخاري ١١/٣٣١ ـ ٣٣٣ في الرقاق وفي الأنبياء، والتفسير جامع الأصول ١٠/٤٢٤.
أما الآيتان: وكنت عليهم شهيدا، إلى العزيز الحكيم فهما آية ١١٧ ـ ١١٨ من سورة المائدة.

(٣٨) الأديم: الجِلْد.

أهلها على وجه الأرض، فلهم وحدهم أكثر من أهل السموات ومن جميع أهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، وينزل الله تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة.

فتفكر في هذا المشهد العظيم، واليوم العقيم، يوم يجمع فيه هذا الخلق كلهم من الملائكة ومن بني آدم من لدن آدم عليه السلام الى آخر الدنيا، فتفكر في أي أرض تسعهم، وأي مكان يحملهم، فكيف وينضاف اليهم جميع الوحوش النافرة والهوام الشاردة، الى غير ذلك من المخلوقات التي ضمها ذلك الموعد، وحشرها ذلك المشهد، فتفكر الآن فيهم، كيف يساقون وكيف يجمعون، وكيف يحشرون، من بين محمول قد مدت ظلال الرحمة عليه، وجمعت الأماني في يديه وبين ساع على قدميه، وآخر مجرور على خديه ومصروع لهول ما بين يديه.

كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: إنكم تحشرون الى الله عزوجل، رجالا وركبانا، وتجرون على وجوهكم[٣٩] - ويروى ويجرون على وجوههم - على أرض بيضاء قاع صفصف مستوية، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، لا ربوة يستتر بها، ولا وهدة يختفى فيها، بل هو صعيد واحد، ليس فيه شيء قائم ولا علم مرتفع، قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾. [٤٠]

وقال النبي ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد. [٤١]

وقال ﷺ: يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر. [٤٢]

ذكر الحديثين مسلم من حديث سهل وأبي هريرة.

يريد ﷺ أرضا مستوية لا جبل فيها، ولا أكمة، ولا ربوة، ولا وهدة،

---

(٣٩) إلى هنا رواه الترمذي رقم ٢٤٢٦ في صفة القيامة. وبقية الكلام للمؤلف وليس من الحديث.

(٤٠) الآيتان ١٠٥ و١٠٦ من سورة طه.

(٤١) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد ١١/٣٢٣ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٧٩٠ في المنافقين. جامع الأصول ١٠/٤٢٤.

(٤٢) مسلم رقم ١٩٤ في الايمان، والبخاري ٦/٢٦٤ في الأنبياء، جامع لأصول ١٠/٤٨٢.

أرض بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولا عمل عليها خطيئة، ولا ارتكب فيها محرم.

قال الله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (٤٣)

وفي حديث ثوبان ان النبي ﷺ ٦٦/أ سئل أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، قال: هم في الظلمة دون الجسر - والجسر هو الصراط -.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنهم على الصراط. ذكر هذين الحديثين مسلم بن الحجاج.

فتفكر في هذا المجتمع، وهذا الهول الأشنع، والخطب الأقطع الأبشع، وفيمن يحضره ويشهده، ويعانيه ويبصره، وكيف يقومون على أقدامهم ويشخصون بأبصارهم، وأنت معهم في ضيق مقام وطول قيام.

قد جُمِعوا جمع الدراهم في الصرة المشدودة، والنبل في الكنانة(٤٤) المشحونة، وقد انشقت السماء فوقهم، وذابت عليهم وسالت على رؤوسهم، وطاشت الألباب، وذهلت الأوهام، وتحيرت العقول وتلجلجت الألسن فلم يدر قائل ما يقول، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا، وضعفت الحركات فلا تسمع للأقدام حسا فيالك من هول تنهد منه الجبال فكيف الرجال، ويالك من خطب تنشق منه السماء فكيف الأحشاء.

فتفكر فيما يشق سمعك من ذلك، وما يخلع قلبك من الروع الذي هنالك، وكيف بك إذا رأيت الشمس قد كورت فذهب ضوؤها والنجوم قد طمست فمحي نورها وزالت عن مواضعها، وفُقِدتْ في مطالعها وانتثرت على مَن تحتها وعلى مَن كان مِن سمتها، واشتبك الناس بعضهم في بعض، وتداخل الخلق بعضهم في بعض فصاروا كالفراش المبثوث، (٤٥) وقامت الملائكة على أرجاء السماء، وأحاطت بالخلائق من كل الأرجاء، والناس حفاة عراة

---

(٤٣) آية ٤٨ إبراهيم.

(٤٤) الكنانة: جعبة آلسهام.

(٤٥) المبثوث: المنتشر.

غرل[٤٦] كما خلقوا، فيالك من يوم يختلط فيه الرجال مع النساء وقد أمنوا أن ينظر بعضهم إلى بعض، أو يحس بعضهم ببعض.

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا، قلت: يارسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض. [٤٧]

وذكر النسائي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ تحشرون حفاة عراة غرلا، فقالت له زوجته: أويرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه. [٤٨]

فيالك من هول ما أعظمه، ومن كرب ما أشده، ومن خطب ما أبشعه.

وإياك أن تستبطىء هذا اليوم وأن تستبعده، فما سيرك اليه ببطيء، وما هو منك ببعيد وإن طال المدى وامتدت الغاية، فكل آتٍ قريب، وكل ما يكون سيكون، قال الله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾. [٤٩]

وقال سبحانه: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فأسأل العادّين﴾. [٥٠]

وقال تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشرا * نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما﴾. [٥١]

اي يقول ذلك بعضهم الى بعض سرا، فيقول أعدلهم قولا، وأرجحهم عقلا: «ان لبثتم الا يوما» اي ما لبثتم في القبور الا يوما واحدا.

---

(٤٦) غزل: غير مختونين.

(٤٧) مسلم رقم ٢٨٥٩ في الجنة والبخاري ١١/٣٣٤ في الرقاق.

(٤٨) النسائي ٤/١١٤ في الجنائز جامع الأصول ١٠/٤٢٦.

(٤٩) آية ٤٥ يونس.

(٥٠) آية ١١٢ ـ ١١٣ المؤمنون.

٦٦/ب ويروى عن مجاهد انه قال: للكفار هجعة قبل يوم القيامة، يجدون فيها طعم النوم، فاذا بعثوا قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ فيقول لهم المؤمنون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. فيخرج الخلائق مذعورين خائفين وجلين، وإذا المنادي ينادي: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيطمع في هذا المؤمنون والكافرون فينادي المنادي: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى المسلمون، فينادي المنادي الثالثة، الذين آمنوا وكانوا يتقون، فينكس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد زال عنهم الخوف، وذهب عنهم الحزن، وغشيهم الفوز والأمن، ذلك «يوما يجعل الولدان شيبا» ولا ترى فيه إلا حزينا كئيبا، يوم تشقق السماء كأنها السحاب، وتسير الجبال كأنها السراب.

واعلم ان الناس يحشرون يومئذ على ثلاثة أصناف: ركبانا ومشاة، وعلى وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين الى جهنم وردا﴾. (٥٢) والوفد: في اللغة القوم المكرمون يفدون من بلادهم في جماعتهم وإلى ملكهم، فينزلهم ويكرمهم، والورد: العطاش يساقون كما تساق الابل وغيرها من الأنعام، تسوقهم الملائكة بسياط من النار الى النار. وقوم يمشون على وجوههم.

ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفا مشاة، وصنفا ركبانا، وصنفا على وجوههم، قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك. (٥٣)

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث قتادة عن أنس بن مالك أن رجلا

---

(٥١) آية ١٠٢ ـ ١٠٤ طه.

(٥٢) آية ٨٥ ـ ٨٦ مريم.

(٥٣) الترمذي رقم ٣١٤١ في تفسير سورة بني إسرائيل. وقال هذا حديث حسن جامع الأصول ١٠/٤٢٧.

قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة [حين بلغه] بلى وعزة ربنا. (٥٤)

قال أبو حامد: ـ وذكر هذا الفصل ـ في طبع الآدمي إنكار كل مالم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل، والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تكن شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها، فأحضر رحمك الله في قلبك صورتك وأنت قد وقفت عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا، منتظر لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء. (٥٥)

ذكر أبو بكر بن أبي خيثمة بإسناده الى لقيط بن عامر العقيلي قال: خرجت أنا ٦٧/أ وصاحب لي حتى قدمنا على رسول الله ﷺ المدينة لانسلاخ رجب فأتينا رسول الله ﷺ حين انصرف من صلاة الغداة، (٥٦) فقام في الناس خطيبا، فقال: أيها الناس، ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ اربعة أيام، ألا لأسمعكم اليوم، ألا فهل من امرىء بعثه قومه فقالوا له اعلم ما يقول لنا رسول الله ﷺ ألا ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه، أو يلهيه الضلال، ألا إني مسئول، هل بلغت، ألا اسمعوا تعوا، ألا اجلسوا، ألا اجلسوا، فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره، قلت: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ قال: فضحك لعمرو الله وهز رأسه وزعم أني ابتغي تسخطه، فقال: ضن (٥٧) ربك بخمس من الغيب لا يعلمها الا الله، وأشار بيده، قلت: وما هن يا رسول الله؟ قال: علم المنية، قد علم متى منية

---

(٥٤) مسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين، والبخاري ١١/٣٣٠ في الرقاق، وفي تفسير سورة الفرقان. جامع الأصول ١٠/٤٢٦.

(٥٥) إحياء علوم الدين ٤/٥١٤.

(٥٦) الغداة: الصبح.

(٥٧) ضن: بخل والمراد أنه لم يخبر بها أحدا.

أحـدكم ولا تعلمـونه ، وعلم المني متى يكون في الرحم ، قد علمه ولا تعلمونه ، وعلم ما في غد ، قد علم ما أنت طاعم(٥٨) غدا ، ولا تعلمونه ، وعلم يوم الغيث يشـرف عليكم أزلـين(٥٩) مشفقـين ،(٦٠) فيظـل يضحـك قد علم أن غوثكم قريب ، قال لقيـط . لم نعـدم من رب يضحـك خيرا ، قال : وعلم يوم السـاعة . قلت : يا رسول الله إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني ، قال : سل عما شئت ، قلت : يا رسول الله عَلِّمْنا مما لم يعلم الناس وما تعلم قال : تلبثون ما لبثتم ، ثم يتوفى نبيكم ، ثم تلبثون ما لبثتم ، ثم تبعث الصيحة ، فلعمرو إلهك ماتدع على ظهـرهـا من شيء إلا مات ، والمـلائكة الذين مع ربك ، فأصبح ربك يطوف في الأرض قد خلت عليـه البـلاد ، فأرسـل ربـك السماء بهضب من عند العرش ، فلعمرو إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه ، حتى تخلقه من قبل رأسه ، حتى يستوي جالسا ، يقول ربك مهيم لما كان فيـه ، فيقـول : يا رب أمتني أمس وأحييتني اليـوم ، لعهـده بالحيـاة يحسبه حديثا بأهله . فقلت : يارسول الله فكيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟ قال : أنبئـك بمثـل ذلـك في إل(٦١) الله الأرض أشْرَفْتَ عليها وهي مدرة بالية ، فقلت : لا تحيا أبدا ، ثم أرسل ربك عليها السماء ، فلم تلبث عنها إلا أياما حتى اشـرفت عليهـا فإذا هي شربـة واحدة ، فلعمرو إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض ، فتخرجون من الأضواء ومن مصارعكم ، فتنظرون اليه ساعة ، وينظر اليكم . قال : قلت يا رسول الله ونحن ملء الأرض وهـو شخص واحـد ينظـر الينـا وننظـر اليه؟ ! قال : أنبئكم بمثل ذلك في إل الله الشمس والقمـر آيـة صغيرة ترونهما ساعة واحدة ويريانكم لا تضامون في رؤيتهما ولعمـرو إلهـك لهو أقـدر على أن يراكم وتـرونـه منهـما ، او ترونهـما ويريانكم ولا تضـامـون في رؤيتهـما . قلت : يارسـول الله فما يفعـل ربنـا بنـا إذا لقيناه؟ قال :

(٥٨) طاعم : آكل الطعام .

(٥٩) أزلين : واقعين في ضيق وشده .

(٦٠) مشفقين : خائفين .

(٦١) إل : عهد .

تُعْرَضـون عليـه بادية صفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضـح بها قبلكم، فلعمرو إلهك ما يخطىء وجه واحد منكم منها قطـرة، فأمـا المسلم فتـدع وجهه مثل الريطة البيضاء، وأما الكافر فتحطمه مثل الحميم الأسـود، ألا ثم ينصـرف نبيكم ٦٧/ب ويفـرق على أثره الصالحون، فيسلكـون جسـرا من النـار، يطأ أحـدكم الجمـرة، فتقـول حس، يقول ربكم أوانُه، ألا فتطلعون على حوض الرسول، لا يظمأ والله ناهله،[٦٢] فلعمرو إلهك ما يبسـط واحـد منكم يده الا وقـع عليهـا قدح يطهـره من الطـوف[٦٣] والبـول والأذى، وتحبس الشمس والقمر، فلا ترون منهما واحدا. قال: قلت: يا رسوَل الله فيم نبصـر الأرض؟ قال: بمثـل ساعتكم هذه وذلـك مع طلوع الشمس في يوم أسفـرتـه الأرض، وواجهتـه الجبال. قال: قلت يارسول الله فبم نجزي من حسناتنا أو سيئاتنا؟ قال: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها إلا أن تغفر.
قلت: يارسول الله ما الجنة والنار؟ قال: لعمرو إلهك إن النار لها سبعة أبواب، ما منها بابان الا يسير الراكب بينهما سبعين عاما، وان للجنة ثمانية ابواب، ما منها بابان الا يسير الراكب بينهما سبعين عاما. قال: قلت يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة؟ قال: على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من كأس ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، فلعمرو إلهك ما تعلمـون وخير من مثله معـه، وأزواج مطهـرة. قلت: يارسـول الله وان لنا فيها أزواجا وهن مصلحات؟ قال: الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذذنكم غير ان لا توالدوا. وذكر باقي الحديث.[٦٤]

---

(٦٢) الناهل: الشارب.

(٦٣) الطوف: الموت الجارف.

(٦٤) راوي هذا الحديث لقيط بن عامر ذكره ابن حجر في الإصابة ترجمة رقم ٧٥٥٥ وقال إنه ممن اشتهر بكنيته: (أبو رزين العقيلي) وأشار أيضا إلى هذا الحديث وقال أنه يقع في نحو ورقتين في صفـة البعث والقيـامـة وذكـر أنـه أخرجه عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وأبو جعفـر بن شاهـين والطـبراني من طريق عبـدالرحمن بن عياش الأنصاري، وقال أن صاحب ابي رزين الذي خرج معه اسمه نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق. كما أن أبا رزين من بني المنتفق وكان وافدا على رسول الله ﷺ عندما سمع هذا الحديث. انظر الاصابة ٣/ ٣٣٠.

فصل
دنو الشمس من الناس يوم القيامة

ذكـر مسلم من حديث المقـداد بن الأسـود قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: تدنى الشمس يوم القيـامـة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل، قال سُليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض او الميل الذي تكحـل به العـين، قال: فيكـون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكـون الى كعبيـه، ومن من يكـون إلى ركبتيـه، ومنهم من يكون الى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق الجاما، واشار رسول الله ﷺ بيده الى فيه.(١)

وعن أبي أمـامـة [البـاهلي] رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال: تدنو الشمس يوم القيامة على مقدار ميل، ويزاد فيها كذا وكذا، تغلى منها الهوام كما تغلي القدور على الأثافي، ذكره قاسم بن أصيغ.

وذكر مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: يقوم أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه.(٢)

وذكـر مسلم عن أبي هريـرة في هذا الحـديث ان رسول الله ﷺ قال: ان العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا، وإنه ليبلغ الى أفواه الناس، أو الى آذانهم ـ الشك من الراوي ـ.(٣)

وروى عن أنس أنه قال: لم يلق ابن آدم قط شيئا منذ خلقه الله أشد عليه من الموت، ثم ان الموت لأهون عليه مما بعده، إنهم ليلقون من هول ذلك اليوم وشدته حتى يلجمهم العرق، حتى لو أرسلت فيه السفن لجرت.

---

(١) مسلم رقم ٢٨٦٤ في صفة الجنة، جامع الأصولا ١٠/ ٤٣٠.

(٢) قال عبدالرحيم العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: متفق عليه ٤/ ٥١٤.

(٣) قال الغزالي في الإحياء: كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح ٤/ ٥١٤.

٦٨/أ وذكر أبو بكر البزار في مسنده عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ إن العرق ليلزم المرء في الموقف، حتى يقول: يا رب إرسالك بي إلى النار أهون علي مما أجد، وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب.

ثم تفكر في ذلك الازدحام والانضمام والاتساق والالتصاق، واجتماع الإنس والجن، ومن يجمع من سائر أصناف الحيوان، وانضغاطهم وتدافعهم واختلاطهم، ولا فرار ولا انتصار، ولا ملاذ ولا انتقاذ، وقربت الشمس منهم قبل تكويرها، وكانت كمقدار ميل، وزيد في حرها، وضوعف في وهجها، ولا ظل الا ظل عرش ربك، بما قدمته من كسبك، وقد انضاف الى حر الشمس حر الأنفاس لتزاحم الناس واحتراق القلوب بما غشيها من الكروب، واشتد الفَرَق، وعظم القلق، وسال من الأجسام العرق، وانبعث من كل موضع من الجسد وانبثق، وكان الناس فيه على قدر أعمالهم، كما تقدم.

فتفكر في نفسك أيها المسكين، وقد ضاق نَفَسك وزاد قلقك، وسال عرقك وجرى من جميع بدنك من قرنك الى قدمك، ووصل منك الى حيث أوصلته بعملك، إما الى كعبك أو صاعدا حتى الى اذنك، فانظر الى هذا الحال، وتفكر في هذا الوبال، وسوء هذا المآل، واعلم رحمك الله انه لو سال عرقك في الدنيا طول عمرك وأضعافه في طاعة ربك وفي رضا سيدك على أن لا تعرق في ذلك اليوم لكان ذلك يسيرا، ولكنت به جديرا، ولكانت سلامتك منه غنما[٤] كثيرا، وفوزا كبيرا.

وأنشدوا:

قَدِّمْ لنفسك نزلا وارفع لرأسك ظلا
في يوم تضحى البرايا في شمسه تتقلى
فمن جسوم تصلّى ومن رؤوس تقلى
ولا ملاذ[٥] هناكم الا سرائر تبلى

---

(٤) غُنم: مكسب وعكسه الغُرم أي الخسارة.
(٥) ملاذ: ملجأ.

وكل ما كان مخفى هناك للخلق يجلى[٦]
فمن دم في دموع تهل في الخد هلا
ومن جوى في ضلوع قد حل فيها المحلا
فيا أخي والمنايا تثل[٧] عرشك ثلا
وهذه مفزعات تكفيك قولا وفعلا
وإنه الأمر جد وليس يا صاح هزلا
فاعمل له في تراخ للعمر من قبل ألا
وقد نصَحْتك فاقبل واسمع لنصحي وإلا[٨]

* * * *

(٦) يجلي : يكشف ويوضح .
(٧) تثل : تهدم ، تذهب بالعز.
(٨) وإلا : أي أن لا تقبل النصح تندم .

فصل
طول يوم القيامة

اعلم رحمك الله أن يوم يوم القيامة ليس طوله كما عهدت من طول الأيام، بل هو آلاف من الأعوام، ينصرف فيه هذا الأنام على الوجوه والأقدام حتى ينفذ فيهم ما كتب لهم وعليهم من الأحكام، ولس يكون خلاصهم دفعة واحدة، ولا فراغهم في مرة واحدة، بل يتخلصون ويفرغون بفراغ اليوم، لكن طول ذلك اليوم «خمسين ألف سنة» فيفرغون بفراغ اليوم، ويفرغ اليوم بفراغهم.

وليس أيضا هذا اليوم مثل أيام الدنيا التي تكون على حكم دوران الفلك، اذا ذهب الليل جاء النهار، وإذا ذهب النهار جاء الليل، حكمة الله التي حيرت العقول، وأكلّت[1] الأبصار، وأخرست الألسن.

ليس هناك ليل، انما هو وقت واحد على صفة واحدة، وهذا الذي يسمى يوما انما هو ٦٨/ب مقدار من ذلك الوقت، يطوله الله عزوجل ما شاء، ويقصره ما شاء، ويسمي ما شاء بما شاء.

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت لهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إما الى الجنة، وإما الى النار. قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، الا إذا

---

(١) أكلّت: أتعبت.

كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر[2] اوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين الف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما الى النار. قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله، إما الى الجنة وإما الى النار. [3]

كذا روى، وإنما هو: كلما مر عليه اخراها رد عليه أولاها.

قال الحسن البصري: فما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا، واحترقت أجوافهم جوعا، انصرف بهم الى النار، فسقوا من عين آنية، قد أنى حرها واشتد نضجها.

واعلم أن هذا اليوم يتلون ألوانا، ويستحيل حال الناس فيه أحوالا، فينبعثون فيه من قبورهم، ويساقون فيه الى محشرهم ومكان القضاء فيهم، ويقفون فيه ما شاء الله أن يقفوا، شاخصة أبصارهم الى السماء، مبهوتين سكارى حيارى من عظيم ما أصابهم، وهول ما نزل بهم، ثم يموج بعضهم في بعض، ويدخل بعضهم في بعض، ويمشون من نبي الى نبي يطلبون الشفاعة في الاستعجال والانفصال، والتخلص من تلك الأهوال والأنكال، وليس كل الناس يكلم الأنبياء، وليس كل الناس يمشي اليهم، ومن الناس من يكون بمنزلة الرغام[4] تطؤه الأقدام في ذلك الزحام، وضيق ذلك المقام، ويأتي في هذا اليوم وقت منه يتكلم فيه المشركون، فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين،

---

(٢) القاع: المكان المستوي في الأرض. والقرقر: الأملس.

(٣) مسلم رقم ٩٨٧ في الزكاة، والبخاري ٣/٢١٢ في الزكاة وفي التفسير. وأبو داود رقم ١٦٥٨ و ١٦٥٩ و ١٦٦٠ في الزكاة، والنسائي ٥/١٢ ـ ١٤ في الزكاة. جامع الأصول ٤/٥٥٤.

(٤) الرغام: التراب.

ويأتي عليهم منه وقت آخر لا يتكلمون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وفيه تكون المحاسبة والمناقشة، وفيه يتعلق الناس بعضهم ببعض، ويطلب بعضهم بعضا، ويخاصم بعضهم بعضا، فمن الناس من يخفف عليه اليوم حتى لا يجد فيه مشقة طول، ولا يردّ له فيه رغبة ولا سؤل.

وذكر ابن وهب من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة كان يصليها في الدنيا، فمن الناس من يطول مقامه وحبسه الى آخر اليوم، ومنهم من يكون انفصاله في ذلك اليوم في مقدار يوم من أيام الدنيا وفي ساعة من ساعاته، ٦٩/أ أو فيما شاء الله من ذلك، أو يكون رائحا في ظل كسبه وعرش ربه، ومنهم من يؤمر به الى الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما أن منهم من يؤمر به الى النار في أول الأمر، من غير وقوف ولا انتظار، او بعد يسير من ذلك النهار، وبالجملة فليس يتم ذلك اليوم إلا وقد نزل كل إنسان بداره، واستقر في قراره من جنته أو ناره.

فتفكر ايها الانسان في طول ذلك اليوم، وفي طول ذلك القيام فيه، مع ذلك الحال الأخطر، والفزع الأكبر، والهول الذي لا يكيف ولا يقدر، فاختر لنفسك كم تريد أن تقف فيه، وكيف تريد أن تكون فيه، مادام النظر إليك، والاختيار بيديك مع توفيق ربك عز وجل لك، ومعونته إياك.

وأنشد بعضهم:

يا آمن الساحة لا يذعر	بين يديك الفزع الأكبر
وإنما أنت كمصبورة[٥]	حم[٦] رداها وهي لا تشعر
والمرء منصوب له حتفه	لو انه من عَمَهٍ[٧] يبصر
وهذه النفس لها حاجة	والعمر عن تحصيلها يقصر

(٥) مصبورة: المحبوسة للقتل.

(٦) حُمَّ رداها: قرب موتها.

(٧) عمه: تردد في الضلال، تحير.

وكلما تزجر عن مطلب ... كانت به أهيم[8] إذ تزجر
وإنما تقصر مغلوبة ... كالماء عن عنصره يقصر[9]
وربما ألقت معاذيرها ... لو أنها يا ويحها تعذر
وناظر الموت لها ناظر ... لو أنها تنظر إذ ينظر
وزائر الموت له طلعة ... يبصرها الأكمه[10] والمبصر
وروعة الموت لها سكرة ... [ما] مثلها من روعة تسكر
وبين أطباق الثرى منزل ... ينزله الأعظم والأحقر
يترك ذو الفخر به فخره ... وصاحب الكبر به يصغر[11]
قد ملأت ارجاءه روعة ... نكيرها المعروف والمنكر
وبَعْدُ ما بعد وأعظم به ... من مشهد ما قدره يقدر
يرجف منه ذا الورى رجفة ... يَنْهَدُّ منها الملأ الأكبر
وليس هذا الوصف مستوفيا ... كل الذي من وصفه يذكر
وإنما ذا قطرة أرسلت ... من أبْحُرٍ تتبعها أبحر
وقد أتاك الثبت عنه بما ... أخبرك الصادق اذ يخبر
فاعمل له ويك وإلا فلا ... عذر وما مثلك من يعذر

واعلم أنه كلما طال قيامك في طاعة الله وانتصابك له، قصر قيامك في ذلك اليوم، وقل تعبك فيه، وكلما كثر تصرفك في طاعة الله سبحانه، وإقبالك وإدبارك في قضاء حاجة مسلم، ومشيك فيه ومشاركتك له، يقل مشيك في ذلك اليوم، ويقل تعبك فيه وبقدر ما تبذل تعطى، وكما تدين تدان.

ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين تقرأ فيهما حزبا أو حزبين، تقوم بهما لربك جل جلاله، ولعلك تعجز عن مشي ميل في قضاء حاجة مسلم، أو ميلين،

---

(٨) أهيم: أكثر تعلقا.
(٩) هذا البيت والذي قبله سقطا من ش.
(١٠) الأكمه: الذي ولد أعمى.
(١١) هذا البيت سقط من ز.

وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد، والكرب العظيم الشديد، الذي لا يقصر إلا على من أطـال التعب لله، ولا يسهـل الا على من تحمـل الشـدائد في ذات الله، ولعلك ان صليتهـا ليلة عجـزت عنها ليلة أخرى، ولعلك ان مشيت يوما في حاجة مسلم برمت[١٢] من ذلك يوما آخر، وضجرت منه وكسلت عنه، وربما وقفت لسماع حديث فارغ يكون تقديره أكثر من حزب أو حزبين، وربما مشيت في فضولٍ الميلَ والميلين وأكثر من ذلك، ولو تدبرت في أمرك ونظرت فيما يراد بك لسهـل عليـك من أمـرك العسير، وقرب عليك فيه البعيد، فاعمل رحمك الله في أيام قصار ٦٩/ب وعمر قصير، لأيام طوال وعمر طويل.

* * *

(١٢) برمت: ضجرت.

الباب السادس عشر

ذكر الحوض

قد سمعت رحمك الله بعطش هذا اليوم والتهابه، وما يصل الى القلوب من أواره واحتراقه، وأن الماء في ذلك اليوم اعز موجود وأعظم مفقود، وأن لا منهل مورود إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ، ولا مشرب لأمته سواه، ولا تبرد اكبادهم إلا به، وأن الشربة منه تروي من الظمأ، وتشفي من الصدى، وتذهب كل داء، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبدا، وأنها ترد العقل العازب والشباب الذاهب، ويؤوب معها من الزمن الصالح مالم يكن قبل بآيب، وانه لا يرد ذلك الحوض الا من ورد في الدنيا حوض شرعته، وتمسك بسنته، وتوفي على ملته، وإلا فيجلى عنه ولا يدنو منه ولا يكاد، ويضرب عنه ضربا تتقطع له الجوانح والأكباد.

وأنا أذكر لك من أحاديث الحوض ما يسر الله عزوجل.

ذكر مسلم من حديث ثوبان ان النبي ﷺ قال: إني لبعقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه، فقال: من مقامي الى عمّان، وسئل عن شرابه، فقال: أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل يفت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورِق. (1)

وعن أبي ذر قال: قلت يارسول الله ما آنية الحوض؟ قال: والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمّان الى أيلة، ماؤه أشد بياضا من

---

(1) أخرجه مسلم رقم ٢٣٠١ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأوصول ٤٦٤/١٠.
والورِق: الفضة.

اللبن، وأحلى من العسل.[٢]

ومن حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ ترى فيه أباريق الذهب والفضة عدد نجوم السماء.

وذكر الترمذي عن أبي سلام الحبشي قال: حدثني ثوبان عن النبي ﷺ قال: حوضي من عدن الى عمّان البلقاء، ماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، أكاويبه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤوسا، الدنس ثيابا، الذين لا ينكحون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، فقال عمر بن عبدالعزيز: قد نكحت المنعمات ـ فاطمة بنت عبدالملك ـ وفتحت لي أبواب السدد، لا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ.[٣]

وذكر البزار من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: حوضي من كذا الى كذا فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحا من المسك وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه لم يظمأ أبدا، ومن لم يشرب لم يرو أبدا.

وذكر مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ ٧٠/أ يقول وهو بين ظهرانَي أصحابه: إني على الحوض أنتظر من يرد عليّ منكم، فوالله ليقتطعن دوني رجال، فلأقولن: أي رب مني ومن أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، مازالوا يرجعون على أعقابهم.[٤]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق،[٥] وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ بعدها أبدا.

---

(٢) رواه مسلم والترمذي، وليس عند الترمذي يشخب فيه مزابان من الجنة. ومعنى يشخب يسيل ويجري كما يجري الميزاب. والحديث في صحيح مسلم رقم ٢٣٠٠ في الفضائل. وعند الترمذي رقم ٢٤٤٧ في صفة القيامة.

(٣) الترمذي رقم ٢٤٤٦ في صفة القيامة.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٢٩٤ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ٤٧١/١٠.

(٥) الورق: الفضة وهو بفتح الواو وكسر الراء.

وقالت أسماء بنت ابي بكر: قال رسول الله ﷺ: إني على الحوض حتى أنظــر من يرد علـيّ منكم، وسيؤخــذ أنـاس من دوني فأقـول: يارب مني ومن أمتي، فيقال: أما شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم.[6]

قال: فكـان ابن أبي مليكـة يقـول: اللهم إنـا نعـوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو أن نفتن عن ديننا.

وعن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة زوج النبي ﷺ عن أم سلمة رضي الله عنهـا أنهـا قالت: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: أيها الناس، إني لكم فرط على الحـوض، فإيـاي لا يأتـين أحـدكم، فيـذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا.[7]

وقال النسائي في هذا الحديث: ياأيها الناس، بينا أنا على الحوض إذ مُرَّ بكم زُمَراً، فيذهب بكم الطرق، فأناديكم ألا هلم الى الطريق فينادي مناد من ورائي: إنهم بدلوا بعدك، فأقول: ألا سحقا سحقا.

وذكـر مسلم من حديث أبي هريـرة أن رسـول الله ﷺ أتى المقـبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أني رأيت إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدك من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلا له خيل غرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهْم بُهْم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: فإنهم يأتون غُرّاً محجّلين من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحـوض، ألا ليـذادن رجـال عن حوضي كما يذاد البعـير الضال، أناديهم ألا هلم هلم، فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، فأقول سحقا سحقا.

وذكر البخاري من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: إني فرط لكم على الحـوض، مَن مَرّ يشـربْ، ومن شرب لم يظمأ أبـدا، ليردن أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم. زاد أبو سعيد الخدري رضي الله عنه

---

(٦) أخرجـه البخـاري ١١/٤١٥ في الرقاق، وفي الفتن، ومسلم رقم ٢٢٩٣ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ١٠/٤٧٢.

(٧) أخرجه مسلم رقم ٢٢٩٥ في الفضائل، باب إثبات الحوض. جامع الأصول ١٠/٤٧٢.

قال: فأقول: أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غيّر بعدي. (٨)

وذكر(٩) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بينا إنا قائم اذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: أين؟ فقال: الى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك القهقرى على أدبارهم. ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: أين؟ فقال: الى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم. (١٠)

٧٠/ب قوله ﷺ بينا أنا قائم» يريد: على الحوض، كما ورد في حديث آخر.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إني ممسك بحجزكم(١١) عن النار، وتغلبونني وتقتحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، وأوشك أن أرسل حجزكم وأفرط لكم عن - أو على - الحوض - الشك من الراوي، وتردون عليّ معا وأشتاتا، (١٢) فأعْرفكم بأسمائكم وسيماكم كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله، ويذهب بكم ذات الشمال، وأناشد فيكم رب العالمين، فأقول: أي رب رهطي، أي رب أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي يامحمد يامحمد، فأقول. لا أملك لك من الله شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء* فينادي يامحمد يامحمد، فأقول: لا

---

(٨) البخاري ١١/٤١٢ و٤١٣ في الرقاق، باب في الحوض، ومسلم رقم ٢٣٠٤ في الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ١٠/٤٦٩.

(٩) وذكر: أي البخاري.

(١٠) البخاري ١١/٤١٣ في الرقاق. باب في الحوض، جامع الأصول ١٠/٤٧٠ وهمل النعم: الماشية السائبة.

(١١) حجزكم: جمع حجزة وهو موضع التكة من السراويل ٠ * الرغاء: صوت البعير.

(١٢) اشتاتا: متفرقين.

أملك لك من الله شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة،[١٣] ينادي يامحمد يامحمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قشعا من أدم ينادي يامحمد يامحمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد بلغت.

وذكر أبو بكر البزار عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا فرط بين أيديكم، فإن لم تجدوني فإني على الحوض، وسيأتي أقوام رجال ونساء، ثم لا يذوقون منه شيئا.

وذكر ابن السكن من حديث سويد بن[١٤] جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: لتزدحمن هذه الأمة على الحوض ازدحام واردات الحُمُر.

وذكر مسلم من حديث أنس بن مالك قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آنفا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾.[١٥] ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج[١٦] العبد فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك.

وفي طريق آخر عن أنس أيضا: نهر وعدنيه ربي في الجنة عليه حوضي، ويروي عليه حوض.

وفي حديث لقيط ـ وذكر البعث ـ قال: تسلكون جسراً من النار، يطأ أحدكم الجمرة، فيقول: حِسْ، ألا فتطلعون على حوض الرسول، لا يظمأ والله ناهله، فلعمرو إلهك ما يبسط واحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى، رواه عن النبي ﷺ.[١٧]

---

(١٣) الحمحمة: كوزن زلزلة، صهيل الفرس ممزوج بحنين.
(١٤) سويد بن جبلة: ذكره ابن حجر في الاصابة رقم ٣٨١٦، وقال ليس له صحبة.
(١٥) سورة الكوثر.
(١٦) يختلج: يضطرب.
(١٧) علقنا على هذا الحديث في باب انبعاث الناس الخ.

وذكـر في هذا الحـديث أن الحـوض بعـد الجسر، وما تقدم في الحوض من الأحاديث التي لم يحدّ له فيها موضع هو الصحيح المشهور.

وذكـر الـترمـذي من حديث الحسن عن سَمُـرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ إن لكل نبي حوضا، وإنهم ٧١/أ يتباهون أيهم أكثر واردة،(١٨) وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة.

وهذا يروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلا.(١٩)

وذكر أبو بكر البزار من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن لي حوضـا ما بين بيت المقـدس الى الكعبـة أبيض من اللبن، فيـه عدد الكواكب آنيـة، وأنـا فرطكم على الحـوض، ولكـل نبي حوض، وكـل نبي يدعـو أمته، فمنهم من يرد عليـه فئـام(٢٠) من النـاس، ومنهم من يرد عليه ما هو دون ذلك، ومنهم من ترد عليه العصابة، ومنهم من يرد عليه الرجلان والرجل، وفيهم من لا يرد عليه أحد، فيقول: اللهم قد بلغت ـ ثلاثا ـ وذكر باقي الحديث.



---

(١٨) الواردة: الذين يردون للشرب.

(١٩) مرسلا: المرسل من الحديث ما رواه التابعي وسقط منه اسم الصحابي.

(٢٠) فِئام: بكسر الفاء: الجماعة من الناس.

الباب السابع عشر
ذكر الشفاعة الأولى التي تكون لفصل القضاء بين الناس

وهي المختصة بنبينا ﷺ فلا تكون إلّا له، ولا يشركه فيها أحد غيره.

ذكر البخاري من حديث آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر يقول: ان الناس يصيرون يوم القيامة جثى،[1] كل أمة تتبع نبيها يقولون: يافلان اشفع لنا، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة الى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[2] رواه حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة، قال: كنا مع النبي ﷺ في دعوة، فدفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منها نهشة[3] ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم، فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا الى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه،[4] ألا ترى ما قد بلغ[5] بنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله، ولن يغضب مثله بعده، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته،

---

(١) جثا وجثي: مفردها جاث جثا يجثو: أي قام على أطراف أصابعه أوجلس على ركبتيه. اللسان ـ جثا وأشار إلى هذا الحديث قال تعالى: ونذر الظالمين فيها جثيا، آية ٧٢ مريم.

(٢) في ش: وقد.

(٣) في ش إلى قد ما بلغكم.

(٤) في ش ألا ترى ما نحن.

(٥) بلغنا.

نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري[6] اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح إنك[7] أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى ابراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، فذكرهن أبو حيان في الحديث، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون: ياموسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا، ولم اؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمْتَ الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبا، نفسي، نفسي[8] اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد فيأتون محمدا ﷺ فيقولون: يامحمد أنت رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يامحمد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يارب، أمتي يارب

---

(٦) في ش اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

(٧) في ش أنت أول الرسل.

(٨) في ش نفسي مرتين مع جميع الرسل.

ثلاثا، فيقال: يامحمد أدْخِلْ من امتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى. [9] أو كما بين مكة وهجر.

* * *

(٩) الترمذي رقم ٢٤٣٦ في صفة القيامة. والبخاري ٦/٢٦٤ و٢٦٥ في الأنبياء، وفي التفسير. ومسلم رقم ١٩٤ في الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. جامع الأصول ١٠/٤٨٢.
والمصراع: أحد غلقي الباب، وتسميه العامة ضلفة.
بصري: بلد بسوريا، هجر: بلد في منطقة الاحساء قرب القطيف.

الباب الثامن عشر
المساءلة والتقرير والمحاسبة والقصاص

قال الله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾. [1]

وقال سبحانه: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾. [2]

وقال جل جلاله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾. [3]

ذكر قاسم بن أصبغ من حديث سعيد بن عبدالله عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه. ذكره الترمذي[4] أيضا.

وذكر مسلم من حديث صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه تعالى، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: رب أعرف، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا،

---

(١) الآيتان ٩٢، ٩٣ من سورة الحجر.
(٢) آية ٤٩ الكهف.
(٣) الآيتان ٦٩ و ٧٠ الزمر.
(٤) الترمذي رقم ٢٤١٩ في صفة القيامة، وقال حديث حسن صحيح. انظر جامع الأصول ٤٣٦/١٠.

وإني أغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. (٥)

وذكر مسلم أيضا من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ من حوسب يوم القيامة عذب، فقلت: أليس قد قال الله تعالى: فسوف يحاسب حسابا يسيرا، قال: ليس ذلك الحساب، وانما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب. (٦)

وذكر ابو بكر البزار من حديث أنس عن النبي ﷺ انه قال: يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم [التي] من الله عليه، فيقول الله تعالى: لأصغر نعمة - أحسبه قال في ديوان النعيم - خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح ثم تتنحى، فتقول وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، وقد ذهب العمل، فإذا أراد الله أن يرحم عبده، قال: ياعبدي، قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك، وأحسبه قال: ووهبت لك نعمي.

وذكر أبو بكر البزار من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: يؤتى بالمالك والمملوك، والزوج والزوجة حتى يقال للرجل: شربت يوم كذا وكذا على لذة، ويقال للزوج: خطبت يوم كذا فلانة مع خُطّاب، فزوجتكها وتركتهم.

وفي الخبر المشهور أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أكلا تمرا وبسرا ورطبا، ثم أكلا خبزا ولحما، أطعمهما رجل من الأنصار، وأكلاه على جوع، فقال لهما النبي ﷺ لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة. والحديث ذكره مسلم. (٧)

---

(٥) مسلم رقم ٢٧٦٨ في التوبة، والبخاري ٥/ ٧٠ في المظالم وغيرها.
انظر جامع الأصول ١٠/ ٤٥٦.

(٦) مسلم رقم ٢٨٧٦ في الجنة، والبخاري ١/ ١٧٦ في العلم. جامع الأصول ١٠/ ٤٣٢.

(٧) مسلم رقم ٢٠٣٨ في الأشربة، والترمذي رقم ٢٣٧٠ في الزهد.
جامع الأصول ٤/ ٦٩١.

وذكر الترمذي من حديث عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم، قال: إن الأمر إذن لشديد. (٨)

وذكر النسائي من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله عزوجل له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها، إلا أن يتجاوز الله عنها. (٩)

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار. (١٠)

وذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ يخلص المؤمنون من النار فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا، أذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة منه بمنزله الذي كان في الدنيا. (١١)

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: لتؤدُّنَّ الحقوق

---

(٨) الترمذي رقم ٣٢٣٤ في تفسير سورة الزمر، والحاكم ٢/ ٤٣٥ ووافقه الذهبي وأورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٢٧، وزاد نسبته لأحمد جامع الأصول ٢/ ٣٣٦.

(٩) النسائي ٨/ ١٠٥ في الايمان، وإسناده حسن.

(١٠) مسلمر قم ٢٥٨١ في البر، والترمذي رقم ٢٤٢٠ في صفة القيامة جامع الأصول ١٠/ ٤٣١.

(١١) البخاري ٥/ ٧٠ في المظالم وفي الرقاق. جامع الأصول ١٠/ ٥٤٩.

إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.[12]

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان، فقال: يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان؟ قلت: لا أدري، قال: لكن الله يدري ويقضي بينهما يوم القيامة.

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثَمّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه.[13]

وذكر أبو بكر البزار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه، فاما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[14] وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين بعضهم من بعض.

وذكر مسلم من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال أعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[15]

---

(١٢) مسلم رقم ٢٥٨٢ في البر، والترمذي رقم ٢٤٢٢ في صفة القيامة.
جامع الأصول ٤٣٢/١٠. والجلحاء: التي لا قرن لها.

(١٣) البخاري ٧٣/٥ في المظالم، والترمذي رقم ٢٤٢١ في صفة القيامة.
جامع الأصول ٤٣١/١٠.

(١٤) آية ١٣ لقمان.

(١٥) مسلم رقم ١٩٠ في الايمان، والترمذي رقم ٢٥٩٩ في صفة جهنم جامع الأصول ٤٥٩/١٠.

وذكر الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج[16] فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله له: أعطيتك وخَوّلْتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يارب جمعته وثمّرته فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتك به، فيقول له أرني ما قدمت، فيقول: يارب جمعته وثمرته وتركته اكثر ما كان فارجعني آتك به، فإذا عبد لم يقدم خيرا فيمضى به الى النار.[17]

فتفكر أيها المسكين في نفسك بينما أنت في هذا اليوم الذي وصف لك، وفي هذا الحال الذي حدثت عنه، وقد جيىء بجهنم كما روي في الصحيح تقاد بسبعين ألف زمام[18] مع كل زمام شبعون ألف ملك يجرونها حتى تكون بمرأى من الخلق ومسمع، يرون لهيبها ويسمعون زفيرها.

اذ أخذ بضبعيك،[19]، وقبض على عضديك، وجيء بك تتخطى الرقاب، وتخترق الصفوف والخلائق ينظرون اليك حتى اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسئلت عن القليل والكثير، والنقير والقطمير، ولا تجد أحداً يجاوب عنك بلفظة، ولا يعينك بكلمة، ولا يرد عنك جوابا في مسألة.

وأنت قد شاهدت من عظم الأمر وجلالة القدر، وهيبة الحضرة ما أذهب بيانك، وأخرس لسانك، وأذهل جَنانك،[20] ونظرت يمينا وشمالا وبين يديك، فلم تر الا النار وعملك الذي كنت تعمل، وكلمك رب العزة جل جلاله بغير حجاب يحجبك، ولا ترجمان يترجم لك، كما جاء في الخبر الصحيح وسئلت عن كل شيء كان منك في حق نفسك وحق غيرك، وقيل لك: مالك من أين اكتسبته؟ ومن أين جمعته، وفيم أنفقته؟ فما ظنك بنفسك في ذلك اليوم؟ وكيف يكون فزعك وجزعك؟

---

(١٦) البذج: كلمة فارسية تكلم بها العرب،د وهو أضعف ما يكون من الحملان: وجمعه بذجال.

(١٧) الترمذي رقم ٢٤٢٩ في صفة القيامة. جامع الأصول ١٠/٤٣٧.

(١٨) زمام: لجام.

(١٩) ضبعيك: الواحد ضبع وهو وسط العضد أو الابط.

(٢٠) جنانك: قلبك.

وكيف تكون حيرتك ودهشتك إذا قيل لك: عاملت فلانا يوم كذا وكذا في كذا وكذا، وأخذت منه كذا وكذا، وغبنته في كذا وكذا، وتركت نصيحته في كذا وكذا وفي هذه السلعة ولم تبين له هذا العيب، أو غصبت فلانا او ظلمت فلانا أو غششت فلانا، أو قتلت فلانا، أو فعلت كذا وكذا وقيل لك أدل بحجة، قم ببينة، ائت ببرهان، انفذ بسلطان، فأردت الكلام فلم تبين، وجئت بعذر فلم يستبن، هيهات أنى لك الكلام ولم تنقحه؟ وأنى لك بالعذر وفي الدنيا لم تصححه؟

قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صَفّاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا * ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا * إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا﴾. (٢١)

وقال الحارث بن أسد المحاسبي في موعظة له: أحذرك يا أخي ونفسي يوما آلى الله فيه على نفسه ألا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه، حتى يسأله عن عمله كله، دقيقه وجليله، (٢٢) سره وعلانيته، فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وبأي لسان تجيبه، فأعدّ للسؤال جوابا، وللجواب صوابا. فتفكر الآن وانظر بأي قدم تقف في ذلك المقام، وبأي أذن تسمع ذلك الكلام. فما شئت من قلب يخلع، وكبد تصدع، ولسان يتلجلج، وأحشاء تتموج، ونفس تريد أن تخرج فلا تترك أن تخرج.

فانظر ما أشأم تلك الأرباح التي ربحتها، وأخسر تلك المعاملات التي عاملت بها، انظر كيف ذهبت عنك مسراتها وبقيت حسراتها، والشهوات التي في ظلم العباد انفدتها كيف ذهب عنك الفرح بها وبقيت تبعتها، وانظر الآن بكم تفتدي من ذلك الموقف، وبكم تتخلص من ذلك السؤال.

أتقول لو كان لك نصف الدنيا أكنت تعطيه في التخلص من ذلك المقام، أي لعمرو الله والدنيا وأضعافها مرات، فكيف ولم يحصل لك من عمرك الا دريهمات يسيرة أنفقتها في أيام يسيرة، وربما لم تنفقها ولعلك كنت أنت جامعها والمتعب فيها، وكان المنفق لها سواك، والمتلذذ بها غيرك إما زوج ابنتك او زوجة

---

(٢١) الآيات ٣٨ ـ ٤٠ من سورة النبأ.

(٢٢) دقيقة وجليلة: صغيرة وكبيرة.

ابنك، أو غيرهما من ورثتك، وأنت إنما حصل لك منها ما أنفقته في الحال، لا ما اعددته للمآل، وتركت ذلك لمن لا يحمدك ولا يشكرك، ولعله ينفقها في معصية فتكون أنت السبب فيها، ويكون مالك العون عليها، أو ينفقها في طاعة فترى مالك في ميزان غيرك تشقى أنت به وينعم به سواك.

وإن كنت قد أنفقتها في معصية ربك ومخالفة مولاك واتباع هواك، وأطلقت فيها شهوتك، وأرسلت فيها لذتك فيا ويلك ثم يا ويلك من أسير شد خناقه وأحكم وثاقه وثبتت على عنقه أرباقه، وطولب بما جناه، وأخذ بما كسبت يداه، وقيل له: لا تلم فيها أنضج من جسمك وطبخ، فيداك اوكتا وفوك نفخ، ولا تبك من سهم أنفذك وأصماك، فطرفك أشار إليك، وساعِدَك رماك.

وإن اخذت ذلك بالغصب والظلم وسائر أنواع المحرمات والأمور المحظورات فقد علمت ما أعد الله للظالمين، وما تواعدهم في كتابه المبين.

وأعلم أن في هذا اليوم يصدق الله تعالى قوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصَّنَّ عليهم بعلْم وما كنا غائبين﴾. [٢٣] ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾. [٢٤]

فيبدأ بالأنبياء عليهم السلام، فيقول ماذا أجبتم؟ قيل في تفسيرها: كانوا قد علموا ولكن ذهبت عقولهم وعزبت[٢٥] أفهامهم ونسوا من شدة الهول وعظم الخطب وصعوبة الأمر، فقالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب.

ثم يقربهم الله عز وجل فيدعى نوح عليه السلام.

وذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه بلغ ويكون الرسول عليهم شهيدا، فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[٢٦] والوسط العدل.

---

(٢٣) الآيتان ٦، ٧ من سورة الأعراف.
(٢٤) الآيتان ٩٢، ٩٣ من سورة الحجر.
(٢٥) غربت: غابت.
(٢٦) آية ١٤٣ البقرة.

وروى ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة، قال: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، فيقول الله جل ثناؤه: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب قد بلغته جبريل، فيدعى جبريل فيقال: هل بلغت إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم يارب، فيخلي عن إسرافيل ويقول لجبريل: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: بلغته الرسل، فيدعى الرسل، فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم، فيخلى عن جبريل، ويقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون نعم قد بلغناه الأمم، فتدعى الأمم، فيقال لهم: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فمصدق ومكذب، فتقول الرسل: لنا عليهم شهداء، فيقول تبارك وتعالى: من؟ فيقولون أمة محمد ﷺ فيقال لهم: أتشهدون ٧٤/أ أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم، فتقول الأمم: يارب كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله تعالى: كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولا وأنزلت علينا كتابا فقصصت علينا فيه أن قد بلغوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾. والوسط العدل.

ثم يدعى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ثم ينادي كل انسان باسمه واحدا واحدا، ويسألون واحدا واحدا، وتعرض أعمالهم على رب العزة جل جلاله، قليلها وكثيرها، حسنها وقبيحها.

وفي بعض الأخبار: يتمنى رجال أن يبعث بهم الى النار ولا تعرض قبائحهم على الله تعالى، ولا تكشف مساوئهم على رؤوس الخلائق، فما ظنك بهذا المقام، وبهذا السؤال وبهذا النكال والوبال؟(٢٧) وما ظنك بنفسك وقد جيىء بجهنم على الوصف الذي تقدم، وقد دنت من الخلائق، وشهقت وزفرت وثارت وفارت، وانتهض خزانها والموكلون بها والمعدون لتعذيب أهلها، متسارعين الى أخذ ما أمروا بأخذه، ساحبين له على بطنه وحر وجهه، سامعين مطيعين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فتمثل حالك وكيف أنت وقد امتلأت القلوب خوفا وجزعا ورعبا وفزعا، وارتعدت الفرائص وبلغت القلوب الحناجر، واصطفقت الأحشاء، وتقطعت

---

(٢٧) من فما ظنك إلى هنا سقط من ز.

الأمعاء، وطلبوا الفرار فلا فرار، وطاروا لو يصادفون مطارا، وجَثَتْ الأمم على الركب، وأيقن المذنبون بالهلاك والعطب وسوء المنقلب.

وينادي الأنبياء والصديقون والأولياء: نفسي نفسي، كل نفس قد أفردت لشأنها، وتركت لما بها، وظن كل إنسان أنه هو المأخوذ، وأنه هو المقصود، وذهلت العقول، وطاشت الألباب، وتحيرت الأذهان، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واشتغل بشأنه الذي يغنيه، وسئل عن جميع أمره سره وجهره، دقيقة وجليله، كثيره وقليله، وسئل عن أعضائه عضوا عضوا، وجارحة جارحة، وعن شكره عليها، وعن[٢٨] أداء حق الله فيها.

وظهرت القبائح، وكثرت الفضائح، وبدت المخازي، واشتهرت المساوي، وتركك الأهل والأقربون، ولم ينفعك مال ولا بنون، وأقبلْت تجادل عن نفسك، وتخاصم عنها، وتطلب المعاذير لها، وقد أسلمت وأفردْت، واشتغل كل إنسان عنك بنفسه، وترك ما حل بك لما حل به.

وأنشدوا:

خليلي ما أقضي وما أنا قائل	إذا جئت عن نفسي بنفسي اجادل
وقد وضع الرحمن في الخلق[٢٩] عدله	وسيق جميع الناس واليوم باسل[٣٠]
وجييء بجرم النار خاضعة له	وثلت عروش عندها ومجادل[٣١]
فيا ليت شعري ذلك اليوم هل أنا	أأغفر ام أجْزَى بما أنا فاعل
فإن اك مجزيا فعدل وحجة	وان يك غفران ففضل ونائل[٣٢]

٧٤/ب وأعلم أنه بقدر ما تيسسر على أخيك المسلم في الدنيا[٣٣] ييسر عليك في ذلك اليوم، وبحسب ما تلتمس له العذر في الدنيا يلتمس لك العذر في ذلك اليوم.

---

(٢٨) في ى وهل أدّى.
(٢٩) في ي في الحشر.
(٣٠) باسل: شديد.
(٣١) مجادل: جمع مجدل وهو القصر.
(٣٢) نائل: معروف.
(٣٣) في الدنيا: ساقطة من ي.

وهبك يا ابن آدم أنه قد غفر لك وستر عليك، ألم تقم هذا المقام، وتشاهد هذا المشهد، وقرع سمعك هذا النداء، وخلع قلبك هذا الروع، أقام خوفك هذا بأمنك في الدنيا؟ أتام حزنك هذا بفرحك في الدنيا؟ أقام ذُلُّك هذا بعزك في الدنيا أين يقع هذا منه؟ أين يبلغ هذا منه؟[٣٤] أيقوم تعظيم الخلق لك في الدنيا باحتقار الله لك في ذلك اليوم؟ أتقوم نعمتك في الدنيا ببؤسك في ذلك اليوم؟ فكيف إن نوقشت الحساب؟ ووجب عليك العذاب؟ وضرب بينك وبين ربك عز وجل بحجاب؟ وسد بينك وبين رحمته بباب ليس كالأبواب؟.

هناك لا دعاء يُسمع، ولا شفاعة تنفع، ولا عذاب عن البائس المرتهن يرفع، إلا أن تكون ممن سبقتْ له العناية بالإيمان عند الموت، وتداركته الرحمة به[٣٥] قبل الفوت، فإن الشفاعة ستخلصك من ذلك الاسار،[٣٦] وتستخرجك من سوء ذلك القرار، يكون منك قبل ذلك ما كان، ويدور عليك قبل ذلك ما دار.



(٣٤) اين يبلغ: ساقطة من ش.
(٣٥) به: ساقطة من ش.
(٣٦) الاسار: الأسر.

فصل

ذكر أول ما يحكم فيه يوم القيامة وأول من يدعى للخصومة

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء.[1]

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدي الرحمن للخصومة، يريد قصته ومبارزته[2] هو وصاحباه مع الثلاثة من كفار قريش، وذلك أن علي بن أبي طالب وحمزة بن عبدالمطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب رضي الله عنهم بارزوا يوم بدر من كفار قريش ثلاثة: شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، فبارز علي الوليد فقتله، وبارز حمزة شيبة فقتله، واختلف بين عبيدة وبين عتبة ضربتان، أثبت كل واحد منهما صاحبه، فكر حمزة وعلي على عتبة فأتما عليه واحتملا عبيدة، فمات من ضربته في طريق المدينة في رجوع النبي ﷺ من غزوته تلك، ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هذان خصمان اختصموا[3]﴾ والخبر بها مشهور صحيح.



---

(١) مسلم رقم ١٦٧٨ في القيامة، والبخاري ١٢ /١٦٦ في الديات وفي الرقاق، والنسائي ٧ /٨٣ في تحريم الدم، والترمذي رقم ١٣٩٦ في الديات.

(٢) ومبارزته: ليست في ش.

(٣) آية ١٩ الحج.

فصـل

الخصومة بين المسلمين، ورد المظالم والانتصاف سنها

بالحسنات والسيئات

روى من حديث عبـدالله بن أنيس رضي الله عنـه قال: سمعت ٧٥/أ رسـول الله ﷺ يقـول: يحشـر العباد - أو قال الناس - وأومأ بيده الى الشام حفاة عراة غرلاً بُهْماً، قلنا: ما بُهْماً؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُـدَ، ويسمعـه من قَرُبَ، أنـا الملك، أنـا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنـة أن يدخـل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهـل النـار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، حتى اللطمة، قلنـا: كيف وإنـما نأتي الله حفـاة عراة غرلا؟ قال: بالحسنات والسيئات، ذكره الحارث بن أبي أسامة.

وقوله غرلا: يريد به غير مختونين.

وأمـا مطـالبـة الكافر المؤمن فإنما تكون لمن ظلم من أهل الذمة والعهد، أو تكون فيما لم يأذن الله به من غيرهم، والله أعلم.

قد تقدم لك ذكر هول يوم الموقف وخطره وغرره، وإنك لا تدري إلى ما تصدر عنه، ولا إلى أي مكان تسير منه، فتفكر فيه، وأطل الفكرة، فقد وجدت مكان التفكر ذا سعة، ومجال الفزع ممتدا، وميدان الخوف عريضا، ثم تفكر فيك بينـما أنت واقف في تلك الحـال التي حُدِّثْتَ عنهـا، وتَقَـدَّم لك ذِكْـرُها، إذ وثب عليـك خصـماؤك، وهجم عليـك طالبـوك وأحـاطوا بك، ومدوا أيديهم إليك، فهذا يأخذ بيدك، وهذا بشعرك، وهذا بما أمكنه مما أذن الله تعالى له أن يأخذه منك، فواحد يقول: يارب هذا ضربني، وثان يقول: يارب هذا شتمني، وثالث يقــول: يارب هذا اغتـابني، هذا احتقـرني، هذا غصبني حقي وظلمني، هذا

قتلني، هذا عاملني فغشني ولم ينصحني، هذا رآني مظلوما وقدر على نصرتي فلم ينصرني، هذا علم أني جائع وكان قديرا على أن يطعمني فلم يطعمني.
وكيف ما كانت معاملتك مع الناس، وكيف ما كانت معاشرتك لهم.
فبينا أنت كذلك لا تدري ما تقول، ولا تدري ما تعمل ولا تدري إلى أين تفر، ولا كيف تتخلص، وقد أَبْهَتَكَ الأمر وأَدْهَشَك الحال، اذ سمعت نداء المنادي:

اليوم تجزي كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب، فلا تسأل عن انخلاع قلبك، واضطراب[1] صدرك، وقلة أنصارك، وعدم الدافعين عنك، فما شئت من ضلوع تنخرق، وأكباد تحترق، وأحشاء تصطفق، وهموم تنبعث عليك وتندفق. وقد علمت أن الأذى لا يرفع عن نفسك هناك بالدينار ولا بالدرهم، وإنما هي حسناتك التي تعبت فيها في الدنيا، إن كانت قد قُبِلَتْ منك تعطى منك لخصمك وتُدْفع لمطالبيك، وإن لم يكن لك حسنات أُخِذَ من سيئاتهم فحُمِلَتْ عليك، وأُلْقِيَتْ على كاهلك[2].
ولعلك جرّأت مسلما على معصية، أو حملته على ارتكاب خطيئة أو كنت له سببا في ترك سنة واعتقاد بدعة، فيجتمع ذلك كله لك ويناط بك ويحمل على ظهرك، قال تعالى: ﴿وليَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[3].
فانظر وتدبر كيف يكون حالك، وقد أضيفت الى سيئاتك سيئات أخر، وإلى أوزارك أوزار أخر، فاجتمعت عليك السيئات، وأحاطت بك الخطيئات، وانكسر ظهرك ٧٥/ب من ثقلها، ولم تستطع النهوض بسببها، واستغثت فلا مغيث، واستعنت فلا معين. والى الله نرغب في المعونة فالتوفيق بيده، والفضل فضله، واليه يرجع الأمر كله،[4] لا رب غيره ولا معبود سواه.

***

---

(١) في ش واضطرام.
(٢) الكاهل: أعلى الظهر مما يلي العنق.
(٣) آية ١٣ من سورة العنكبوت.
(٤) سقطت من ش.

فصل

في الموازين والكتب

أصلح بهذي الدار ميزانكا ... وليكن العدل به شانكا
فإن فيه ربحك المرتجى ... في تلكمو الدار وخسرانكا
وليس خسرانك مالاً ولا ... أهلا فيضني السقم جثمانكا
لكنها نفسك فانظر لها ... واجمع على ذلك أعوانكا
من عزمات صادقات ومن ... صبر يشد اليوم إيمانكا
وإنما أصبحت في مهلة ... فاجْمَعْ الى فَرْضِك إحسانكا
واحْمِ على قلبك نار الأسى ... واغسل بماء الدمع أجفانكا
فربما أضحك طول البكا ... وبَرَّدَتْ نارك نيرانكا

ذكر الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل إن شاء الله، قلت: فأين أطلبك؟ قال: أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عن الحوض، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن.[1] قال: حديث حسن غريب.

وذكر الترمذي أيضا من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر

---

(١) الترمذي رقم ٢٤٣٥ في صفة القيامة، وإسناده حسن جامع الأصول ٤٧٤/١٠. وهذا الحديث أسقطته نسخة ش وثابت في ي.

من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم [عليك] اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله الا الله، وأشهد ان محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء. (٢)

وذكر أبوبكر البزار من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ملك موكل بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا.

وروى عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاريض، وأما الثالثة [فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله]. (٣) ذكره أبوبكر البزار ايضا. وقال الترمذي: جدال ومعاذير، رواه من حديث الحسن عن أبي هريرة.

وذكر أبوجعفر العقيلي من حديث نعيم بن سالم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: الكتب كلها تحت العرش، فإذا كان الموقف بعث الله ريحا فتطيرها بالأيمان والشمائل، أول خط فيها: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾. (٤)

٧٦/أ وذكر ابوداود من حديث عائشة أنها قالت: ذكرتُ النار فبكيتُ، فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ قلت: ذكرتُ النار فبكيت

---

(٢) الترمذي رقم ٢٦٤١ في الايمان، وإسناده صحيح، رواه أيضا ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي وغيرهم، جامع الأصول ١٠/٤٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، جامع الأصول ١٠/٤٥٥ وقال الحافظ في الفتح: أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عن ابن مسعود موقوفا.

(٤) آية ١٢ الاسراء.

فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه، في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم [حتى يجوز](٥).

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال: يدعى أحدهم، فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق الى أصحابه، فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل مسلم مثل هذا، قال: وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد في جسده ستون ذراعا، على صورة آدم، فيلبس تاجا من نار فيراه أصحابه، فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم، فيقولون اللهم أخِّرْه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا.

وقد تقدم تقرير المؤمن بذنوبه وتعريفه بها.

وأنشدوا:

أمدد يمينك من دنياك آخذة ... كتاب فوزك إذ تحتل أخراك
فلست تدرك ما هناك من أمل ... إلا بواسطة من دار دنياك
فان تكاسلت أو قصرت في طلب ... كنت المخيَّب والمطلوب اذ ذاك
يا نائم القلب عن أمر يراد به ... نبهه ويحك إن الامر حاذاك
واشدد حزيمك واكشف ساعديك له ... فربما حُمِدتْ بالجد عقباك
كم رابح بكتاب كان املاه ... هنا بما شاء برا أوآفاك
فظل مرتقبا ادراج مكرمة ... في عدن او نازلا في النار ادراكا
وطلعة الموت تبدي عن حقيقة ما ... تملي فإياك ان تنساه إياك(٦)

(٥) جمله حتى يجوز ليست في نسخ أبي داود المطبوعة وقد زادها صاحب جامع الأصول والحديث عند أبي داود رقم ٤٧٥٥ في السنة، وهو حديث حسن انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٥.

(٦) هذه الأبيات انفردت بها نسخة «ل».

فصل

ذكـر ما يتكلم من الإنسـان ، وما جاء في شهادة جوارح ابن آدم عليه يوم القيامة

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة من حديث معاوية بن حيدة القشيري أن النبي ﷺ قال : تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام ، فأول ما يتكلم من الانسان فخذه وكفه .

وذكـر مسلم من حديث أبي هريـرة قال : قالـوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيـامـة؟ قال : هل تضـارون[1] في رؤيـة الشمس في الظهـيرة؟ ليست في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدرليس في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤيـة أحـدهما ، قال : فيلقى العبـد فيقـول : أي فُلْ[2] ألم أكـرمـك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وترتع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أفظننت أنـك ملاقي ؟ فيقـول : لا فيقـول : إني أنسـاك كما نسيتني ، ثم يلقى الثـاني ، فيقـول : أي فُلْ ، ألم أكـرمـك وأسـودك وأزوجـك وأسخـر لك الخيل والإبـل ، وأذرك ترأس وتـرتـع ؟ فيقـول : بلى يارب ، فيقـول : أفظننت أنـك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثـل ذلـك ، فيقـول : يارب آمنت بك وبكتـابـك وبـرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ها هنا إذاً ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه

---

(١) تضـارون بتشـديـد الـراء وتخفيفهـا ومعناها على الأول هل تضارون غيركم في حالة الرؤية أو مخالفة في الرؤية وغيرها لخفائه . ومعناها على التخفيف . هل يلحقكم في رؤيته ضير، وهو الضرر.

(٢) أي فُل : معناها يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس .

ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه .[٣]

١٧٦ب وذكر مسلم من حديث أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعدا لكن وسحقافعنكن كنت أناضل[٤] .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز الصراط ، رجل يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه ، تزلّ يده مرة فتصيبها النار ، وتزلّ رجله مرة فتصيبها النار ، قال : فتقول له الملائكة : أرأيت إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت سويا ، أتخبرنا بكل عمل عملته؟ فيقول : أي وعزته لا أكتمكم من عملي شيئا ، قال : فيقولون له : قم فامش سويا ،[٥] فيقوم فيمشي حتى يجاوز الصراط ، فيقولون له : أخبرنا بأعمالك التي عملت ، فيقول في نفسه : إن أخبرتهم بما عملت ردوني إلى مكاني ، فيقول : لا وعزته ما أذنبت ذنبا قط ، فيقولون له : إن لنا عليك شهودا ، قال : فيلتفت يمينا وشمالا هل يرى من الآدميين أحدا ممن كان يشهد عليه في الدنيا ، فلا يرى ، فيقول : هاتوا بيِّنتكم ، فيختم الله على فيه ، وتنطق يداه ورجلاه وفخذاه بعمله ، فيقول : أي وعزتك لقد عملتها وإن عندي للعظائم المضمرات ، قال : فيقول الله تعالى له : اذهب فقد غفرتها لك .

* * *

(٣) الحديث رقم ١٩٣٢ مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني .

(٤) الحديث رقم ١٩٣٣ نفس المرجع .

(٥) سويا : مستويا .

فصل
ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة من حديث عائشة قالت: قلت يارسول الله، أتذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ قال: أما عند ثلاث فلا، عند الكتاب، وعند الميزان، وعند الصراط. [1]

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ يجمع الله الناس، فيقوم المؤمنون، حتى تزلف[2] لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا الى ابني ابراهيم خليل الله، قال: فيقول ابراهيم عليه السلام: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراء وراء، اعمدوا الى موسى الذي كلمه الله تكليما، فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا الى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، قال: فيأتون محمدا ﷺ فيقوم ويؤذن له، وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا ٧٧/أ فيمر اولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا الى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال[3] تجري بهم أعمالهم، ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول: رب سَلِّمْ سَلِّمْ حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفا [4].

---

(١) رواه أيضا أبو داود رقم ٤٧٥٥ بألفاظ فيها بعض اختلاف فذكر الحوض بدل الكتاب. انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٥.

(٢) تزلف: تقرب وتدني.

(٣) شد الرجال: عدْوهم.

(٤) مسلم رقم ١٩٥ في الايمان. جامع الأصول ١٠/٤٨٦.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ وذكر الصراط ومرور الناس عليه، قال: فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر حديث الشفاعة، قال: ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ الا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازي حتى يُنَجَّى، وذكر الحديث.

قد سمعت رحمك الله بهذا الطريق الحرج، والمسلك الشاق، والقنطرة المضطربة التي لا تثبت(٥) عليها الأقدام، ولا تجوزها الأوهام، إلا قدم ثبتت على التقوى، ووهم جاز في الملكوت الأعلى.

ولعلك تظن ان هذ الطريق من طرق الدنيا الصعبة، وسبلها الوعرة، بل هو أَحَدُّ من السيف وأدق من الشعرة، فما ظنك بك وقد حُمِلْتَ عليه، وكُلِّفْتَ المرور به، ومهواه جهنم تحتك، وقد ملأ زفيرها أذنك، ومنظرها الهائل قلبك وعينك، وأردت المرور فلم تقدر، والنهوض فلم تستطع، واضطرب بك اضطرابا، والتهب ذلك السعير تحتك(٦) التهابا، ولم تجد الى النجاة سبيلا، ولا الى الخلاص بابا، ولا ينهض بك الا سعيك الذي سعيت، ولا جرى بك الا عملك الذي عملت، ومركوبك الذي في الدنيا ركبت، فلتتخير الآن أي المراكب تركبها، وأي الأبواب تدخلها، وأي الطرق تأخذ فيها وتسلكها. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٧٧/ب وأنشدوا:

اجنب جيادا من التقوى مضمرة	للسبق يوم يفوز الناس بالسبق
تمر مر الرياح الهوج عاصفة	أو لمحة البرق اذ يجتاز بالأفق
واركض الى الغاية القصوى وخل لها	عنان صدق رمي في فتية صدق

---

(٥) تثبت: في ي تسلك.

(٦) تحتك: ليست في ي.

فإن خلفك أعمالا مثبطة[٧] ولست تنهض الا ويك بالعنق[٨]
كم حل عزمك من دنيا معرجة[٩] بقصدك اليوم عن مسلوكة الطرق[١٠]
وفاز من فاز لا حزن ولا فَرَقٌ وخلّفوك حليف الحزن والفَرَق
ياغافلا والمنايا منه في ذكر وضاحكا والردى منه على حنق
قطعْتَ عمرك في سهو وفي سِنة ومن أمامك ليل دائم الأرق
ورب رأي تراه اليوم في سفه عقلا تراه غدا في غاية الخرق

* * *

(٧) مثبطة: معوقة.
(٨) العنق: بفتح العين والنون: المشي السريع.
(٩) معرجة: مائلة.
(١٠) الفرق: الخوف.

فصل

ما جاء في أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون

ذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري[1] قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول له أخرِج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يارسول الله، أينّا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا، ومنكم رجل، قال: ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة، فحمدنا الله عز وجل، وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر[2] أهل الجنة، وإن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار.

وفي بعض ألفاظ هذا الحديث من الزيادة: اللهم قد بلغت.

وفي بعض طرقه من غير كتاب مسلم: وذكر بعث النار، فقال رجل: ومن الناجي بعد ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير.[3]

---

(١) هكذا في النسخ الخطية. في جامع الأصول ٩/ ١٨٤: رواه الترمذي عن عمران بن حصين.

(٢) شطر: نصف.

(٣) الترمذي: رقم ٣١٦٨ في تفسير سورة الحج. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. جامع الأصول ٩/ ١٨٤.
والرقمة: بقعة ذات لون مخالف.

فصل

ما جاء في أهل الفترة

ذكـر أبـو بكـر البـزار في مسنده عن الأسود بن سريع عن النبي ﷺ قال: يعرض على الله تبارك وتعالى الأصم الذي لا يسمع شيئا والأحمق والهرم ورجل مات في الفـترة، فيقـول الأصم: رب جاء الاسـلام ومـا أسمـع شيئـا، ويقول الأحمق: رب جاء الاسلام وما أعقل شيئا، ويقول الذي مات في الفترة: رب ما أتـاني لك من رسـول. قال أبـو بكـر: وذهب عني ما قال الـرابـع، قال: فيأخذ مواثيقهم ليطيعوه، فيرسل اليهم تبارك وتعالى ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما.

قد جاء هذا الحديث وهو صحيح فيما أعلم، والآخرة ليست دار تكليف ولا عمل، ولكن الله يختص من شاء بما شاء، ويكلف من شاء بما شاء، وحيث شاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

* * *

فصل
في سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه

حدِّثْ عن الجود وعن فيضه ... فالأمر مبني على الجود
واذكر لنا بعض أعاجيبه ... فلست تحصيه بتعديد
هيهات ماجودُ مليكِ الورى ... وخالقِ الخلقِ بمحدود
حَدِّثْ عن البحر وما البحر ... في بعضْ أياديه بموجود

٧٨/أ ومن الذي أفاض هذه البركات؟ وأتى بهذه الخيرات، ومنّ بهذه النعم التي ملأت ما بين الأرضين والسماوات، ومن ذا الذي يستخرج من ظلمات الكفر، ويستنقذ من غمرات الجهل، ويغفر الذنوب ويستر العيوب، وينفس عن المكروب، ويجيب المضطر اذا دعاه، ولا يبالي أطاعه عبده أم عصاه، من هوإلا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، رب العالمين إله الأولين والآخرين، لا اله الله هو الملك الحق المبين.

ذكر مسلم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة أخبره قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

ولمسلم في لفظ آخر: كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة. ذكره من حديث سلمان الفارسي. [1]

وذكر مسلم أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لما خلق الله

---

(١) مسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة. والبخاري ١٠/٣٦٢ في الأدب، وفي الرقاق، والترمذي رقم ٣٥٣٥ و٣٥٣٦ في الدعوات. جامع الأصول ٤/٥١٩.

الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي.(٢)

وذكر البزار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ ما خلق الله تعالى من شيء إلا وقد خلق ما يغلبه، وخلق رحمته تغلب غضبه.

ومن مسند البزار ايضا عن عمر بن الخطاب قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون اذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه، حتى سقط في أيدي الذين أخذوا الفرخ، فقال رسول الله ﷺ ألا تعجبون لهذا الطير؟ أخذ فرخه فأقبل حتى سقط في أيديهم، والله لله أرحم بخلقه من هذا الطائر بفرخه.

لا نعلم له طريقا غير هذا الطريق.

وذكر مسلم بن الحجاج عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله عز وجل، فيلتفت أحدهم، فيقول: أي رب، إذ أخرجتني منها فلا تعدني فيها، قال: فينجيه الله تعالى منها.(٣)

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلين ممن يدخل النار يشتد صياحهما فيها، فيقول الرب عز وجل: أخرجوهما، فلما خرجا قال لهما: لأي شيء اشتد صياحكما؟ فيقولان: فعلنا ذلك لترحمنا، فيقول: إن رحمتي إياكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما في النار، فينطلقان فيلقي أحدهما نفسه في النار، فيجعلها الله عليه بردا وسلاما، ويقوم الآخر فلا يلقي نفسه، فيقول له الرب تبارك وتعالى: ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك نفسه؟ فيقول: رب، إني لأرجو أن لا تعيدني فيها بعد أن أخرجتني منها، فيقول الرب سبحانه: لك رجاؤك فيدخلان الجنة معا برحمة الله.

وهذا الحديث ذكره الترمذي وغيره.(٤)

---

(٢) مسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة. والبخاري ١٣/٣٢٥ في التوحيد وفي بدء الخلق. والترمذي رقم ٣٥٣٧ في الدعوات. جامع الأصول ٤/٥١٨.

(٣) مسلم رقم ١٩٢ في الايمان. جامع الأصول ١٠/٥٥٢.

(٤) الترمذي رقم ٢٦٠٢ في صفة جهنم، وإسناده ضعيف. انظر جامع الأصول ١٠/٥٥٣.

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم.(٥)

٧٨/ب ويروى عن ابراهيم بن أدهم قال: طُفْت ليلة بالبيت الحرام، وكانت ليلة مطيرة شديدة الظلمة، وقد خلا الطواف وطابت نفسي فوقفت عند الملتـزم أدعـو، فقلت: اللهم اعصمني حتى لا أعصيـك، فهتف بي هاتف يا ابـراهيم أنت تسألـه العصمة، وكل عباده يسأله العصمة، فإذا عصمهم فعلى من يتفضل؟ ولمن يغفر؟.

* * *

(٥) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٢٢ وفي نسخ الأصل أنه مروي عن أبي أيوب الأنصاري وهو سهو من المؤلف أو من النساخ، أنظر جامع الأصول ٣٨/٨.

فصل
كثرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

ذكر مسلم بن الحجاج عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعا.(١)

وذكر أبو بكر البزار من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يأتي معي من أمتي يوم القيامة مثل الليل والسيل، فيحطم الناس حطمة فتقول الملائكة: جاء مع محمد أكثر مما جاء مع سائر الأنبياء.

وذكر مسلم بن الحجاج عن عبدالله بن مسعود قال: خطبنا رسول الله ﷺ فأسند ظهره الى قبة أدم، فقال: ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، اللهم هل بلغت، اللهم اشهد، أتحبون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم يارسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم يارسول الله. قال: فإني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر.(٢)

وذكر الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم.(٣)

* * *

---

(١) مسلم رقم ٢٠٠ في الإيمان وله تكملة هي: وأنا أكثر الناس تبعا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة، انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٥.

(٢) مسلم رقم ٢٢١ في الايمان. والبخاري ١١/٣٣٥ و٣٣٦ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٢٥٠ في صفة الجنة، جامع الأصول ٩/١٨٧.

(٣) الترمذي رقم ٢٥٤٩ في صفة الجنة. جامع الأصول ٩/١٩٢.

فصل
ذكر كم يدخل الجنة بغير حساب

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر الى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر الى الأفق الآخر، فاذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله ان يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله ان يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة.[1]

وذكر أبو بكر البزار عن الحسن والعلاء بن زياد عن عمران ابن حصين عن عبدالله بن مسعود، قال: تحدثنا عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، حتى أكثرنا الحديث، ثم تراجعنا الى البيوت، فلما أصبحنا غدونا الى النبي ﷺ فقال ﷺ:

---

(١) مسلم رقم ٢٢٠ في الايمان، والبخاري ١٠/١٧٩ في الطب، والترمذي رقم ٢٤٤٨ في صفة القيامة. وانكر ابن تيمية لفظه يرقون في الحديث انظر جامع الأصول ٥٧٢/٧.

عرضت عليّ الأنبياء الليلة بأتباعها من أممها ٧٩/أ، فجعل النبي يمر معه الثلاثة من قومه، والنبي ومعه العصابة من قومه، والنبي ومعه النفر من قومه، والنبي ليس معه من قومه احد، حتى أتى عليّ موسى بن عمران في كوكبة من بني اسرائيل، فلما رأيتهم أعجبوني، فقلت: يارب من هؤلاء؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل، قلت: رب وأين أمتي؟ قيل: انظر عن يمينك، فاذا الضراب ضراب مكة قد سد بوجوه الرجال، فقلت: يارب من هؤلاء؟ قيل لي: أمتك، فقيل لي: هل رضيت؟ فقلت: رب رضيت، رب رضيت، رب رضيت، ثم قيل لي: انظر عن يسارك، فاذا الأفق قد سد بوجوه الرجال، فقلت: رب من هؤلاء؟ قيل: أمتك، قال: فقيل لي: هل رضيت، فقلت: يارب رضيت، ثم قيل لي: ان مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، فأنشأ عكاشة بن محصن رجل من بني اسد بن خزيمة، فقال: يارسول الله، ادع الله ان يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم، ثم أتى رجل آخر، فقال: يانبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة.

قال رسول الله ﷺ فِدىً لكم أبي وأمي، إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا، وإن عجزتم او قصرتم فكونوا من أهل الضراب، فإن عجزتم أو قصرتم فكونوا من أهل الأفق، فإني رأيت ثَم أناسا يتهوشون كثيرا، ثم قال نبي الله ﷺ إني لأرجو أن يكون من تبعني من أمتي ربع أهل الجنة، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو ان تكونوا الثلث، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو ان تكونوا الشطر، فكبرنا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ فتراجع المسلمون مَن هؤلاء لا نراهم إلا الذين وُلدوا في الاسلام ولم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه، قال: فنما حديثهم الى النبي ﷺ، قال: ليس كذا ولكن هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

وذكر مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفا، تضيىء وجوههم إضاءة القمر ليلة

البدر، [٢] وذكر الحديث.

كذا في هذا الحديث: يدخل من أمتي زمرة، ولم يقل الجنة، وقال: الجنة في طريق آخر. [٣]

وقال في حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ: متماسكون آخذٌ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر. [٤]

وذكر أبو داود الطيالسي من حديث رفاعة بن عرابة قال: كنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بقديد جعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم، فأذن لهم، وحمد الله، ثم قال: ما بال رجال شق الشجرة التي تلي رسول الله ﷺ أبغض اليهم من الشق الآخر، فلم ير عند ذلك من القوم إلا باكيا، فقال رجل: يارسول الله، إن الذي يستأذنك بعد هذا لسفيه، ويروى لشقي، قال: فحمد الله وقال خيرا، وقال: أشهدُ عند الله أن لا يموت عبد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٧٩/ب صدقا من قلبه، ثم يسدد، إلا سلك في الجنة، ثم قال: وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوّؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن الجنة.

وذكر الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربي أن يُدخِل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي. [٥]

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث حذيفة بن اليمان، قال: غاب عنا رسول الله ﷺ يوما، فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت، فلما رفع رأسه قال: إن ربي عز وجل

---

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وله تتمة. انظر جامع الأصول ٩/١٩٠.

(٣) نفس المرجع.

(٤) رواه البخاري ١١/٣٥٩ في الرقاق. جامع الأصول ٩/١٨٩.

(٥) الترمذي رقم ٢٤٣٩ في صفة القيامة، وإسناده حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه والطبراني. جامع الأصول ٩/١٩٠.

استشـارني في أمتي ماذا أفعـل بهم؟ قلت: ما شئت يارب هم خلقـك وعبادك، فاستشـارني الثـانية، فقلت له كذلك، ثم استشارني الثالثة، فقلت له كذلك، فقـال: إني لم أخـزك في أمتـك، وبشّرني أن أول من يدخل الجنة زمرة من أمتي، سبعـون ألفـا، مع كل ألف سبعـون ألفـا، ليس عليهم حساب ثم أرسل الـيّ ربي: ادْعُ تُجَبْ، وسـل تعطـه، فقلت لرسوله: أومُعطيّ ربي عز وجل سؤلي؟ قال: ما أرسل اليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي من غير فخر أنه غفر لي ما تقـدم ومـا تأخـر، وشـرح صدري، وأعطـاني ان لا تجوع أمتي ولا تُغلَب، وأنه أعطـاني الكـوثـر نهرا في الجنـة يسيـل في حوضي، وانـه أعطـاني العـزة والنصـر والرعب، وأنه أعطاني بأني أول الأنبياء دخولا الجنة، وطيّب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيرا مما شدد على من كان قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج، فلم أجد شكرا إلا هذه السجدة.

قولــه عليــه السـلام: أعطـاني أن لا تجوع أمتي ولا تُغْلَب: أي لا تجوع كلهـا، ولا تُغْلَب كلهـا، إنـما هو إن جاعت في أرض شبعت في أخـرى، وإن غُلِبت في موضع غَلَبت في موضع آخر.

وذكر أبو بكر البزار في مسنده من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يدخـل الجـنـة من أمتي سبعـون ألفا، مع كل واحد من السبعين أُلفا سبعون أُلفا.

وعن عبـدالـرحمن بن أبي بكـر الصديق رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: ان ربي عز وجل أعطاني سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، فقـال عمـر بن الخطاب: فهلا استزدته؟ فقال: [إستزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا، قال: فهلا استزدته؟][6] فقال: أعطاني هكذا وبسط باعه، فقال: هذا من الله تعالى لا يُدرَي ما عدده.

* * *

---

(٦) ما بين المربعين سقط من ش.

الباب التاسع عشر
الشفاعة الثانية في الخروج من النار، وذِكْر خروج من يدخلها من الموحِّدين

٨٠/أ اعلم رحمك الله أنه قد وجب في الحكم الأول والقضية السابقة، دخول النار على طوائف من المؤمنين، ممن أوبقتهم سيئاتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم، فلم تمحها عنهم عقوبات الدنيا ولا عذاب القبر ولا أهوال يوم الحشر، وكل إنسان منهم تنال منه النار بمقدار عمله، وتأخذ منه إلى الحد الذي أمرت به.

ثم إن الله تعالى بفضله ورحمته يقبل فيهم شفاعة الشافعين ورغبة الراغبين، وسؤال السائلين من الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، والعلماء العاملين، وكل من له عند الله جاه ومنزلة قد بلغها بعمله، ونالها بصالح سعيه، فإن له شفاعة في أهله وبنيه، وأقربائه وأوليائه، بل ربما في الرجل كان يعرفه في الدنيا ولم يكن بينهما صحبة ولا كثير معرفة.

واعلم ان الجاه الذي تكون به الشفاعة، ويقبل به السؤال، وتقضى به الحوائج، وتحصل به المنزلة عند الله تعالى، إنما يكون اكتسابه في الدنيا، وتحصيله هنا بالعمل الصالح، على الحد الذي حد له فيه، والطريق الذي أمر أن يسلكه إليه.

ومن ذلك العمل التواضعُ للمسلمين ولين الجناح لهم، واحتمال الأذى منهم، والصبر عليهم، وإسقاط المنزلة عندهم، وطلبها عند خالقهم جل جلاله.

وقد تقدم حديث مسلم بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا.

وذكر ابو عيسى الترمذي من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله

ﷺ: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.[1]

ويروى عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: نعم الرجل أنا لشِرار أمتي، قالوا: فكيف أنت لخيارها؟ قال: أما خيارها فيدخلون الجنة بأعمالهم، وأما شرار أمتي فيدخلون الجنة بشفاعتي.

ذكره أبو الحسن الدارقطني.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ كان يحرسه أصحابه، قال: فقمت ذات ليلة فلم أره في منامه، فأخذني ما حدث وما قدم، فقمت أنظر، فإذا معاذ بن جبل قد لقي مثل الذي لقيت، فسمعت صوتا مثل هزيز الرحاوين تجررهما، فوقفا على مكانيهما، فجاء رسول الله ﷺ من قبل البيوت، فقال: هل تدريان أين كنت أو فيم كنت؟ قالا: أين كنت؟ قال: أتاني آت من ربي، يخيرني بين أن يدخل شطر أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فقالا: يارسول الله، ادع الله أن يجعلنا في شفاعتك، قال: أنتم في شفاعتي، فدعا لهما، فأقبل وأقبلا معه، فكلما لقيه رجل سأله، حتى استقبله معظم الناس، فأخبرهم، فقالوا: يارسول الله، ادع الله ان يجعلنا في شفاعتك، قال: أنتم في شفاعتي، ومن لقي الله لا يشرك به شيئا فهو في شفاعتي.

وذكر الترمذي بإسناده عن الطفيل بن أُبيّ عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم من غير فخر.

٨٠/ب وذكر مسلم بن الحجاج من حديث يزيد الفقير، قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد، نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، فمررنا بالمدينة، فإذا جابر بن عبدالله يحدث الناس جالسا إلى سارية عن رسول الله ﷺ، فاذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت: ياصاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: ﴿إنك من تدخل النار

---

(١) الترمذي رقم ٢٤٣٧ في صفة القيامة، باب ما جاء في الشفاعة، وأبوداود رقم ٤٧٣٩ في السنة، باب في الشفاعة، وابن ماجه رقم ٤٣١٠ في الزهد، باب ذكر الشفاعة، وهو حديث صحيح. جامع الأصول ١٠/٤٧٦.

فقــد أخـزيتـه﴾ و﴿كلما أرادوا أن يخرجـوا منهـا أ عيـدوا فيهـا﴾ فما هذا الـذي تحدثـون؟ قال: أتقـرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ الـذي بعثـه الله عز وجـل؟ قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج، قال: ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذلك إلا أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد ان يكونوا فيها، قال: فيخــرجــون كأنهم عيـدان السـماسم، فيـدخلون نهرا من أنهـار الجنـة، فيخـرجون كأنهم القراطيس،[2] فرجعنا، فقلنا: ويحكم! أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟! فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد. أو كما قال.

أراد بالرأى الذي شغفه من رأي الخوارج، تكذيبهم بالشفاعة وقولهم إنه من دخل النار من المذنبين فلن يخرج منها.

وذكر مسلم أيضا عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلوا الجنة.[3]

وذكر البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، ويسمون الجهنميين.[4]

وعن أنس بن مالـك عن النبي ﷺ قال: ليصيبن أقـوامـا سفـع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم، فيقال لهم: الجهنميون.[5]

وذكر أبو داود الطيالسي من حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: ليخرجن أقوام من النار منتنون قد امتحشوا، فيدخلون الجنة برحمة الله وشفاعة الشافعين، فيسمون الجهنميين.

---

(٢) القراطيس: جمع قرطاس وهو الصحيفة البيضاء.

(٣) مسلم رقم في الايمان. جامع الأصول ١٠/٥٤٩.

(٤) البخـاري ١١/٣٨٤ في الـرقـاق. وأبو داود رقم ٢٧٤٠ في السنة باب في الشفاعة، والترمذي رقم ٢٦٠٣ في صفة جهنم. جامع الأصولا ١٠/٥٥٧.

(٥) البخاري ١١/٣٧١ في الرقاق وفي التوحيد. جامع الأصول ١٠/٥٥١.

وذكـر أبـو بكـر البـزار في مسنـده عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين يريد الله إخـراجهم فتميتهم النـار ثم يخرجـون منهـا، فيلقون على نهر الحياة، فيرش عليهم من مائهـا، فينبتـون كما تنبت الحبـة في حميـل السيـل، ويـدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين، فيدعون الله تعالى، فيذهب ذلك الاسم عنهم.

وذكـر مسلم عن أبي سعيـد الخـدري أن رسول الله ﷺ قال: يدخل الله أهـل الجنـة الجنـة، يدخـل من يشـاء برحمته، ويدخل أهل النار النار ٨١/أ ثم يقـول: انظـروا من وجـدتم في قلبـه مثقـال حبـة خردل من إيـمان فأخـرجـوه، فيخـرجـون منها حمما، قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية؟(٦).

وذكـر الـترمـذي عن جابـر قال: قال رسول الله ﷺ يعذب ناس من أهل التـوحيـد في النـار، حتى يكـونـوا فيهـا حمما، ثم تدركهم الـرحمة، فيخرجون، ويطـرحـون على أبـواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة.(٧)

وفي مسنـد أبي بكـر بن أبي شيبـة عن عمـرو بن ميمـون أن ابن مسعود حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: يكون قوم في النار ما شاء الله، ثم يرحمهم الله، فيخـرجهم، فيكـونـون في أدنى الجنـة، فيغتسلون في نهر الحياة، يسميهم أهل الجنـة الجهنميـين، لو أضاف أحدهم أهل الأرض لأطعمهم وسقاهم، وأحسبه قال: وزودهم، لا ينقصه ذلك شيئا.

وذكـر أبـو بكر الشافعي بإسناده من حديث أبي أمامة الباهلي، عن النبي ﷺ قال: إن من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة أكثر من ربيعة ومضر.

---

(٦) مسلم رقم ١٨٤ في الايـمان، باب إثبـات الشفـاعة. والبخاري ١/٦٨ في الايمان انظر جامع الأصول ١٠/٥٥٠.

(٧) الترمذي رقم ٢٦٠٠ في صفة جهنم، باب رقم ١٠ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو كما قال. جامع الأصول ١٠/٥٤٨.

وذكر البزار عن ثابت أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن من أمتي لمن يشفع في الفئام من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل وأهل بيته،[8] [حتى يدخلوا الجنة].

وذكر الطحاوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الجنة صفوفا، وأهل النار صفوفا، فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة، فيقول له: يافلان، ألا تذكر يوم اصطنعت معروفا إليك في الدنيا؟ فيقول: اللهم إن هذا اصطنع إلي معروفا في الدنيا، قال: فيقال له: خذ بيده فأدخله الجنة برحمة الله عز وجل، قال أنس: أشهد أني سمعت رسولَ الله ﷺ يقوله.

وذكر الطحاوي أيضا من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر حديثا طويلا من حديث يوم القيامة، ثم ذكر فيه شفاعة الشهداء، وقال ثم يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين، انظروا في النار هل فيها من أحد عمل خيرا قط، [فيجدون في النار رجلا، فيقال له: هل عملت خيرا قط؟][9] فيقول: لا، غير أني قد أمرت ولدي إذا أنا مِتُّ فاحرقوني بالنار ثم اطحنوني، حتى إذا كنت مثل الكحل، فاذهبوا بي الى البحر فاذروني في الريح، فوالله لا يقدر عليّ رب العالمين أبدا فيعاقبني إذا عاقبت نفسي في الدنيا عليه، قال الله تعالى: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخافتك، فيقال: انظر ملكا أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله.

وذكر أبو بكر البزار[10] من حديث أبي بكرة[11] الثقفي عن النبي ﷺ

---

(٨) رواه الترمذي رقم ٢٤٤٢ في صفة القيامة. وفيه: ومنهم من يشفع للواحد بدل: للرجل وأهل بيته، وليس في نسخ الأصل: حتى يدخلوا الجنة.
انظر جامع الأصول ٩ / ٢٠٠ ومعنى الفئام: الجماعة من الناس.

(٩) مابين المربعين سقط من ش.

(١٠) في ي: مسلم. ولم أجده في صحيح مسلم مما يدل على أن الصواب ما ذكرته نسخة ش من نسبة الحديث إلى أبي بكر البزار.

(١١) أبو بكره: اسمه نفيع بن الحارث، وقيل ابن مسروح، صحابي له ترجمة في الاصابة رقم ٨٧٩٣.

قال: يحمل الناس يوم القيامة على الصراط فتتقادع بهم[١٢] جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار، ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء والصالحين، فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان.

وذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن ناسا في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم فهل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحْواً ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، يارسول الله، قال: فما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغُبَّر أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا كنا نعبد عزيزا ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يارب فاسقنا، فيشار اليهم: ألا تردون؟ فيحشرون الى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار. ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة[١٣] ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار اليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً ـ مرتين أو ثلاثا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى أحد ممن كان يسجد

(١٢) تتقادع بهم: أي تسقطعم فيها بعضهم فوق بعض. اللسان ـ قدع. وذكر الحديث.

(١٣) صاحبة: زوجة.

لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود، ولا يبقى احد ممن كان يسجد اتقاء ورياء، إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد ان يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم ٨٢/أ وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، قيل: يارسول الله، وما الجسر؟ قال: دحض مزلة،[١٤] فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة[١٥] تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى اذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده، ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لاخوانهم الذين في النار فيقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار الى نصف ساقه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمْرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال [دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا، ثم يقول ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا احدا]،[١٦] ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرا.

وكان ابو سعيد الخدري يقول: ان لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تَكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما».[١٧]

---

(١٤) دحض مزلة: زلقة تزل فيها الأقدام.

(١٥) حسكة: نبتة شائكة.

(١٦) ما بين المربعين انفردت به نسخة «ل» وأوده صحيح مسلم.

(١٧) آية ٤٠ من سورة النساء.

فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، الا ترونها كيف تكون الى الشجر او الحجر؟ فما يكون الى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها الى الظل يكون أبيض؟ فقالوا: يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا مالم تعط احدا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم[18] أبدا.[19]

قال مسلم: قال أبو سعيد الخدري: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحَدُّ من السيف.

---

(١٨) رواه مسلم رقم ١٨٣ في الايمان. انظر جامع الأصول ٤٤٦/١٠.

(١٩) شرح الغريب في هذا الحديث:
غُبّر: جمع غابر، وهو الباقي، وغُبَّرات جمع الجمع.
الحطم: الكسر والدق، أي ينكسر بعضها على بعض.
اتقاء: فعلت ذلك اتقاء أي: خوفا.
طبقة: صحيفة واحدة.
دحض: الدحض: الزلق، وهو الماء والطين.
مزلة: موضع الزلل وان لا تثبت القدم على شيء فيسقط صاحبها.
خطاطيف: الخطاطيف كالكلاليب المعقفة المعوجة.
أجاويد الخيل: الجواد: الفرس الرائع للذكر والأنثى، والجمع جياد وأجاويد وكأن أجاويد جمع الجمع.
مخدوش: مجروح.
مكدوس: من الكدس، وهو المجتمع من الطعام، فكأن الانسان تجمع يداه ورجلاه، ويشد، ويلقى في النار.
حمما: جمع حممه، وهي الفحمة.

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي هريرة، أن ناسا قالوا يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يا رسول الله قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من [كان] يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، وذكر الحديث.

قال: ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون انا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ الا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟ قوالوا: نعم يارسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدرُ عِظَمِها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازى حتى ينجى، حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد ان يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد ان يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم، إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا،(٢٠) فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أُهل الجنة، فيقول: أي رب اصرف وجهي عن النار فانه قد قشبني ريحها، وأُحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت ان فعلت ذلك بك ان تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله ان يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني الى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت

---

(٢٠) امتحشوا: احترقوا.

عهودك ومواثيقك ان لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: أي رب، ويدعو الله، حتى يقول له: فهل عسيت ان أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه الى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: اي رب ادخلني الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيْتَ عهودك ومواثيقك! أن لا تسأل غير ما اعطيت؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: اي رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك ٨٣/أ الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله تعالى منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى، حتى ان الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه.(٢١)

قال عطاء بن يزيد وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئا، حتى اذا حدث أبو هريرة ان الله تعالى قال لذلك الرجل: «ومثله معه»، قال أبو سعيد: وعشرة أمثالهمعه يا أبا هريرة، قال ابو هريرة: ما حفظت الا قوله: ذلك لك ومثله معه، قال أبو سعيد: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل [النار] دخولا الجنة.(٢٢)

وذكر عن عبدالله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: آخر من يدخل

---

(٢١) أخرجه البخاري أيضا: انظر الأصول ١٠/ ٤٤٠. وتأتي رواية مسلم عن عطاء بن يزيد كما سأشير في التعليق التالي إن شاء الله.

(٢٢) رواه مسلم. انظر مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني رقم ٨٦. والبخاري ١١/ ٣٨٧ انظر جامع الأصول ١٠/ ٤٤٠.

شرح الغريب:

السَّعْدان: نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل جانب.

امتحشوا: احترقوا. قشبني: سمني وآذاني واهلكني.

ذكاؤها: لهبها، واشتعالها وشدة وهجها.

انفهقت: انفتحت واتسعت.

الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت اليها، وقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، ادنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله عزوجل: يا ابن آدم، لعلي إن اعطيتكها سألتني غيرها، [فيقول لا يارب، ويعاهده ان لا يسأله غيرها](٢٣) وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، ادنني من هذه فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أُدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى يارب، هذه لا أسألك غيرها، وربه عزوجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فاذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني(٢٤) منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يارب، أتستهزىء بي وأنت رب العالمين، فضحك ابن مسعود وقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزىء بي وأنت رب العالمين؟. فيقول: إني لا أستهزىء بك، ولكني على كل شيء قدير. (٢٥)

---

(٢٣) سقط من ش.

(٢٤) ما يصيرني منك: أي ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك، وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه الشاة المصرّاة، وهي التي جمع لبنها، وقطع حلبه.

(٢٥) مسلم رقم ١٨٧ في الايمان، باب آخر أهل النار خروجا. جامع الأصول ١٠/٥٥٦.

وعن أبي سعيد الخدري ٨٣/ب عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال فيه: ويـذكّـره الله تعـالى سل كذا وكـذا، فإذا انقطعت به الأماني، قال الله: هو لك، وعشـرة أمثـالـه، قال: ثم يدخـل بيتـه، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين، فتقـولان: الحمـد لله الـذي أحيـاك لنا، وأحيانا لك، قال: فيقول: ما أ عطي أحد مثل ما أ عطيت.(٢٦)

وذكر مسلم من حديث معبد بن هلال العنزي، قال: انطلقنا الى أنس ابن مالك، وتشفعنا بثابت، فانتهينا اليه وهو يصلي الضحى فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتا معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إن اخوانك من أهل البصرة يسألونك ان تحدثهم حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: إذا كان يوم الـقـيـامـة ماج النـاس بعضهم الى بعض، فيأتـون آدم، فيقـولـون: اشفـع لذريتـك، فيقـول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليـل الله، فيأتـون ابـراهيم، فيقـول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيؤتى موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقـول: أنـا لها، ثم أنطلقُ فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقـوم بين يديـه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله، ثم أخرّله ساجدا، فيقول: يامحمـد، ارفـع رأسـك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يارب أمتي أمتي فيقول: انطلق، من كان في قلبه مثقال حبة من برة او شعيرة من إيـمان فأخـرجه منها، فانطلق فأفعل، ثم أرجعُ الى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أُخرّله ساجدا، فيقال لي: يامحمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه واشفـع تشفـع، فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال لي: انطَلِقْ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلقُ فأفعلَ، ثم أعود الى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدا، فيقال لي يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمـع لك، وسـل تعطـه، واشفـع تشفـع، فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال:

---

(٢٦) مسلم رقم ١٨٨ في الايمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة. نفس المرجع.

انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلقُ فأفعل.

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنا بظهر الجبّان، (٢٧) قلنا، لو مِلْنا الى الحسن فسلمنا عليه وهو مُسْتخفٍ في دار أبي خليفة؟ قال: فدخلنا عليه فسلمنا عليه، فقلنا: يا أبا سعيد، جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فلم نسمع بمثل حديث حَدّثَناه في الشفاعة، قال: هيه، فحدثْناه الحديث، فقال: هيه، قلنا: ما زادنا قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة ٨٤/أ وهو يومئذ جميع، (٢٨) ولقد ترك شيئا ما أدري: أنسي الشيخ، أم كره أن يحدثكم فتتكلوا؟ قلنا له: حدثْنا، فضحك وقال: خُلِقَ الانسان من عَجَل، وما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه، قال: ثم أرجعُ إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ ساجدا، فيقال لي: يامحمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يارب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: فليس ذلك لك، أو قال ليس ذلك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله، قال: فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك ـ أراه قال: قبل عشرين سنة ـ وهو يومئذ جميع. (٢٩)

* * *

(٢٧) الجبّان: والجبانة: المقابر.

(٢٨) جميع: رجل جميع: أي مجتمع الخلق قوي، لم يهرم ولم يضعف.

(٢٩) مسلم رقم ١٩٣ في الايمان، والبخاري ١٣/٣٩٥ في التوحيد، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار، انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٧.

فصل
ذكر من يخرج من النار برحمة الله من غير شفاعة أحد

قد تقدم حديث مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ وذكر خروج من يخرج من النار بشفاعة الملائكة والنبيين وغيرهم، قال: فيقول الله عز وجل: قد شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما، لم يعملوا خيرا قط.

وذكر الحديث.

وقوله عز وجل في الحديث قبل هذا: وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال: لا إله إلا الله.

وروى سنان بن حرب العبسي أنه سمع ابن عمر عن النبي ﷺ قال: اشتكت النار إلى ربها ضِيقَها بما فيها من أهلها، وحرَّها وزمهريرَها[1]، فغمزها، فقال: حسْ على عبادي، فأخرج منها عدد الجراد والذباب، ذكره أبو الحسن الدارقطني.

ذكر أبو بكر البزار عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: يأتي على جهنم زمان تخفق أبوابها، ليس فيها أحد - يعني من الموحدين - هكذا رواه موقوفا من قول عبدالله بن عمرو، وليس فيه ذكر النبي ﷺ.

وروى عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لايدخل الجنة أحد إلا بجواز - بسم الله الرحمن الرحيم - هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية.

وروى في مسند أحمد بن خالد.

* * *

(١) الزمهرير: البرد الشديد.

فصل
ما أول طعام أهل الجنة

ذكر البخاري من حديث أنس بن مالك، أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ [المدينة]، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط[1] الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال: أخبرني جبريل بهن آنفا، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إليه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إليها، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال: يارسول الله، إن اليهود قوم بهت، فسلهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاء اليهود ودخل عبدالله البيت فقال ﷺ: أي رجل عبدالله فيكم؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، ونقصوه، قال: هذا كنت أخافه يارسول الله.[2]

* * *

---

(١) أشراط: علامات.

(٢) البخاري ٦/٢٦١ في الأنبياء. جامع الأصول ١١/٣٨٢.

الباب العشرون
في صفة الجنة وما أعد الله لأهلها

قال الله عز وجـل: ﴿وبشـر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون[1]﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصـالحـات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا[2] *﴾

﴿إن المتقين في جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين *

ونـزعنـا ما في صدورهم من غل إخـوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين[3]﴾

﴿وقـالـوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[4]﴾

﴿إن المتقـين في مقـام أمـين * في جنـات وعيـون * يلبسون من سندس وإستـبرق متقـابلين * كذلـك وزوجنـاهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم[5]﴾

---

(١) آية ٢٥ من سورة البقرة.

(٢) آية ٥٧ من سورة النساء.

(٣) الآيات من ٤٥ ـ ٤٨ من سورة الحجر.

(٤) الآيتان ٣٤ و ٣٥ من سورة فاطر.

(٥) الآيات من ٥١ ـ ٥٧ من سورة الدخان.

﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يُصَدّعون عنها ولا يُنْزِفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاماً سلاماً * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهنّ إنشاء * فجعلناهن أبكاراً * عُرُباً أتراباً * لأصحاب اليمين(٦) *﴾

﴿إن للمتقين مفازا * حدائق أعنابا * وكواعب أترابا * وكأسا دِهاقا * لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذّاباً * جزاءً من ربك عطاءً حِسابا﴾(٧)

﴿إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون(٨)﴾.

٨٥/أ ﴿وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابيُّ مبثوثة. (٩)﴾.

[وذكر أبو بكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: خلق الله تبارك وتعالى الجنة، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك.

وذكر البزار أيضا من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: خلق الله الجنة

---

(٦) الآيات من ١٠ - ٣٨ من سورة الواقعة.
(٧) الآيات من ٣١ - ٣٦ من سورة النبأ.
(٨) الآيات من ٢٢ - ٢٨ من سورة المطففين.
(٩) الآيات من ٨ - ١٦ من سورة الفاشية.

لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك رواه هناد بن [السري].

وذكر الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت يارسول الله، مم خلق الله الخلق؟ قال: من الماء، قلت: والجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم.[10]

وذكر مسلم عن أبي سعيد الخدري أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن تربة الجنة، قال: درمكة بيضاء، مسك خالص.[11]

ومن حديثه قال: قال رسول الله ﷺ لابن صياد: ما تربة الجنة؟ قال: درمكة بيضاء يا أبا القاسم، قال صدقت.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال:[12]

وإذا ترابها المسك، فيها جنابذ من لؤلؤ. والجنابذ: القباب]

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[13]﴾.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: ﴿أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[13]﴾.

---

(١٠) الترمذي رقم ٢٥٢٨ في صفة الجنة، وفي سنده جهالة وانقطاع، ولكن له شواهد يقوى بها، وهومشتمل على عدة أحاديث، ظمن أوله إلى قوله: ولا يفنى شبابهم رواه أحمد والدارمي وبان حبان في صحيحه، والطبراني في الأوسط، ورواه مسلم بلفظ من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. انظر جامع الأصول ١٠/٤٩٧.

(١١) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٠٤٢ معناه في البياض درمكة وفي الطيب المسك، والدرمك: الدقيق الحواري، الخالص البياض.

(١٢) الكلام مقطوع في نسخ الأصل، ولم أعثر على بداية هذا الحديث.

(١٣) آية ١٧ من سورة السجدة.

وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾، وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا ان شئتم ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[١٤]﴾.

٨٥/ب وذكر مسلم من حديث سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، قال أبو حازم: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي فقال، حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمّر السريع مائة عام لا يقطعها.

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة لشجرة، يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾[١٥]، ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب[١٦].

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب ومن مسند البزار عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ إن في الجنة شجرة مستقلة على ساق واحدة، عرض ساقها اثنتان وسبعون سنة.

وذكر ابن المبارك عن سليم بن عامر، قال: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الله بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابي يوما، فقال: يارسول الله، لقد ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: وماهي؟ قال: السدر، فإن له شوكا مؤذيا، فقال رسول الله ﷺ: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿في سدر مخضود[١٧]﴾ خضد

(١٤) الترمذي رقم ١٣٩٥ في التفسير، ومثله عند البخاري ومسلم ببعض اختلاف في اللفظ. جامع الأصول ٤٩٤/١٠.
والآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

(١٥) آية ٣٠ من سورة الواقعة.

(١٦) البخاري ٢٣٢/٦ في بدء الخلق، ب اب ما جاء في صفة الجنة وفي تفسير سورة الواقعة، ومسلم رقم ٢٨٢٦ في صفة الجنة، والترمذي رقم ٢٥٢٥ في صفة الجنة جامع الأصول ٥٠٣/١٠.

(١٧) آية ٥٦ من سورة الواقعة.

الله شوكـه، فجعـل مكـان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرا، تتفتق الثمرة منها على اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر.
وثمرا بالثاء المثلثة فيها كلها.

وذكـر مسلم بإسنـاده عن أبي سعيـد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديـك، فيقـول: هل رضيتم؟ فيقـولـون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنـا مالم تعـط أحـدا من خلقـك، فيقـول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقـولـون: يارب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. (١٨)

وذكـر مسلم أيضـا من حديث أبي سعيـد الخـدري، أن رسـول الله ﷺ ٨٦/أ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الـدري العـابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا يا رسول الله تلك منـازل الأنبيـاء لا يبلغهـا غيرهم، قال: بلى والـذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. (١٩)

وذكـر مسلم عن محمـد بن سيرين، قال: إمـا تفـاخروا، وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أمن النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دري في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب. (٢٠)

وذكـر الـترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: إن أول زمرة يدخلون الجنـة يوم القيـامـة، وضوء وجوههم على مثال ضوء القمر ليلة البدر، والـزمـرة الثـانيـة على مثـل أحسن كوكب دري في السـماء، لكـل امرىء منهم

---

(١٨) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٦٠، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة.
(١٩) نفس المرجع رقم ١٩٦١، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف.
(٢٠) رواه مسلم رقم ٢٨٣٤ في الجنة. ١٠ ٥٢٦ جامع الأصول.

زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من ورائها(٢١).

وذكر مسلم بن الحجاج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة(٢٢) وأزواجهم الحور العين، على خَلْق رجلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء.

وذكر مسلم أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون ولا يبولون، ولا يتمخطون، ولا يبصقون، أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على طول أبيهم آدم ستون ذراعا(٢٣).

ويروى على خلق.

وذكر أيضا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ٨٦/ب أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا. (٢٤).

---

(٢١) الترمذي رقم ٢٥٣٧ في صفة الجنة، كما أورده المنذري منجوه في «الترغيب والترهيب» من رواية الطبراني عن عبدالله بن مسعود.

(٢٢) مسلم رقم ٢٨٣٤ في الجنة. جامع الأصول ٥٢٦/١٠. ومعنى الألُوَّة: الألنجوج: من أسماء العود الذي يتبخر به.

(٢٣) نفس الرواية السابقة والمراجع ذاتها.

(٢٤) أخرجه البخاري ومسلم. وسبق تخريجه. انظر جامع الأصول ٥٢٦/١٠.

وذكر من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، لا يتفلون، ولا يبولون، ولايتغوطون، ولا يتمخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفَس[٢٥].

وذكر النسائي من حديث زيد بن أرقم، قال: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة، قال الرجل: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى، فقال النبي ﷺ: حاجة أحدهم رشح يفيض من جلده، فإذا بطنه قد ضمر.

وذكر الترمذي من حديث أنس بن مالك، قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: ذلك نهر أعطانيه الله، يعني في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر، قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ آكلها أنعم منها.

ومن مسند البزار عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فتشتهيه، فيجيء مشويا بين يديك.

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: يبعث أهل الجنة عل صورة آدم، في ميلاد ثلاث وثلاثين سنة، جردا مردا مكحّلين، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة، فيكسون منها، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم.

وذكره الترمذي[٢٦]، وحديث أبي بكر أكمل.

وذكر الترمذي أيضا عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين في الجنة، لا يزيدون

---

(٢٥) مسلم رقم ٢٨٣٥ في صفة الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٢٧.

(٢٦) الترمذي رقم ٢٥٤٢ في صفة الجنة، وهو حديث حسن بشواهده. جامع الأصول ١٠/٥٢٨.

عليها أبدا، وكذا أهل النار[٢٧]. كذا قال: «ثلاثين» والأول أحسن إسنادا.

٨٧/أ وذكر مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه[٢٨]

وذكـر مسلم من حديث أبي سعيـد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعمـوا فلا تبأسـوا أبـدا، فذلك قوله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. [٢٩]﴾

وعن أبي بكر بن عبدالله بن قيس[٣٠] عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: إن للمؤمن في الجنـة لخيمـة من لؤلؤة واحـدة مجوفة، طولها [في السماء] ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا. [٣١]

وذكر مسلم، حدثنا أبوعبدالصمد، حدثنا أبوعمران بهذا الاسناد أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليم المؤمن. [٣١]

وذكـر الـترمـذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية إلى صنعاء[٣٢].

وذكـر الـترمـذي من حديث علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ إن في الجنة لغرفا، يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقام إليه أعرابي،

---

(٢٧) الترمذي رقم ٢٥٦٥ في صفة الجنة، وإسناده ضعيف.

(٢٨) مسلم رقم ٢٨٣٦ في الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٣٠.

(٢٩) أخـرجـه مسلم رقم ٢٨٣٧ في صفـة الجنة، والترمذي رقم ٣٢٤١ في التفسير والآية ٤٣ من سورة الأعراف. جامع الأصول ١٠/٥٣١.

(٣٠) عبدالله بن قيس: هو أبوموسى الأشعري.

(٣١) رواه البخاري ٦/٢٢٩ في بدء الخلق، باب صفة الجنة، ومسلم رقم ٢٨٣٨ في صفة الجنة.

(٣٢) الترمذي: رقم ٢٥٦٥ في صفة الجنة. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/٥٣٢.

فقال: لمن هي يارسول الله؟
قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام.(٣٣)

وعن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة(٣٤)﴾.
وهذا يروى عن ابن عمر موقوفا.

وذكر الترمذي أيضا عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت الدنيا، ولملأت ما بينها ريحا، ونصيفها - يعني خمارها - خير من الدنيا وما فيها.(٣٥)

٨٧/ب وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: لو أن ما يقل ظفرا مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره، لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم.(٣٦)

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب.

وذكر الترمذي أيضا عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة، حتى يرى مخها،

---

(٣٣) الترمذي رقم ١٩٨٥ في البر والنصلة. جامع الأصول ٩/ ٥٥٠.
(٣٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٥٦ في صفة الجنة، وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/ ٥٣٢.
(٣٥) أخرجه الترمذي رقم ١٦٥١ في فضائل الجهاد، ورواه بنحوه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم. جامع الأصول ١٠/ ٥٠٤ ومعنى قِدّه: سوطه.
(٣٦) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٤١ في صفة الجنة، ورواه أحمد في المسند ١/ ١٦٩ جامع الأصول ١٠/ ٥٠٥.

وذلـك أن الله عز وجـل يقـول: كأنهن اليـاقوت والمرجان(٣٧). فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه(٣٨).

ويروى هذا عن عبدالله بن مسعود من قوله.

وذكـر مسلم من حديث عبـدالله بن مسعـود، قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعـرف آخـر أهل الجنة خروجا من النار، رجل يخرج منها زحفا، فيقال له: انطلق فادخـل الجنـة، قال: فيـذهب فيـدخـل الجنـة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمن، فيتمنى، فيقال له: لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه(٣٩).

وعنه(٤٠) قال: قال رسول الله ﷺ إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة، رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله له: اذهب فادخـل الجنـة، قال: فيأتيهـا، فيخيـل إليـه أنهـا ملأى، فيرجع فيقول: يارب وجـدتهـا ملأى، فيقـول الله له: اذهب فادخل الجنة، قال فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها - أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا قال: فيقول: أتسخر بي - وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال(٤١): ذلك أدنى أهل الجنة منزلة(٤٢)

---

(٣٧) آية ٥٨ من سورة الرحمن.

(٣٨) الترمذي رقم ٢٥٣٥ و ٢٥٣٦ و ٢٥٣٧ في صفة الجنة، ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه رقم ٢٦٣٢ «موارد» في صفة الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٠٦.

(٣٩) مسلم رقم ١٨٦ في الايمان، باب آخر أهل النار خروجا، جامع الأصول ١٠/٥٥٤.

(٤٠) وعنه: أي عن عبدالله بن مسعود.

(٤١) «وكـان يقـال»: قائـل هذه العبـارة هو الـراوي، كما ذكر الحافظ في الفتح، وأما قائل المقالة المذكورة فهو النبي ﷺ.

(٤٢) أخرجه البخاري ١١/٣٨٦ في الرقاق، وفي التوحيد، ومسلم رقم ١٨٦ في الايمان كما سبق في التعليق الثالث آنفا. جامع الأصول ١٠/٥٥٣.

وذكر مسلم أيضا عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك ٨٨/أ، فيقول: رضيت رب، قال ربي فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾(٤٣).

وذكر النسائي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع، قالوا: يارسول الله أو يطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة(٤٤).

وذكر البزار في مسنده عن أبي هريرة قال: قيل يارسول الله، أنفضي إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: والذي نفسي بيده إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكارا.

وذكر الترمذي من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه، أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: يارسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: إن الله أدخلك الجنة فلا

---

(٤٣) رواه مسلم رقم ١٨٩ في الايمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، والترمذي رقم ٣١٩٦ في التفسير، باب ومن سورة السجدة. جامع الأصول ١٠/٥٣٣.

(٤٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٣٩ في صفة الجنة، ورواه الدارمي بإسناد صحيح انظر جامع الأصول ١٠/٥٣٠ وليس فيه أن الراوي النسائي.

(٤٥) الترمذي رقم ٢٥٤٦ في صفة الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٠٨.

تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء، تطير بك في الجنة حيث شئت إلا كان، فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟ فلم يقل له ما قال لصاحبه، فقال: إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذت عينك.

وذكر الترمذي من حديث عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس(٤٦).

وذكر الترمذي أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام.(٤٧)

وذكر الترمذي أيضا عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في أحداهن لوسعتهم(٤٨).

وذكر البزار من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، رواه هناد بن السري عن عثمان بن زفر عن زهير عن معاوية عن رجل، وهو سعد الطائي عن أبي مجاهد عن أبي المدله عن أبي هريرة، قال: قلنا يارسول الله، أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، ولا يفنى شبابه، ولا تبلى ثيابه.

وذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ابن صباد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، قال: در مكة بيضاء، ومسك خالص(٤٩).

ومن حديث أبي سعيد الخدري أيضا، قال: قال رسول الله ﷺ ٨٨/ب لابن صياد: ماتربة الجنة؟ قال: درمكة بيضاء، ومسك خالص، يا أبا القاسم، قال: صدقت(٥٠)

---

(٤٦) أخرجه الترمذي: رقم **٢٥٣٣** في صفة الجنة، وهو حديث صحيح. انظر جامع الأصول ١٠/ ٥٠٠.

(٤٧) الترمذي رقم **٢٥٣١** في صفة الجنة. وهو حديث حسن. نفس المرجع.

(٤٨) الترمذي رقم **٢٥٣٤** في صفة الجنة. وإسناده ضعيف. نفس المرجع.

(٤٩) سبق تخريجه.

(٥٠) سبق تخريجه.

وذكر النسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا، لم يشرب بها في الآخرة، ثم قال رسول الله ﷺ: لباس أهل الجنة، وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة(٥١).

وذكر مسلم من حديث أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. (٥٢)

وذكر الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد(٥٣).

ويروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لأنهار الجنة تخرج من تلال، أو جبال مسك. ذكره العقيلي.

وذكر الترمذي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن في الجنة لمجتمعا للحور العين، يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له(٥٤)

---

(٥١) لم أجد هذا الحديث مجتمعا ولكن تحريم الحرير ورد بهذا اللفظ في حديث البخاري ومسلم، وتحريم الخمر ورد في حديث آخر، رواه الخمسة ومالك، انظر جامع الأصول ١٠/ ٦٧٩ في الأول و٥/ ٩٨ و١٠٠ في الثاني. أما تحريم الشرب في آنية الذهب والفضة فقد ورد في حديث آخر رواه الخمسة انظر جامع الأصول ١٠/ ٣٨٥.

(٥٢) مسلم رقم ١٨٠ في الايمان.

(٥٣) الترمذي رقم ٢٥٧٤ في صفة الجنة، ورواه أيضا الدارمي ٢/ ٣٣٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. جامع الأصول ١٠/ ٥٠٧.

(٥٤) الترمذي: رقم ٢٥٦٧ في صفة الجنة. والحور: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها. والعين: جمع عيناء، وهي الواسعة العين. جامع الأصول ١٠/ ٥٠٩.

وذكر البخاري عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة ثمانية أبواب، منها باب يسمى الريان، لايدخله إلا الصائمون[٥٥].

وذكر الترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضعه وسنه في ساعة [واحدة] كما يشتهي.

قال إسحاق بن إبراهيم في حديث النبي ﷺ: إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة كما يشتهي، ولكن لا يشتهى.

يريد أنه لا توالد في الجنة، كما جاء عن النبي ﷺ[٥٦].



(٥٥) أخرجه البخاري ٤/٩٥ و٩٦ في الصوم. جامع الأصول ٩/٤٥٨.

(٥٦) الترمذي رقم ٢٥٦٦ في صفة الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٢٩.

فصل
ما جاء أن أهل الجنة لا ينامون

ذكر البزار في مسنده عن جابر بن عبدالله قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة، قال: لا، النوم أخو الموت، زاد أبو الحسن الدارقطني: والجنة لا موت فيها، ذكره من حديث جابر أيضا.

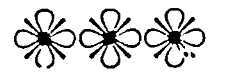
* * *

فصل
ما جاء في زيارة أهل الجنة ربهم عز وجل

ذكر الترمذي عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة، فقال أبو هريرة: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، فقال: سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ٩٩/أ ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم - وما فيهم دني - على كثبان المسك والكافور، وما يرون أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يارسول الله، وهل نرى ربنا؟ قال: نعم، هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قلنا: لا، قال: كذلك لا تتمارون في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة، حتى يقول للرجل منهم: يافلان بن فلان، أتذكر يوم كذا وكذا، إذ قلت كذا وكذا؟ فيذكره

ببعض غدراتـه في الـدنيـا، فيقـول: يارب، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى فبسعة مغفـرتي بلغت منـزلتك هذه، فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطـرت عليهم طِيبـا، لم يجدوا مثـل ريحـه شيئـا قط، ويقول ربنا: قوموا إلى ما أعـددت لكم من الكـرامـة، فخـذوا ما اشتهيتم، فنأتي سوقـا قد حفت به الملائكـة، فيـه مالم تنظـر العيـون إلى مثله، ولم تسمـع الآذان، ولم يخطـر على القلوب، فيحمل لنا ما اشتهينا بغير بيع ولا شراء، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا، قال: فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة، فيلقى من هو دونه ـ ومـا فيهم دني، فيروعـه ما يرى عليـه من اللبـاس، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتخيـل إليـه ما هو أحسن منـه، وذلـك أنه ليس ينبغي لأحد أن يحزن فيها، ثم ننصـرف إلى منـازلنـا، فتتلقـانا أزواجنا، فيقلن: مرحبا وأهلا، لقد جئت وإن بك من الجمـال أفضـل مما فارقتنـا عليـه، فنقـول: إنـا زرنا اليوم ربنا الجبار جل جلاله، ويحق لها أن ننقلب بمثل ما انقلبنا.[1]



(١) الترمذي رقم ٢٥٥٢ في صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. جامع الأصول ١٠/٥١١.

فصل
[في رؤية أهل الجنة ربهم]

ذكر الترمذي من حديث صهيب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾(١) قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا، قالوا: ألم يبيض وجوهنا وينجنا من النار، ويدخلنا الجنة؟ قالوا: بلى، فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى [ربهم تبارك وتعالى]. (٢)

وذكر البزار عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم، فقال: السلام عليكم أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، لا يلتفتون إلى شي من النعيم، ويبقى نوره في ديارهم.

* * *

---

(١) آية ٢٦ من سورة يونس.

(٢) الترمذي رقم ٢٥٥٥ في صفة الجنة، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم جامع الأصول ١٠ / ٥٦٠ وفيه: يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم، بدل: نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا.

فصل
ما جاء أن في الجنة سوقا

ذكر مسلم من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، ويزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا(٣).

وأنشدوا:

لمن ظل بجنات الخلودِ ... يبرد حر أنفاس العميدِ
يرد من الصبا ما كان غضا ... ويطلع فوقه نجم السعودِ
ويجمع قاصيات(٤) للأماني ... شردن عليك أيام الشرودِ
وزد ما شئت من أمل بعيد ... فقد أسعفت بالأمل البعيد
لمن تلك القصور مشيدات ... وليس كما عهدت من المشيد
قصور ما قصور ما قصور ... تريك عجائب الملِك الحميد
ذهبْت لوصفها فعجزت عنه ... كعجز الماء يذهب للصعود
لمن تلك القباب مكللات ... بطيب العيش والعمر المديد
أمانٍ من تصاريف الليالي ... وإسعاد جديد في جديد
ملئن بكل قاصرة لعوب ... تلألأ فوق مطلعها السعيد
كأن الحسن خص بها رواها ... فليس على رواها من مزيد

---

(٣) مسلم رقم ٢٨٣٣ في صفة الجنة، باب في سوق الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٠٩.
(٤) قاصيات: بعيدات.

تماشــى من شذاهــا في ريــاض | وتخطــر من سنــاهــا في برود
يحار الطــرف من نظــر إلــيــهــا | ويــشــخص في خدود أو قدود
عجــبــت لها ولي تدنــو وأنأى | وتــدعــوني وأعــرض في صدود
ومــا هــذاكمـــو إلا لأني | نزلــت بهامــتي تحت الــصــعــيــد
وأعظــم حســرة من ذاك جهــلي | بخــالــقــهــا وجــهــلي بالــوعــيــد
ولــو أني اســتــضأت بنــور علم | يوفــقــني على الــرأي الــســديــد
لآثــرت الالــه ولم ألاحــظ | سواه من طريــف أو تليــد(٥)
ولــكــني وردت حيــاض دنــيــا | شرعــت بهن في ماء صديــد
على علم وردْت بســوء رأي | وجــهــلي بالمقــاصــد والــعــقــود
فمــن لي والمنــى حلوٌ جنــاهــا | ومــنــهــلــهــا شهــي للورود
بعــلْمٍ مؤيــدٍ فطــن لبــيــب | وتــوبــة حازم جَلْدٍ شديــد
تريــه الــبــدر في ظُلَم الــديــاجي | وتــنــهــضــه بأثــقــال الــعــهــود
لعــل عوارف الــرحمــن تصــفــو | بذاك على سؤول مســتــزيــد
فتــورده موارد صافــيــات | كطــعــم المســك بالعــذب الــبرود
وإلا صُبَّ في مهــوىً عمــيــقٍ | ودُحــرِج من ذرى طوْد بعــيــد

* * *

(٥) سقط هذا البيت من ز والطريف: المال المحدث: والتليد: القديم والموروث.

الباب الحادي والعشرون
في صفة النار، وصفة أهلها، وما أعد الله لهم فيها

قال الله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما.[1]﴾

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين * لهم من جهنم مهاد من فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين[2]. ﴾

﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم يُنْظَرون[3]﴾

فالذين كفروا قُطِّعَت لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم * يُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق.[4]﴾.

﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾[5].

﴿أولئك الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يُسْجَرون[6]﴾.

---

(١) آية ٥٦ من سورة النساء.

(٢) الآيتات ٤٠ ـ ٤١ من سورة الأعراف.

(٣) الآيتان ٣٩ ـ ٤٠ من سورة الأنبياء.

(٤) الآيات ١٩ ـ ٢٢ من سورة الحج.

(٥) آية ١٠٤ من سورة المؤمنون.

(٦) آية ٧٢ من سورة غافر.

﴿والــذين كفــروا لهم نار جهنم لا يُقْضَى عليهم فيمـوتـوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابهـا كذلـك نجـزي كل كفـور * وهـم يصطـرخـون فيها ربنا أخرِجْنا نعمل صالحـا غير الـذي كنـا نعمـل أو لم نُعمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير[7]﴾

﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم[8]﴾ .

﴿وأصحـاب الشِّمال ما أصحـاب الشِّمال * في سَموم وحميم * وظلٍّ من يَحْموم * لا باردٍ ولا كريم﴾[9]

﴿خذوه فغُلُّوه * ثم الجحيم صَلُّوه * ثم في سلسلة ذَرْعُها سبعون ٩٠/أ ذراعا فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يَحُضُّ على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعامٌ إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون . [10]﴾ .

﴿إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غُصَّة وعذاباً أليماً[11]﴾ .

﴿إن جهنم كانت مِرْصـادا * للطـاغـين مآبـا * لابثـين فيها أحْقابا * لا يذوقـون فيهـا بَرْدا ولا شرابـا * إلا حميـما وغسـاقا * جزاءً وفاقا * إنهم كانوا لا يَرْجون حسابا * وكذَّبوا بآياتنا كِذّابا * وكل شيء أحْصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا[12]﴾

﴿هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حاميـة * تسقى من عين آنيـة * ليس لهم طعـام إلا من ضريـع * لا يسمن ولا يغني من جوع[13]﴾ .

---

(٧) الآيتات ٣٦ ـ ٣٧ من سورة فاطر.
(٨) الآيتات ٤٣ ـ ٤٩ من سورة الدخان.
(٨) الآيتات ٤١ ـ ٤٤ من سورة الواقعة.
(١٠) الآيتات ٣٠ ـ ٣٧ من سورة الحاقة.
(١١) الآيتات ١٢ ـ ١٣ من سورة المزمل
(١٢) الآيتات ٢١ ـ ٣٠ من سورة النبأ.
(١٣) الآيتات ١ ـ ٧ من سورة الغاشية.

وذكــر الـترمـذي من حديث أبي هريـرة عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الجنـة، قال لجبريـل: اذهب فانظـر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ولما خلق الله النار، قال لجبريل: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعـددت لأهلهـا فيهـا، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحـد فيـدخلهـا، فحفهـا بالشهـوات، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزتك لقد خشيت أن لايبقى أحد إلا دخلها(١٤).

وذكـر مسلم من حديث سفيـان عن عبـدالله قال: قال رسـول الله ﷺ: يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها(١٥).

ومن حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ناركم هذه التي توقــدون جزء من سبعــين جزءا من نار جهنم، قالـوا: والله إن كانت لكـافيـة يارسـول الله، قال: فإنهـا فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها(١٦)

وقـال سفيـان بن عيينـة من حديث أبي هريـرة رضي الله عنـه قال: قال رســول الله ﷺ: ناركم هذه جزء من سبعــين جزءا من نار جهنم، ولــولا أنهـا ضربت بالماء مرتين لما كان لأحد فيها منفعة.

---

(١٤) الـترمـذي رقم ٢٥٦٣ في صفـة الجنـة، وقال هذا حديث حسن صحيح. كما رواه النسائي ٣/٧ في النـذور، وزاد فيـه عبـارة: «وإلى ما أعددت لأهلها فيها» بالنسبة للجنة وللنار، ورواه أبـوداود رقم ٤٧٤٤ في السنـة باب في خلق الجنـة والنـار، ورواه ابن حبان والحاكم. جامع الأصول ١٠/٥٢٠.

(١٥) رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود رقم ٢٨٤٢ في صفة الجنة، والترمذي رقم ٢٥٧٦ في صفة جهنم. جامع الأصول ١٠/٥١٩.

(١٦) مسلم رقم ٢٨٤٣ في صفة الجنة، باب في شدة حر نار جهنم، والبخاري ٦/٢٣٨ في بدء الخلق، باب صفة النار، والترمذي رقم ٢٥٩٢ في صفة جهنم. جامع الأصول ١٠/٥١٢.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة(١٧).

ومن حديث مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر ٩٠/ب رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها. (١٨)

ويروى أن لهب النار يرفع أهل النار، حتى يطيروا كما يطير الشرر، فإذا رفعهم أشرفوا على الجنة، وبينهم حجاب «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا، قالوا: نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين(١٩)» «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين(٢٠)» فتردّهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد إلى قعر جهنم.

قال بعض المفسرين: هو معنى قوله تعالى ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون. (٢١)

ولعلك تقول: وكيف يرى أهل الجنة أهل النار؟ وأهل النار أهل الجنة؟ وبينهم ما بينهم من المسافة؟ أو كيف يسمع بعضهم كلام بعض وبينهم ما بينهم من المسافة وغلظ الحجاب؟!

فيقال لك: لا تقل هذا، فإن الله تعالى يقوي أبصارهم وأسماعهم، حتى يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم بعضا، وهذا قريب في القدرة جدا، وإذا تأملته وجدته.

---

(١٧) الترمذي رقم ٢٥٩٤ في صفة جهنم. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/٥١٣.

(١٨) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٧٧.

(١٩) آية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٢٠) آية ٥٠ من سورة الأعراف.

(٢١) آية ٢٠ من سورة السجدة.

وذكر الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[٢٢]﴾ فقال رسول الله ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟!

ومن حديثه أيضا عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: لو أن رصاصة مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة ـ أرسلت من السماء إلى الأرض ـ وهي مسيرة خمسمائة سنة ـ لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار، قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها. [٢٤]

ومن حديث قاسم بن أصبغ عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لو أن دلوا من [غساق] يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا. [٢٥]

وبهذا الاسناد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره. [٢٦]

والصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا، ثم يهوي كذلك أبدا.

قال قاسم بن أصبغ: وبهذا الاسناد عن النبي ﷺ قال: لو أن مقمعا من حديد وضع على الأرض، فاجتمع الثقلان ما أقلّوه من الأرض.

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: لو ضرب بمقمع من حديد الجبل لتفتت فصار غبارا.

---

(٢٢) آية ١٠٢ آل عمران.

(٢٣) الترمذي رقم ٢٥٨٨ في صفة جهنم، وقال: هذا حديث حسن صحيح. جامع الأصول ٥١٦/١٠.

(٢٤) الترمذي رقم ٢٥٩١ في صفة جهنم، باب رقم ٦، قال الترمذي: هذا إسناد صحيح. جامع الأصول ٥١٤/١٠.

(٢٥) الترمذي رقم ٢٥٨٧ في صفة جهنم، وإسناده ضعيف، جامع الأصول ٥١٧/١٠.

(٢٦) الترمذي رقم ٣١٦٤ في التفسير، باب ومن سورة الأنبياء، وإسناده ضعيف. جامع الأصول ٥١٦/١٠.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج عُنق من النار يوم القيامة، له عينان تبصران، وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وكلت ٩١/أ بثلاثة: بمن جعل مع الله إلها آخر، وبكل جبار عنيد، وبالمصورين(٢٧).

وذكر الترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله [تعالى]: ﴿ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾(٢٨) قال: يقرب إلى فيه، فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره، يقول الله عز وجل: ﴿وسُقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم(٢٩)﴾ ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا(٣٠)﴾.

وذكر من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان.

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب يجر قصبه في النار(٣١). وقد تقدم. والقصب: الأمعاء.

ومن حديث مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال

---

(٢٧) رواه الترمذي رقم ٢٥٧٧ في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة النار قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. جامع الأصول ٥١٨/١٠.

(٢٨) الآيتان ١٦ ـ ١٧ من سورة إبراهيم.

(٢٩) آية ١٥ من سورة محمد.

(٣٠) آية ٢٩ من سورة الكهف. وهذا الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥٨٦ في أبواب صفة جهنم عن أبي أمامة الباهلي وليس عن أبي سعيد الخدري انظر جامع الأصول ٢٠١/١٠.

(٣١) مسلم رقم ٢٨٥٦ جامع الأصول ١٢٧/٢.

له: يا ابـن آدم، هل رأيت بؤسـا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقـول: لا والله يارب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط.[٣٢].

وذكر البزار في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون، ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم.

ومن حديث مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ضرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث.[٣٣].

وذكـر مسلم أيضـا من حديث أبي هريـرة يرفعـه، قال: ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع[٣٣].

وذكـر الـترمـذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه في جهنم كما بين مكة والمدينة.[٣٣]

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يلقى على أهـل النـار الجـوع، فيعـدل ما هم فيـه من العـذاب، فيستغيثـون، فيغـاثـون بطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع ٩١/ب فيستغيثـون بالطعـام، فيغـاثون بطعام ذي غصة، فيتذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الـدنيـا بالشـراب، فيستغيثـون بالشـراب، فيـدفـع إليهم الحميم بكـلاليب الحـديـد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم عساهم يخففون عنا فيقولون لهم: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال[٣٤] فيقولون ادعوا مالكا، فيقولون: ﴿يامالك ليقض علينا ربك﴾ فيجيبهم ﴿إنكم ماكثون[٣٥]﴾.

---

(٣٢) مسلم رقم ٢٨٠٧ في المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار جامع الأصول ٥٩٠/١٠.

(٣٣) مسلم رقم ٢٥٨١ والترمذي رقم ٢٥٨٠ و٢٥٨١ و٢٥٨٢ في صفة جهنم. جامع الأصول ٥٤١/١٠.

(٣٤) آية ٥٠ من سورة غافر.

(٣٥) آية ٧٧ من سورة الزخرف.

قال سليمان بن مهران الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وإجابة مالك لهم مقدار ألف عام، قال: فيقولون: ادعوا ربكم، فلا أحد خير منه، فيقولون: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾[36].

قال: فيجيبهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون[37]﴾ فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والوَيل[38].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين، يتوطؤه الناس[39].

ويروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار الدموع حتى تنقطع، ثم يبكون الدماء حتى تصير الدماء في خدودهم كأمثال الجداول، ولو أجريت فيها السفن لجرت. ذكره الترمذي وغيره.

وذكر مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: لأهون أهل النار عذابا: لوكانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك، أحسبه قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك.

وذكر البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئا، فأبيت إلا الشرك[40].

---

(٣٦) الآيتان ١٠٦ ـ ١٠٧ من سورة المؤمنون.

(٣٧) آية ١٠٨ من سورة المؤمنون.

(٣٨) الترمذي رقم ٢٥٨٩ في صفة جهنم. وإسناده ضعيف مرفوعا وموقوفا جامع الأصول ٥٤٠/١٠.

(٣٩) الترمذي رقم ٢٥٨٣ في صفة جهنم. جامع الأصول ٥٤٢/١٠.

(٤٠) البخاري ٣٦٧/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٥ في المنافقين. جامع الأصول ٥٩١/١٠.

ويروى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم بعنف، فلفحتهم لفحة لم تترك لحما على عظم إلا ألقته على العرقوب.

* * *

فصل

ذكر أهون أهل النار عذابا

ذكر مسلم عن العباس بن عبدالمطلب أنه قال: يارسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟

قال: نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار[1].

وذكر مسلم أيضا من حديث عبدالله بن الحارث، قال: سمعت العباس يقول: ٩٢/أ قلت: يارسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح[1].

وذكر مسلم عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشد عذابا منه، وإنه لأهونهم عذابا.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذُكِر عنده عمه أبو طالب، فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه[2].

---

(١) البخاري ١٤٨/٧ في فضائل الصحابة وفي الأدب وفي الرقاق ومسلم رقم ٢٠٩ في الايمان. جامع الأصول ٢٣٩/٩.

(٢) البخاري ١٤٩/٧ في فضائل الصحابة، وفي الرقاق، ومسلم رقم ٢١٠ في الايمان. جامع الأصول ٢٣٨/٩.

وذكر مسلم أيضا من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: أهون أهل النار عذابا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين من نار، يغلي منهما دماغه[3].

وذكر مسلم أيضا من حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه[4].

* * *

---

(٣) مسلم رقم ٢١٢ في الايمان. جامع الأصول ٩/٢٣٨.

(٤) مسلم رقم ٢١٣ في الايمان، والبخاري ١١/٣٧٢ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٦٠٧ في صفة جهنم.

فصل
ذكر من أشد الناس عذابا

ذكر قاسم بن أصبغ من حديث عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة رجل قتل نبيا، أو قتله نبي، أو مصور يصور التماثيل[1].

* * *

(١) رواه البخاري ١٠/ ٣٢١ و٣٢٢ ومسلم رقم ١٢٠٩ في اللباس. والنسائي ٨/ ٢١٦ جامع الأصول ٤/ ٨٠٠.

فصل
أخذ النار المعذبين على قدر أعمالهم

ذكر مسلم من حديث سمرة بن جندب أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه الى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى عنقه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: منهم منْ تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى ترقوته.

وذكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: إن أهون أهل النار عذابا رجل منتعل بنعلين من نار، يغلي منهما دماغه[1].

* * *

(١) سبق تخريجه.

الباب الثاني والعشرون
ذكر الخلود

ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس، فيقولون: نعوذ بالله منك، الله ربنا، هذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم، قالوا: وهل نراه يارسول الله؟ قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يارسول الله، قال: فإنكم لا تضارون في رؤيته ٩٢/ب تلك الساعة، ثم يتوارى، ثم يطلع فيعرفهم نفسه، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني، فيقوم المسلمون، ويوضع الصراط، فيمر عليه مثل جياد الخيل والركاب، وقولهم عليه: سلِّمْ سلِّمْ، ويبقى أهل النار، فيطرح منهم فيها فوج، ثم يقال لها: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد، حتى أذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها، وأزوى بعضها إلى بعض، ثم قال: قط، قالت: قط، قط، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت مُلَبّباً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: ياأهل الجنة، فيطلعون خائفين، ثم يقال يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين، يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون، هؤلاء وهؤلاء قد عرفناه، هو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحا على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت.

وذكر هناد بن السري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط، فيقال يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ربنا هذا الموت، فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون، لا موت فيها أبدا.

وذكر مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[٢]، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا: فيشرئبون[٣] وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذا قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده إلى الدنيا[٤].

وذكر مسلم من حديث نافع أن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم، فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار، لاموت، كل خالد فيما هو فيه.

وذكر أيضا من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتي بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم.

وذكر الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، رفعه قال: إذا كان يوم

---

(٢) أملح: أسود يعلو شعره بياض.

(٣) يشرئبون: يمدون أعناقهم.

(٤) مسلم رقم ٢٨٤٩ في الجنة. والبخاري ٣٢٥/٨ في تفسير سورة مريم والترمذي رقم ٢٥٦١ في الجنة. جامع الأصول ٤٩٢/١٠.

القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة ٩٣/أ، ولو أن أحدا مات حزنا لمات أهل النار.

وذكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من كتب عليه الخلود لم يخرج منها. يعني من النار.

وأنشدوا:

أما سمعت بأهل النار في النار ... وعن مقاساة ما يلقون في النار

أما سمعت بأكباد لهم صدعت ... خوفا من النار قد ذابت على النار

أما سمعت بأغلال تناط بهم ... فيسحبون بها سحبا على النار

أما سمعت بضيق في مجالسهم ... وفي الفرار ولا فرار في النار

أما سمعت بحيات تدب بها ... إليهم خلقت من خالص النار

أما سمعت بأنفاس لهم حبست ... عن التنفس من حرارة النار

أما سمعت بأجساد لهم نضجت ... من العذاب ومن غلي على النار

أما سمعت بما يكلفون به ... من ارتقاء جبال النار في النار

حتى إذا ما علوا على شواهقها ... صبوا بعنف إلى أسافل النار

أما سمعت بزقوم يُسَوَّغه ... ماء صديد ولا تسويغ في النار

يسقون منه كئوسا مُلئت سقما ... ترمي بأمعائهم رميا على النار

يشوي الوجوه وجوها ألبست ظلما ... بئس الشراب شراب ساكني النار

ولا ينامون إن طاف المنام بهم ... ولا منام لأهل النار في النار

إن يستقيلوا فلا تقال عثرتهم ... أو يستغيثوا فلا غياث في النار

وإن أرادوا خروجا رُدَّ خارجهم ... بمقمع النار مدحورا إلى النار

فهم إل النار مدفوعون بالنار ... وهم من النار يهرعون للنار

ما أن يخفف عنهم من عذابهم ... ولا تُفَتَّر عنهم سورة النار

فهذه صدعت أكباد سامعها ... من ذي الحجى ومن التخليد في النار

ولو يكون إلى وقت عذابهم ... في النار هوّن ذاكم لفحة النار

فيا إلهي ومن أحكامه سبقت ... في الفرقتين من الجنات والنار

رحمــاك يارب في ضعـفي وفي ضعتي　　فما وَجـــودِكَ لي صبر على الـنــار
ولا على حر شمس إن بَرزْتُ لها　　فكـــيــف أصــبر يا مولاي للنــار
فإن تغـــمــدني عفــو وثــقــت به　　منــكـــم وإلا فإني طعـــمـــة الـنــار

ونحن نستعيـذ بالله من عذابـه الـذي لا يقـوم له جميـع الـوجود، فكيف الحشرات منه والدود، ومن غضبه الذي لا يستطاع ذكره ولا يقدر قدره، ونسأله رحمته التي ننقلب منها بأفعالنا، ونتباعد عنها بقبيح أعمالنا، بمنّه وطوْله، لا رب غيره، ولا معبـود سواه، وصلى الله على سيـدنـا محمـد خاتم النبيـين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

جاء في آخر نسخة اليمن الجنوبية ما نصه :

كمل كتاب العاقبة للإمام العلامة عبدالحق الأزدي المالكي الأندلسي بحمد الله وحسن عونه ، وتوفيقه .

ووافق الفراغ منه في ثاني شهر ربيع الآخر من شهور سنة ست وعشرين وثمانمائة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ووارثيه وحزبه ومن تبعه إلى يوم الدين ، وسلم .

تتميم كتابة هذا الكتاب المسمى كتاب العاقبة بقلم السيد العلامة محمد بن عبدالرحم الزواوي ، وجله ماعدا المرقع بقلم سيدنا الشيخ الكبير محمد بن الشيخ عبدالرحمن السقاف ، نفع الله بهم .

وجاء في آخر نسخة شستربتي ما نصه :

تم كتاب العاقبة ، بحمد الله تعالى وفضله ، وعونه وتوفيقه ومنه ، بتاريخ سلخ ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

حسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين

وجاء في آخر نسخة المكتبة الأزهرية ما نصه :

تم كتاب العاقبة بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه على يد كاتبه العبد المفتقر إلى رحمة ربه العلي أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي . . . ووافق الفراغ منه في ليلة أسفر صباحها عن ثامن عشر رجب الفرد سنة خمس عشرة وثمانمائة .





الفهـــــرس

مقدمة التحقيق ٢
ترجمة المؤلف ٥
كتبـــه ٦
كتاب العاقبة ٧
مخطوطات الكتاب ٨
عملي في التحقيق ١٠
مصورات المخطوطات ١١
مقدمة المؤلف عن الموت ٢٣
الباب الأول : من أخبار بعض الأموات ١٣٩
الباب الثاني : ما يستحب من أحوال الميت ١٤٣
الباب الثالث : في الجنائز ١٥٠
الباب الرابع : في الثناء الحسن على الميت ١٥٧
الباب الخامس : ما يقال عند حضور الميت ١٦٣
الباب السادس : ما يحذر من سوء الخاتمة ١٧١
الباب السابع : تلقين الميت بعد الدفن ١٨٢
الباب الثامن : ذكر القبور ١٨٦
الباب التاسع : زيارة القبور ٢١١
الباب العاشر : منامات لبعض الصالحين ٢٢١
الباب الحادي عشر : منامات تدل على سوء الحال ٢٣٢
الباب الثاني عشر : الأرواح وأين يذهب بها وعذاب القبر ٢٣٥
الباب الثالث عشر : يوم القيامة وأهواله ٢٤٩
الباب الرابع عشر : النفخ في الصور ٢٥٢
الباب الخامس عشر : انبعاث الناس من قبورهم ٢٦٣

فصـــــل : طول يوم القيامة ٢٨١
الباب السادس عشر : ذكر الحوض ٢٨٦
الباب السابع عشر : الشفاعة الأولى ٢٩٢
الباب الثامن عشر : المساءلة والتقرير ٢٩٥
فصـــــل : أول ما يحكم فيه يوم القيامة ٣٠٥
فصـــــل : الموازين والكتب ٣٠٨
فصـــــل : ما يتكلم من الإنسان وشهادة الجوارح ٣١١
فصـــــل : الصراط ودرجات الناس في المرور ٣١٣
فصـــــل : بعث النار ٣١٦
فصـــــل : أهل الفترة ٣١٧
فصـــــل : سعة رحمة الله ٣١٨
فصـــــل : كثرة أمة محمد ٣٢١
فصـــــل : كم يدخل الجنة بغير حساب ٣٢٢
الباب التاسع عشر : الشفاعة الثانية ٣٢٦
فصـــــل : من يخرج من النار ٣٣٩
فصـــــل : أول طعام أهل الجنة ٣٤٠
الباب العشرون : صفة الجنة وما أعد الله لأهلها ٣٤١
فصـــــل : أهل الجنة لا ينامون ٣٥٥
فصـــــل : زيارة أهل الجنة ربهم ٣٥٥
فصـــــل : رؤية أهل الجنة ربهم ٣٥٧
فصـــــل : في الجنة سوق ٣٥٨
الباب الحادي والعشرون : في صفة النار وما أعد الله لأهلها ٣٦٠
فصـــــل : أهون أهل النار عذاباً ٣٦٩
فصـــــل : أشد الناس عذاباً ٣٧١
فصـــــل : أخذ النار المعذبين بقدر أعمالهم ٣٧٢
الباب الثاني والعشرون : ذكر الخلود ٣٧٣

المراجـــع

١	إحياء علوم الدين	أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
٢	الإصابة في تمييز الصحابة	أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني
٣	الأعـــــلام	خير الدين الزركلي
٤	بداية المجتهد	محمد بن أحمد بن رشد
٥	بغية الملتمس	أحمد بن عميرة الضبي
٦	تاريخ الأدب العربي	كارل بروكلمان
٧	تاريخ الخلفاء	جلال الدين السيوطي
٨	التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة	محمد بن أحمد القرطبي
٩	تذكرة الحفاظ	أبو عبدالله شمس الدين الذهبي
١٠	تكملة الصلة	عبدالواحد المراكشي
١١	تهذيب الأسماء واللغات	محي الدين النووي
١٢	الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد القرطبي
١٣	جامع الأصول	محمد بن الأثير الجزري
١٤	الديباج المذهب	ابراهيم بن فرحون
١٥	سبل السلام	محمد بن اسماعيل الصنعاني
١٦	سنن أبي داود	سليمان بن الأشعث
١٧	سنن الترمذي	محمد بن عيسى الترمذي
١٨	سنن النسائي	أحمد بن شعيب
١٩	سير النبلاء	أبو عبدالله شمس الدين الذهبي
٢٠	شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي
٢١	صحيح البخاري	محمد بن اسماعيل البخاري

٢٢	صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج النيسابوري
٢٣	العبر	أبو عبدالله الذهبي
٢٤	فتح الباري	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٢٥	فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبي
٢٦	القاموس المحيط	مجدالدين الفيروز آبادي
٢٧	كشف الظنون	حاجي خليفة
٢٨	لسان العرب	محمد بن مكرم بن منظور
٢٩	مختار الصحاح	محمد بن أبي بكر الرازي
٣٠	مرآة الجنان	عبدالله اليافعي
٣١	مسند ابن أبي شيبة	ابن أبي شيبة
٣٢	مسند البزار	البزار
٣٣	المعجم المفهرس للحديث النبوي	ونسنك ولجنة من المستشرقين
٣٤	معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة
٣٥	الوفيات	ابن قنفذ